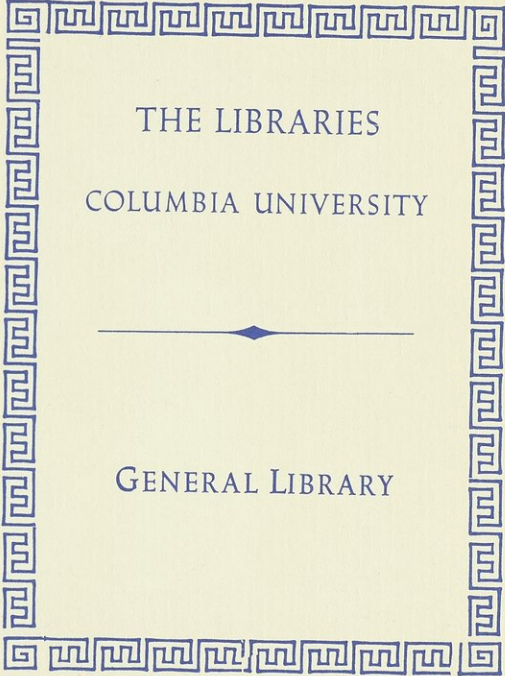




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

الجمعية التاريخية لخريجي كلية الآداب
بجامعة الإسكندرية

دراسات في التاريخ اللوبي

الأسس التاريخية لمستقبل لوبيك

تأليف

مصطفى عبد الباقى

ليسانسيه في التاريخ «جامعة الإسكندرية»
دبلوم في التربية وعلم النفس «القاهرة»

الثن ٤٠

مطابع عابدين ٦ ميدان اسماعيل
تليفون ٢١٠٥٦ اسكندرية

أكتبه بقدر واحد ٢٣٣٣
لأستاذي الدكتور جعفر

الجمعية التاريخية لخريجي كلية الآداب
بجامعة الإسكندرية

الحول
بطل جبر
نوبمبر ١٩٥٧

دراسات في التاريخ اللوبي

الأسس التاريخية لمستقبل لوبي

تأليف

مصطفى عبد الله بعتو

ليسانسيه في التاريخ «جامعة الإسكندرية»
دبلوم في التربية وعلم النفس «القاهرة»

5296

مطابع عابدين ٦ ميدان اسماعيل
تليفون ٢١٠٥٦ اسكندرية

١٩٥٣

DT
224
.B3

چند روزی که در این

تقریباً

در این

در این

در این

در این

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقل رب زدني علماً

قرآن کریم

18916 G LBI 84/10/21

~~DT~~
~~256~~
~~B 33~~

الالهراء

إلى لوبيا وطننا المحبوب الذى ضحى من أجله المجاهدون ، وجاهد فى سبيله
المهاجرون ، واغترب المغتربون ، حتى نال استقلاله فى ظل مليكتنا المفدى
السيد محمد ادريس المهدي السنومى ملك لوبيا المعظم رمز مجدها ومناسط آمال
شعبها ، أقدم كتابي .

المؤلف

مقدمة

بقلم المؤرخ الجليل الأستاذ عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ
الإسلامى وعميد كلية الآداب بجامعة اسكندرية سابقاً
وعضو المجمع اللغوى بالقاهرة .

من بضع سنوات مضت نشر الأستاذ مصطفى بعيو كتاباً أسماه «المجمل
فى تاريخ لوبيا» ، وطلب إلى تصديره ففعلت وقلت فى كلفتى التى صدرته بها أن
الأستاذ بعيو شاب عربى يتسم بسمت العربى الأصيل ، فهو هادى الطبع ،
ذكى القلب ، وقلبه ينطوى على آمال كبار .

وهانذا اليوم أقول أن هذه الآمال الكبار قد بدأت تتفتح شيئاً فشيئاً ،
وتأخذ طريقها إلى الوجود الفعلى رويداً رويداً ، وآية ذلك هذا السفر الذى
وضعه صاحب «المجمل» ضمنه دراسات هامة عن لوبيا ، لم يتسع «المجمل»
لإحتوائها وتفصيلها .

...

...

...

وهدف الأستاذ بعيو من هذه الدراسات إنما هو رسم الأسس التاريخية
لمستقبل لوبيا ، وتلك لعمر الحق ، الخطة المثلى والطريقة المستقيمة ، فحاضر
كل أمة متأصل فى ماضيهما ، كما أن مستقبلهما موصول بحاضرها وما من أمة
أرادت النهوض ، فبنت نهضتها على أساس من تفهم ماضيهما والاهتمام بهديه ،
إلا استقامت لها الأمور ، وكتب لها النجاح والتوفيق ، وما من أمة ارتجلت
أسباب النهوض دون الرجوع إلى عبر الماضى ودروسه ، إلا التوت عليها

المقاصد، وراحت تتخبط في دياجير الخيرة والإضطراب، فإما تخطفها الطير
أو هوت بها الريح في مكان سحيق .

إن التاريخ معلم الأمم، ومرشد الساسة والقادة، وعون المصلحين .

يشتمل هذا الكتاب على دراسات خمس، الأولى في ضبط كلمة «لوبياء»
أهى بالواو أم بالياء، وقد انتهى المؤلف بعد تحرى النصوص القديمة
والحديثة إلى أن الأصح أن ترسم وتلفظ بالواو .

والدراسة الثانية فيها عرض واف لسيرة السيد محمد بن علي السنوسي الكبير
مؤسس الطريقة السنوسية وناشرها في ربوع المغرب والحجاز وخاصة في لوبيا
ومن هذا العرض نتبين أن السيد السنوسي الكبير كان بحق شخصية من أعظم
الشخصيات الإسلامية المصلحة في القرن الماضي، ولقد دلت الحوادث من
بعده على أنه كان بعيد النظر، موفقاً في اختيار طريقة الإصلاح، وأنه
تنكب الطريق التي ركبها غيره من دعاة الإصلاح، فضى قدماً حيث تعثروا،
وطار حيث وقعوا، وكان من الموفقين . وتتناول الدراسة الثالثة الأسس
الجغرافية والتاريخية للوحدة اللوبية . فيدلل المؤلف على أن لوبيا قطر واحد
متناسك الأجزاء، لا كما يذهب إليه ذوو الأغراض من البعثات الأجانب،
ولقد أجاد المؤلف النقد وأحكم الاستدلال .

وفي الدراسة الرابعة يستوفي المؤلف الكلام على استعداد لوبيا لمستقبل
بحري باهر، وذلك لامتداد سواحلها امتداداً شاسعاً، ولماضيها البحري العظيم
ولا سيما في عهد الأسرة القره مانلية . وهو يهيب بقومه إلى العمل على استغلال
هذا الاستعداد، فالبحر سبيل عظمة الأمم، وطريقها إلى القوة والإزدهار .

والدراسة الخامسة عبارة عن بحث شيق طريف تناول فيه المؤلف صلة
لوبيا بتجارة القوافل، وهنا ينتقل المؤلف من الكلام على البحر وعلاقة لوبيا

البحرية بالأمم الأخرى قديماً وحديثاً ، إلى الكلام على البر وعلاقة لوبياس من طريق تجارة القوافل ، بشعوب السودان وأواسط افريقية ، ويرينا كيف ازدهرت هذه العلاقة التجارية في الماضي وكيف يستطيع قومه احياها واعادتها سيرتها الأولى بالعمل المتصل والجهد الجهد .

هذه خلاصة بحوث هذا السفر القيم . ولقد بذل المؤلف جهداً عظيماً في إعداده ، فأطلع على ما وسعه الإطلاع عليه من المصادر العربية والأجنبية ، ولئن كانت المصادر العربية قاصرة في هذا المضمار ، فلقد وجد المؤلف العوض في المراجع الأجنبية وخاصة الإنجليزية ، فأطلع عليها وأخذ منها ما اقتنع بصحته وصوابه ، ونقد ما استحق النقد والتجريح .

...

...

...

بارك الله في هذه الجهود ، ونفع بها الدولة اللويفية الناشئة ، وسدد خطى القائمين بأمرها وأمدهم بروح منه ٧

عبد الحميد العبادي

رمل الاسكندرية في { ١٠ شوال سنة ١٣٧٢
٢١ يونيه سنة ١٩٥٣ }

كلمة الجمعية التاريخية

للمكتور محمد عبد الرهاوى شعبة

استاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بجامعة ابراهيم بالقاهرة

الاستاذ مصطفى بعيو يقدم اليوم دراسة تاريخية قيمة جديدة بأن ترفعه إلى مصاف المؤرخين الأصلاء وجديرة أيضاً بأن تكون باكورة لدراسات أخرى كثيرة قيمة . وحبه للدراسات التاريخية كفيل بتحقيق الآمال المعقودة على جهوده . وقد صحبني سنوات كثيرة ثم استمر اتصالنا بعد ذلك استمراراً يتيح لى أن أقول عن معرفة يقينية إن تاريخ بلاده محور دائم لنشاطه العلمى . بل انى لاجزم أن نشاطه السياسى - إن كان - ليس إلا مظهرأ من حبه لتاريخ لوبيا ومن اهتمامه بماضيها ومن اتصال هذا الماضى المجيد بالحاضر المرتقب ومن حنينه الدائم اثناء اقامته الطويلة بمصر إلى لوبيا . وهذا الكتاب ثمرة من ثمار الحب للوطن .

وبراعة المؤلف تتجلى فى اظهار الدعائم الاساسية التى قامت عليها النهضة اللوبية فى أول العهد السنوسى . وكتابه هذا يسجل فعلا الاهداف الاساسية التى حددها السنوسى الكبير بنظرته العبقريّة . والكتاب إلى ذلك يتبع ما بذله المصلح الكبير من جهود فى سبيل الوصول إلى الاهداف . فالكتاب دراسة تاريخية لمناهل الحيوية فى ماضى لوبيا القريب وهو فى نفس الوقت يحمل فى ثناياه توجيهاً سليماً إلى أهداف جليمة مدعمة بالدراسة التاريخية . ومن فلاسفة التاريخ من يرون أن تاريخ أى أمة يجب أن يعالج تحت ضوء الحاضر وابتغاء فائده وأن الماضى يجب أن يوصل بالحاضر صلة قوية على نحو ما تتصل شخصية الأمم والأفراد والكائنات .

ومؤلفنا قد اتجه هذا الاتجاه وآمن بأن الأمور تصلح الآن بما صلتحت به
أوائها قديماً وبأن العهد الجديد يجب أن يحتذى مثل الاوائل القيمة وهو لهذا
يهيب به أن يواصل جهود السلف الصالح وأن يتجه بالأمة اللوئية الى نفس
الاهداف لكي تجنى أطيب الثمار من مواصلة السعي في اتجاه موحد لأطول
وقت ممكن .

وهذا الوصل بين الحاضر والماضى على اسس علمية سليمة هو الذى يجعل
للكتاب قيمة حقيقية من حيث هو دراسة للماضى ومن حيث هو برنامج
سليم لليوم والغد . وهو الذى يجعل الجمعية التاريخية السكندرية ترحب بهذا
الكتاب وتعز به . وقد لا يكون لهذه الكلمة الموجزة محل هنا تعقب كلمة
استاذنا ورئيس جماعتنا عبد الحميد العبادى وهو عميد المؤرخين الاسلاميين
اليوم ومرجعهم الموثوق به فى اجاثهم ، إلا أن صلتى بالمؤلف وتقديرى له
يشفعان لى فى تسجيل الشناء عليه فى هذا المقام بالذات ؟

محمد عبد الهادى شعيرة

مقدمة المؤلف

في صيف سنة ١٩٤٧ أخرجت كتابي الأول « المجمل في تاريخ لوبيا من أقدم العصور إلى العصر الحاضر » وهو كما يتبين من عنوانه لم يكن إلا عملاً متواضعاً قصدت منه رسم الخطوط العامة لتاريخ بلادنا لوبيا . ثم أخذت أوالى البحث بشكل مفصل لهذا التاريخ المجمل وقد أتاحت لى زيارة مدينة لندن في صيف سنة ١٩٥٠ فرصة التردد على مكانها العامة والخاصة والتزود ببعض المراجع الهامة في هذه الناحية مما ساعدنى على السير في مهمة البحث التاريخى التى استهدفتها والتى أرجو أن أتقدم بشمرتها الأولى فى القريب العاجل . وكان من الطبيعى أن يتفرع من هذا البحث الرئيسى موضوع أو موضوعات قائمة بذاتها لها طابعها الخاص فى تاريخ لوبيا وحياة أهلها بشكل يلفت نظر الباحث فحرصت على تسجيلها والعناية ببحثها واعطائها بعض الاهتمام الخاص وهامى تخرج فى هذا الكتاب بعد أن أخضعتها للبحث العلمى والطريقة المنهجية .

على أنى لم أقل الكلمة النهائية فى كل موضوع من هذه الموضوعات ولم أنظر إليه إلا نظرة الطائر راسماً الخطوط العامة ولو أنى حاولت استيفاء كل موضوع حقه لأصبح كل موضوع كتاباً خاصاً بذاته . وقد اتبعت فى كتابى هذا الطريقة التى سرت عليها فى كتابى الأول « المجمل فى تاريخ لوبيا » جاعلاً الصدق رائدى والحقيقة بغيتى فى مناقشة الأحداث التاريخية فإن أصبت فى ذلك فالحمد لله على توفيقه والشكر لاستاذى الجليل الاستاذ عبد الحميد العبادى الذى تفضل بقراءة الكتاب قبل طبعه وتزويدى بالكثير من ارشاداته وملاحظاتة القيمة مع شرف تقديمه إلى القراء ولاستاذى الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة الذى راجعت معه مخطوطة الكتاب وقد أعطانى الكثير من وقته وارشاداته حتى وفقت فى اخراج هذا الكتاب بفضل حسن توجيهه وعنايته ورعايته للكتاب ومؤلفه . وإن كنت قد أخطأت فالحقيقة قصدت ولاشئ غير الحق أردت وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

الاسكندرية { شوال سنة ١٣٧٢
يوليو سنة ١٩٥٣

المؤلف

لوبيـا

لوييا وليست لييبا

خطأ كلمة «لييبا» — المصادر العربية القديمة تذكرها بالواو لا بالياء — أحمد زكي يأخذ بهذا الرأي — المجمع القوي في القاهرة يعتمد كلمة «لوييا» في معجمه الجغرافى — اختلاف كتابة هذه الكلمة باختلاف اللغات الأوربية وباختلاف الكتاب في اللغة الواحدة .

ما زال الكثير من الكتاب يستعملون كلمة «لييبا» بدلا من «لوييا» عندما يحىء ذكر اسم هذا القطر العربى وهم فى ذلك إما مدفوعون بحكم العادة وانتشار هذا الخطأ تشبهاً مع ما جرى به القول من أن الخطأ المشهور خير من الصواب المهجور وإما أنهم فى استعمالهم هذا يعتقدون صحة هذه الكلمة «لييبا» . وعلى كل فإن الأدلة العلمية المتعددة تدفعنا إلى تخطئة هذه الكلمة وتحتم علينا تصحيحها بكلمة «لوييا» وضرورة الأخذ بها ومحاولة التعود عليها وإلا لثبت الخطأ على خطئه وما سعيينا إلى الحقيقة ولا اهتدينا بالتالى إليها ولوقف المجهود العلمى الذى يبحث عن حقيقة الأشياء وصحتها ونشرها حتى يعم استعمالها ويتعود الجميع عليها فتضمن بذلك البقاء على أنها حقيقة ثابتة إلى أن يأتى من ينقضها على أسس حتمية . وقد سبق التعرض لهذه التسمية ووجوب استعمال الاسم الصحيح لهذا البلد العربى فى كتاب «المجمل فى تاريخ لوييا» (١) إلا أن ما أثير حول هذه التسمية من جدل وأخذ ورد وتأيد ومعارضة جعل من الضرورى تناول هذه الكلمة الصحيحة بشىء من العناية حتى يتبين للقراء صحتها بعد أن كانت الإشارة إليها عابرة فى هامش الكتاب السابق الذكر . ولا عبرة بأن أهل البلاد ينطقونها «لييبا» .

وبالرجوع إلى المصادر العربية القديمة التى ورد فيها ذكر هذه الكلمة نجد

(١) مصطفى عبد الله ميو : — المجمل فى تاريخ لوييا . ص ١ - ٢

تؤيد صحة كلمة «لوبياء» فهذا ابن عبد الحكم في كتابه «فتوح مصر وأخبارها» يذكرها لنا بالواو لا بالياء فيقول «وكان البربر بفلسطين وكان ملكهم جالوت فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجهين إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية ومراقبة...» (١)

وهذا ابن رسته في كتابه «الأعلاق النفيسة» يذكرها لنا كذلك بالواو لا بالياء فيقول «... ثم يصير في عمل لوبية وهي كورة تجرى بحرى كور الأسكندرية...» وهذا المقرئ في خطه وجلال الدين السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» يذكرانها بالواو كذلك.

وأما شيخ العربوة المرحوم أحمد زكى المعروف بتضلمه في اللغة وفقها والتاريخ الإسلامى وحوادثه وبما له من المؤلفات والنشاط العلمى الذى خلده اسمه بين البحوث والمدققين فقد كتب بخصوص هذه الكلمة في قاموسه (٢) الذى أخرجه ما يأتى «لوبياء اسم لصحراء تفصل ديار مصر وإيالة طرابلس الغرب وتسمى عند الإفرنج «Lybia» وصحة اسمها بالعربية لوبيا كما وردت في كتب الجغرافية العربية وفي طبقات الأطباء وغيره لا بالياء كما نقله المترجمون مراعاة للفظ الفرنسيين بها مع أن الصواب في تعريب حرف الياء اليونانية «γ» هو الواو كما هو في أصل اللغة اليونانية وبها سمي النبات المعروف باللوبيا.

هذا وقد تعرض المجمع اللغوى بالقاهرة لهذه الكلمة واعتمدها في معجمه الجغرافى على أنها «لوبيا» وقد ساهم في وضع هذا المعجم الأساتذة الأعلام الشيخ السكندرى والأب انسئاس الكرملى والدكتور المستشرق ليمان إلى

(١) ابن عبد الحكم : — فتوح مصر وأخبارها . ص ١٧٠ . (لیدن سنة ١٩٢٠ م) .

(٢) أحمد زكى : — قاموس الجغرافية القديمة بالعربى والفرنساوى . ص ٣٣ . (المطبعة

جانب من عاونهم من الخبراء المصريين المشهود لهم بالدقة العلمية وطول الباع في البحث السليم العميق . وقد استجاب لهذا التصحيح الكثير من المؤلفين الذين يراعون الدقة العلمية في كتاباتهم وكان في مقدمتهم العالم الأثري الأستاذ سليم حسن في موسوعته التاريخية «مصر القديمة» التي بدأ في اخراج أجزائها سنة ١٩٤٠ وغيره من مريدي العلم الصحيح والبحث عن حقائق الأشياء ولم يخرجوا عما ألفه عامة الكتّاب إلا بعد أن تأكد لهم صحة كلمة «لوبياء» .

والغريب أن هذه الكلمة بقدر ما صادفت من تعثر في اللغة العربية قد لاقت الكثير من التحريف والتبديل في اللغات الأوربية إذ اختلف رسمها باختلاف هذه اللغات ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل كان رسمها أحياناً يختلف باختلاف الكتّاب في اللغة الواحدة وإذا كان هناك ما يبرر قبول اختلاف كتابتها باختلاف اللغات الأوربية ونطق أهلها بها فإن اختلاف كتابتها في اللغة الواحدة أمر يدعو إلى العجب والتساؤل فبعض المؤلفين من البريطانيين يكتبونها «Lybia»^(١) والبعض الآخر يكتبها «Libya»^(٢) . وقد يختلف رسم هذه الكلمة في كتب متعددة تضمها مجموعة واحدة تتناول موضوعاً واحداً من أطرافه المتشعبة كما هي الحال في المجموعة العلمية^(٣) التي أخرجها بعض رجال

(١) من هذه المؤلفات :

- A:— R. L. Playfair: Travels in the footsteps of Bruce, London 1877.
B:— A. J. Cachia:— Lybia under the Second Ottoman Occupation, Tripoli 1046.

(٢) من هذه المؤلفات : —

- A:— David Randall:— Libyan Notes, London 1901.
B:— Oric Bates:— The Eastern Libyans, London 1914.
C:— O. H. Little:— Geology of Cyrenaica, "Part 1, Handbook on Cyrenaica, Cairo, 1944—1947.

الادارة البريطانية لبرقة بالاشتراك مع بعض الاخصائيين فيما بين ١٩٤٤-١٩٤٧ م.

وبالمثل اختلف المؤلفون الإيطاليون في كتابة هذه الكلمة فبعضهم كتبها «Libya» كما هي الحال في المجلة التي كانت تصدرها وزارة المستعمرات الإيطالية (١) أما دائرة المعارف الإيطالية فقد كتبتها «Libia» كما هي الحال في الجزء السادس والعشرين منها. وأما المؤلفون الفرنسيون فقد تعودوا كتابتها «Lybie» كما هي الحال في كتاب "La Colonisation Italienne en Lybie" لمؤلفه الأستاذ Depois Jean

هذه عجالة قصيرة توضح لنا ضرورة الأخذ بكلمة «لوبياء» وفي ذلك تصحيح لاسم هذا البلد العربي كما ترينا مدى ما تعرض له اسم هذا البلد من اختلاف باختلاف اللغات الأوروبية بل وباختلاف الأفراد أنفسهم.

* * *

كانت طريقته القيام بسنة	نبوية لآلآة الأمر ضاح
ليست لدروشة المريد وجذبة	بالدف أو بالرقص أو بصياح
كانت معها كسيرة جده	أحياء دين وانتشار صلاح
أعمال مجتهد بخالص نية	للخير منتصر بغير سلاح
لو كان عن شيء لغير الله في	أعماله ما كملت بنجاح
إذ لا يدوم سوى الذى هو نافع	للناس مرتفع عن الأرباح
ومن الكرامة للولى نجاحه	فى النصيح بالاقناع والإفصاح
والمرؤ لا يعجبك منه ما سعى	بل مانوى فى السعى من اصلاح
فإذا استوى عمل وحسن عقيدة	كان النجاح حليف كل طامح
إن العقيدة لا يصح يقينها	إلا بفعل ظاهر وضمير صراح
فإذا أحب الله باطن عبده	ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح	مال العباد إليه بالأرواح

من قصيدة «لشاعر الوطن» الأستاذ أحمد رفيق المهدوى.

السنوسى الكبير

الحركة الاستعمارية الأوروبية فى القرن التاسع عشر — أثرها فى العالم الاسلامى — النهضة الدينية الإصلاحية — حركة السنوسى الكبير — نسبه — مولده — نشأته — تفكيره فى حالة العالم الاسلامى — رحلته إلى الاراضى المقدسة ومروره بالقاهرة — معارضة علماء الازهر له — رجوعه إلى الجزائر وعودته إلى الحجاز — صحبته للسيد أحمد بن إدريس — تأسيس الطريقة السنوسية بالحجاز سنة ١٨٣٧ — السنوسى الكبير يضطر إلى ترك الحجاز — بحبته إلى لوبيا وإقامته فى بركة — الأسباب التى جعلته يتخذ بركة مقاماً له — تأسيس زاوية البيضاء سنة ١٨٤٣ — دعوة القبائل إلى الاسلام الصحيح — الطريقة السنوسية تلقى نجاحاً كبيراً فى لوبيا — دعوته والأسس التى قامت عليها — أهم الانتقادات التى وجهت إليه — انتقاله إلى واحه الجفوب — أسباب هذا الانتقال — أهمية واحه الجفوب — برنامجه الإصلاحى بعد الانتقال إلى الجفوب — بناء زاوية الجفوب — معهد العلمى — العمل على تموين واحه الجفوب بعد أن تكاثر أهلها بانتقاله إليها — تنشيط تجارة القوافل — الاتجاه بالإصلاح إلى بلاد السودان — دور الزاوية فى الحركة السنوسية — وصف الزاوية وكيفية بنائها — نشاط السنوسى الكبير فى بناء الزوايا — أهمية الزاوية السنوسية والخدمات التى أدتها للبلاد — نظام «الآخوان» وكيف نشأ وأثره فى الطريقة السنوسية — علاقة السنوسى الكبير بالخلافة العثمانية — تخوف الدول الأوروبية من حركة السنوسى الكبير — وفاته . صفاته . مؤلفاته

يعتبر القرن التاسع عشر الميلادى من القرون الهامة فى حياة البشرية التى قدر لها أن ترى الجليل من الحوادث والأحداث ويكفى لتبيين أهميته أن ما يعانى به العالم الآن من ارتباك عام فى الحياة وقلق متزايد فى النفوس وتوتر مستحكم فى العلاقات الدولية يرجع فى أصوله العامة إلى تلك الحوادث والأحداث التى تمخض عنها القرن التاسع عشر وهى وإن تعددت وتباينت وتتابعت فى أهميتها بالنسبة لمن ساهم فيها من بعيد أو قريب فإن هناك بعض

الحوادث التي أجمع الكل على اعتبارها في المكانة الأولى من الأهمية بالنسبة للحياة البشرية والنظر إليها على أنها عامل هام في تطورها سواء أكان هذا التطور في صالح بعض الشعوب أم في غير صالح البعض الآخر . ومن هذه الحوادث البارزة بالنسبة لشعوب أوروبا انتشار الروح القومية بينها على أثر قيام الثورة الفرنسية وما ترتب عليها من ظهور دول جديدة للوجود ما كان يعرف لها اسم أو حدود . ومن هذه الحوادث أيضاً ازدياد النشاط الاستعماري الأوربي المعروف بحركة « الامبرياليزم Imperialism » ، وما ترتب عليها من تنافس بين الدول الأوبية واصطدام مصالحها بعضها مع بعض من أجل كسب مناطق النفوذ في العالم وخاصة في بلاد الإسلام منتهزة ما حل بتركيا (الرجل المريض The Sick Man) من ضعف عام وتحلل في كيائها جعل الدول الأوربية تأمن جانبها . ومنها كذلك اهتمام الفكر الأوربي إلى الاستفادة من البخار كقوة محرّكة واكتشاف الكهرباء وما ترتب على هاتين القوتين الطبيعيّتين من اختراع في الآلات وانقلاب في عالم الصناعة والتصنيع ، كان له أكبر الأثر في تقدم الأوربيين وترجيح كفتهم على أعدائهم المسلمين المسلمين عندما استهدف الأخيرون لخطر التوسع الأوربي وحاولوا صدّه بما توارثوه عن آبائهم من طرق حربية لم تعد مجدية أمام ما جد في فنون الحرب بما أتاح الفرصة للأوربيين للقيام بأعمال عنيفة تتنافى والشعور الإنساني العام وقد أخذتهم نشوة الانتصار ورأوا فيها فرصة لشفاء ما في صدورهم من حقد دفن توارثوه عن أجدادهم يوم أن زحف العرب من شبه جزيرتهم يكتسحون معالم الامبراطورية البيزنطية ويغزون أوروبا نفسها وينزعون السيادة من أهلها ويوم أن فشل الأوربيون في تحقيق مآربهم عندما جمعوا شملهم وقاموا بما عرف في التاريخ بالحروب الصليبية ولكن وقوف صلاح الدين لهم بالمرصاد وخلفائه من بعده قضى على جهودهم المشتركة .

كان لابد أن يكون لهذه الحوادث الإيجابية التي شملت شعوب أوروبا رد فعل في العالم الإسلامي بعد أن طالّت رقده فبدأت مصر تتحرك وتستيقظ على أثر تفاعل بذور الحرية التي خلفتها وراءها الحملة الفرنسية بعد جلائها عن مصر فكانت نهضتها في عهد محمد علي وخلاصها من بقايا العهد العثماني المملوكي الاقطاعي ومحاولتها قيادة الشرق العربي في هذه الوثبة التي قامت بها إلا أنها سرعان ما اصطدمت بالنفوذ الأوربي وتدخله إذ رأت فيها دول أوروبا الاستعمارية خطراً يهدد مشروعاتها التوسعية فسعت إلى الحد من وثبة مصر والقضاء على نهضتها وكان لها ما أرادت بفضل ما لها من قوة وتفنن في الحيل والدسائس في الميدان الدولي .

وإذا كانت هذه المحاولة التي قامت بها مصر في عهد محمد علي قد فشلت فإن اليأس لم يتطرق نهائياً إلى نفوس العالم الإسلامي وقد اشتدت عليه وطأة الحركة الاستعمارية الأوربية وبدأ يرى بلاد الجزائر رغم نضالها المستميت تقع فريسة للاستعمار الفرنسي الذي أخذ يهدد بقية شعوب الشمال الأفريقي . ولم يجد مفكرو العالم الإسلامي وسيلة تنقذهم من هذا الخطر الداهم إلا الرجوع إلى دينهم يلتمسون منه العون والمساعدة وسرعان ما وجدوا فيه ضالتهم المشودة وأيقنوا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن ما أصابهم من محن هو نتيجة تفریطهم فيما بين أيديهم من دستور سماوى محكم وأن الله الذي تعهد للمؤمنين منهم بالنصر في كتابه الكريم حيث قال «ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» وكما قال في موضع آخر «إن تنصروا الله ينصركم، إنما تركهم لمصيرهم لأنهم حادوا عن السنن الأولى فقام بعض المفكرين من أصحاب العقول النيرة الذين أثارهم ما آل إليه حال العالم الإسلامي وبدأوا يدعون إلى ضرورة تخليص الدين الإسلامي مما علق به من شوائب والعودة بالمسلمين إلى كتاب الله وسنة

نبيه الكريم إذ فيهما اعزاز للمسلمين وضمان نصرهم كما كان الحال في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده ولنا في حركة الإخوان المسلمين في الأعوام الأخيرة ما يقرب إلينا فهم تلك النشوة الدينية التي عمت العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر. وكان من أهم هذه الحركات الدينية الإصلاحية التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر الدعوة الوهابية في نجد والحركة السنوسية في ليبيا والدعوة المهديّة في السودان ونشاط بكتية الطرق الأخرى في الشمال الإفريقي وقيام حركة الجامعة الإسلامية. وكل هذه الحركات الدينية وإن اختلفت في الوسائل كانت ترمي إلى هدف واحد هو صد الخطر الأوربي عن العالم الإسلامي والعودة به إلى أيام السؤدد باستنهاض شعوبه ودعوتهم إلى التمسك بما في قرآنهم من أحكام وسنة نبيهم من تشريع. وكانت أهم هذه الحركات جميعها الحركة الوهابية لصاحبها محمد بن عبد الوهاب والحركة السنوسية لمؤسسها السنوسي الكبير وحركة الجامعة الإسلامية التي وضع بذورها حكيم الشرق جمال الدين الأفغاني وقد تمهدها السلطان عبد الحميد الثاني إذ وجد فيها خير عون له ضد أعدائه من الأوربيين.

ظهرت الحركة الوهابية في نجد واتخذت من شبه جزيرة بلاد العرب ميداناً لنشاطها إلا أن اصطدامها بالعثمانيين واقتراحها بيع بعض أعمال العنف جعل الكثير من العالم الإسلامي لا يعطف عليها وينظر إليها نظرة الشك والارتياب. أما حركة السنوسي الكبير فقد ظهرت في صحراء ليبيا وإن وضع بذورها الأولى في الأراضي المقدسة بالحجاز وقد أتبع السنوسي الكبير الطرق السليمة في الوصول إلى أهدافه وتحاشى الكثير من مواقف الاصطدام ابقاء على قوته. إلى اليوم المعلوم ولم تحاول طريقته الاصطدام بنيرها إلا عندما أجبرت على ذلك أمام زحف النفوذ الفرنسي الذي أخذ يهدد نشاط الدعوة السنوسية في بلاد السودان وعندما قامت إيطاليا فيما بعد بالاعتداء على ليبيا وغزو أراضيها. وإذا كانت حركة الجامعة الإسلامية قد عم انتشارها في جميع العالم الإسلامي

ووجدت لها أنصاراً في كل البلاد فإنها لم تصل إلى هذه النتيجة إلا بفضل نشاط الطوائف الدينية خصوصاً في الشمال الإفريقي وعلى رأس الجميع الطائفة السنوسية التي وقف مؤسسها ومن بعده بنوه يسندون هذه الحركة لما فيها من تقوية للخلافة الإسلامية الملاذ الأخير للعالم الإسلامي من الخطر الأوربي الزاحف . وقد وضع لذلك السنوسى الكبير سياسة دينية قائمة على أسس مدروسة فيها ما يكفل للشعوب الإسلامية حريتها وعزتها . فمن هو مؤسس هذه الطريقة الدينية العملية وما هى أهم أهدافها وكيف استطاع أن يسير بها في الطريق السوى لتحقيق أهدافه الإصلاحية وما أثرها في حياة البلاد ؟ هذا بعض ما سنحاول الكشف عنه في الصفحات التالية .

* * *

* * *

* * *

أما عن نسبه فهو السيد محمد بن على السنوسى الخطاى الحسنى الأدريسى . وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في تحديد عام ولادته إلا أنهم أجمعوا على أنها كانت فيما بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. (١) كما أجمعوا على أن ولادته كانت في قرية الواسطة بالقرب من بلدة مستغانم Mustaghanem ببلاد الجزائر من أسرة شريفة النسب ترجع في أصولها إلى البيت النبوى الشريف وبمراجعة سلسلة الأنساب النحاسية المتعلقة على قبره

(١) يرى السيد أحمد الشريف في كتابه « الأنوار القدسية في مقدمة الطريقة السنوسية »

أن مولد السنوسى الكبير كان يوم الاثنين ربيع أول سنة ١٢٠٢ هـ — ١٧٨٧ م .

أما دائرة المعارف البريطانية فتثبت اختلاف المؤرخين في تحديد سنة مولده بذكر

الاعوام التالية ١٧٩١ ، ١٧٩٢ ، ١٧٩٦ ، ١٨٠٣ . وأما دائرة المعارف

الإسلامية فتذكر ان ولادته كانت في سنة ١٧٩١ م . وفي دائرة معارف الديانة والعقائد

Encyclopaedia of Religion نجد ولادته كانت في سنة ١٨٠٦ م . وفي مؤلفات الاستاذ بريتشارد نجد

ولادته كانت في سنة ١٧٨٧ م .

بالجغوب نجد أسماء أجداده الكرام الذين يصلونه بالبית النبوي الشريف (١)
فهو السيد محمد بن علي بن السنوسي بن العربي بن حمو بن عبد القادر بن محمد بن
يوسف بن عبد الله بن خطاب بن علي بن يحيى بن راشد بن مرابط بن منداس
ابن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف
ابن حسن بن ادريس بن عبد الله بن احمد بن محمد بن عبد الله بن حمزة بن
سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن ادريس الأصغر
ابن ادريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط
ابن (علي بن أبي طالب) وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبدراسة هذه السلسلة النسبية يتبين لنا صحة شرف نسبه كما يتبين لنا اتماؤه
إلى الادارسة الذين سبق لهم تأسيس دولة على يد ادريس الأكبر في مدينة
وليل بمراكش في سنة ١٧٢ هـ والتي نقل مركزها ابنه ادريس الأصغر من
بعده إلى مدينة فاس العاصمة الجديدة لدولتهم . وقد ظلت دولة الادارسة تحكم
البلاد طيلة قرنين من الزمان إلى أن تغلب عليها وعلى ما تفرع منها من دويلات
أخرى الأمويون في الأندلس في القرن العاشر الميلادي والفاطميون قبل
مجيئهم إلى مصر وترتب على ذلك انتشار أفراد أسرة الادارسة في كافة بلاد
المغرب والأقطار المجاورة . ومن ادريس الأول مؤسس دولة الادارسة أخذ
السيد السنوسي الكبير لقبه «الادريسي» كما أخذ لقبه الخطابي من جده خطاب
ابن علي . أما لقبه السنوسي فقد استمده من جده السنوسي بن العربي الذي
يقال أنه قد أخذ بدوره هذا اللقب من قبيلة بني سنوس إحدى قبائل تلمسان
بالجزائر وقد نزل بجوارها . وهذه القبيلة بدورها قد اكتسبت هذا الاسم على
ما يقال بنزولها إلى جوار جبل يسمى «اسنوس» بالجزائر . على أن عائلة

E. E. Evans-Pritchard: Biographical Notes on Members of the Sanusi (١)
Family, P. 1.

السنوسى الكبير كانت فى بلاد الجزائر وما زالت تعرف بعائلة الأطرش وهو لقب عرف به السيد العربى الأطرش الجدد الأكبر للسنوسى الكبير . أما اسم والدته فلم يصل إلينا فيما كتبه لنا المصادر التاريخية .

وإلى جانب ما عرف به السنوسى الكبير من شرف النسب عرف كذلك بشهرة عائلته العلمية والتفرغ إلى كل ما يمت إلى العلم بصلة . فالتاريخ يحدّثنا بأن جميع أفراد عائلته قد انتسبوا إلى العلم سواء فى ذلك والده أو أعمامه بل إن الكثير من سيدات بيته قد عرفن بهذه الناحية العلمية كذلك . وإلى عمته السيدة فاطمة يرجع الفضل الأول فى تنشئة السنوسى الكبير نشأة دينية وتعليمه المبادئ الأولى من العلوم المختلفة لما كان لها من دراية فى هذه الناحية أهلها للانقطاع للدرس والتدريس والوعظ والإرشاد وكانت حلقاتها العلمية يتردد عليها الكثير من الرجال . وبالمثل كانت جدته لأبيه على حظ كبير من العلم وإن لم تجلس للتدريس . أما أبوه السيد على فقد توفى شاباً فى الخامسة والعشرين من عمره وقد عرف فى شبابه بفروسيته ومزاولة أنواعها المختلفة إلى جانب ما عرف عنه من ميل للعلم ودراسته . وعلى أثر وفاته قامت عمته بالإشراف عليه وتعهده برعايتها فأحسنّت القيام بالمهمة وعرفت كيف تهىء له أسباب النجاح .

هذه عجالة سريعة عن النشأة العائلية للسيد السنوسى الكبير وهى مع اختصارها الشديد ترسم لنا صورة واضحة عن بيئته العائلية التى بدون شك قد تركت لها أثراً واضحاً فى نفسه كطفل ومن ثم كشاب يتلقى العلم ويعد نفسه لمجاهدة حياة أخذ يرسم معالمها ويحدد أهدافها وخطواتها الضرورية . أما عن حالة بلاده الجزائر بصفة عامة فقد كانت تعاني ارتباكاً عاماً بسبب سوء حكم (الدايات) لها وضعف سلطتهم بما أطمع فيها الاجنبى وعرضها للغزو الفرنسى فيما بعد . وكان من الطبيعى أن يكون لهذه الحالة أثرها السئ فى نفسه وأن تعثره الازمات النفسية من وقت لآخر بسبب ما يراه من حالة سيئة أخذت

نعم البلاد وبسبب ما في هذه الحالة مما يتعارض وما شب عليه وتلقنه من مبادئ على يد أفراد بيئته وأقاربه . كل ذلك ترك أثراً كبيراً في تطور حياته فيما بعد . والسنوسي الكبير وإن كان جزائرياً في نشأته إلا أنه ينتسب إلى البيت النبوي الشريف فهو حيث يحل ينزل بوطنه فقد أوتي أهل البيت القدرة على اعتبار العالم الاسلامي كله وطناً لهم وطالما لجأوا إلى أطرافه أو رجعوا إلى مركزه بحسب ما يتعرضون له من الاضطهاد .

بعد أن تلقى السيد السنوسي الكبير مبادئ العلوم في أسرته وعلى يد عمته السيدة الزهراء خاصة التحق بأحد معاهد بلدة مازون Mazun بالجزائر للاستزادة العلمية حتى إذا أتم علومه بهذا المعهد ذهب إلى مدينة فاس للالتحاق بجامعة القرويين بها حيث كانت تأتي وفود الطلبة للالتحاق به من كافة أنحاء بلاد المغرب لما يتمتع به من مكانة ولما كان لأساتذته من شهرة خاصة ويكفي القول أنه في مهمته العلمية كان لا يقل عن الأزهر الشريف بالقاهرة وجامع الزيتونة بتونس . وهناك أخذ السيد السنوسي الكبير يدرس التوحيد والفقه والتفسير وبقية المواد الأخرى التي كان يدرسها طلبة العلم في ذلك الوقت . وإذا كان السيد السنوسي الكبير أثناء دراسته العلمية بجامعة القرويين بفاس قد عرف التصوف بتلمذه على يد الشيخ أحمد التيجاني صاحب الطريقة التيجانية (١) فإنه بدون شك قد استعرض في ذهنه تاريخ أسرته القديم عندما كان الادارة يسودون ويحكمون وعندما خلدوا مجددهم التاريخي بأقامة دولتهم وتأسيس عاصمتها فاس ورأى نفسه يدرس في الجامع الكبير الذي أنشأه

(١) أسسها الشيخ أحمد التيجاني في بلاد الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر . واليها يرجع أكبر الفضل في نشر الدين الاسلامي في غربى افريقية . وهي متفرعة من الطريقة الخلواتية التي ظهرت للوجود في القرن الثالث عشر الميلادي . توفي الشيخ أحمد التيجاني في ١٧ شوال سنة ١٢٣٠ هـ .

أجداده كما درس معه ومن قبله آلاف غيره من الطلبة . ولا شك أنه قد حاول تفهم الأسباب التي أدت إلى انهيار دولتهم فيما بعد وقارن أيامها الأخيرة بما كان يراه من تدهور في بلاد المغرب بصفة عامة وبلاد الجزائر بصفة خاصة مما جعلها فريسة سهلة للعدوان الفرنسي فيما بعد إذ أنها كانت أولى البلاد الإسلامية في بلاد المغرب خضوعاً للاستعمار الأوربي بعد تجربة الفرنسيين الفاشلة في مصر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي . ولا شك أن هذه التأملات النفسية قد أوجدت عنده شيئاً من الإنقباض وهو يقارن بين حال المسلمين في ماضيهم الذهبي وحاضرهم الذي تعصف به الأقدار . ولا شك أيضاً أن تلك التأملات النفسية والمقارنات التاريخية قد شغلت جزءاً كبيراً من تفكيره إن لم يكن كله ودعته إلى ضرورة الاهتمام إلى الأسباب التي أدت إلى هذا التدهور الذي حل بالمسلمين . وسرعان ما نجح في تشخيص حالة المسلمين العامة وتحديد أسباب تدهورهم مما ساعده على وضع الخطوات الأولية للعلاج الشافي ولكنه قبل أن يقوم بتحقيقها عملياً رأى من الضروري القيام بزيارة الأراضي المقدسة حيث مهبط الوحي وحيث عرف الإسلام قوته الأولى حتى يستمد من ذلك قوة له وحتى يعد نفسه لمجابهة ما انتواه من أعمال إصلاحية شاملة رأى أنها ستلزمه بالكثير من الصبر مع الاستعانة بتماعيم الدين الإسلامي الحنيف . ولا عجب في أن يقوم السيد السنوسي الكبير بهذه الرحلة فإن أولئك الذين سبقوه في الدعوة إلى العقيدة الإسلامية الصحيحة وتخليصها مما علق بها من خرافات وبدع قد سبقوه أيضاً في القيام بمثل هذه الزيارة . فللأراضي المقدسة بالحجاز أثر روحي قوى في النفس لا يعرفه إلا أولئك الذين قدر لهم مثل هذه الزيارة وخاصة المتصدين منهم للحركات الإصلاحية ومن أجل هذا شرع الإسلام فريضة الحج على القادرين عليها من المسلمين .

ترك السنوسى الكبير مدينة فاس فى الثلاثينيات الأولى من عمره قاصداً
الحجاز ماراً بجنوبى الجزائر إلى مدينة قابس بتونس على ساحل البحر الأبيض
المتوسط ومنها إلى مدينة طرابلس الغرب فبلدة مسراته فمدينة بنغازى سالكا فى
رحلته هذه طريق الحج المعروف وهو يهد إلى فكرته الإصلاحية الجديدة
بدعوة الناس إلى العمل على تفهم عقيدتهم الدينية الإسلامية الصحيحة والتمسك
بها حتى يكون لهم فى ذلك خير منقذ لهم ولتراثهم التاريخى المجيد . ولقد كان
التوفيق حليفه منذ بداية رحلته هذه إذ استطاع أن يستميل إليه بعض
الأشخاص فكانوا له خير رفقاء فى رحلته هذه ثم خير رواد لدعوته الإصلاحية .
استمر السيد السنوسى الكبير فى رحلته هو ومن التحق به حتى وصل
إلى مدينة القاهرة وهناك أقام بعض الوقت وقد راودته فكرة الالتحاق
بالأزهر الشريف وإتمام ما بدأه من دراسة علمية ولكنه اضطر أن يستجيب
لما فى نفسه من رغبة ملحة فى ضرورة القيام بفريضة الحج وزيارة قبر صاحب
الرسالة ولهذا لم تطل إقامته فى القاهرة أكثر من عدة أسابيع وكان له فيما
وجده من روح معادية من جانب علماء الأزهر ما أسرع به إلى إتمام رحلته
هذه . وجد السيد السنوسى الكبير من علماء الأزهر نفوراً قوياً وبدأ هو لم
شاباً يحاول الخروج عما ألفه العلماء من دعة وراحة وتسليم مطلق للحاكم المستبد
إلى جانب جمودهم وضيق أفقهم العلمى الأمر الذى لا يتناسب ومكانة الأزهر
الدينية وما تحتّمه عليه مكانته كأكبر جامعة إسلامية يقع عليها عبء إرشاد
المسلمين وتبصيرهم وقد استطاع محمد على والى مصر أن يسيطر على علماء الأزهر
بعد أن مهدوا لولايته على مصر ولم يكن والى مصر ليرحب «بالسنوسى» ولعل
موقف علماء الأزهر منه موقف موعز به . كل هذه الأسباب عجّلت بتركه
للقاهرة وسفره إلى الحجاز وهناك عاش ست سنوات وهو يدرس فقه الدين
الإسلامى على يد صفوة ممتازة من علماء مكة المكرمة والمدينة المنورة دارساً

لمشاكل المسلمين متعرفاً لأحوالهم كلها أقبل موسم الحج وكلما طالت اقامته بالأراضى المقدسة ازداد فهمه لداء المسلمين وزاد دقة في وصفه للدواء النافع وهو في أثناء كل هذا لم ينس وطنه الأول الجزائر فلما ازداد به الحنين اليه عاد إلى الجزائر حوالى سنة ١٨٢٩ وبقي هناك حتى سنة ١٨٣٣ (١) ثم عاد مرة أخرى في هذه السنة الأخيرة إلى بلاد الحجاز لإتمام ما بدأه من اعداد نفسه بالوسائل اللازمة لحركته الإصلاحية . وربما كان السيد السنوسى الكبير قد رأى من الضرورى تحاشي الاصطدام بالفرنسيين وقد غزوا بلاده وهم في عنفوان قوتهم الباطشة قبل أن يعد للأمر عدته حتى لا يعطيهم فرصة القضاء على دعوته الإصلاحية الناشئة التى كانت تهدف إلى توحيد كلمة الاسلام أمام خطر الأوربيين الزاحف . ولا شك أيضاً أن السلطات الفرنسية قد وصلتها أنباء دعوته هذه ورأت فيها ما يهدد كيانها إذا استفحل شأنها بازدياد أنصاره ومريديه فلبجأت إلى تضيق الخناق عليه . وهكذا وجد السيد السنوسى الكبير نفسه منذ اللحظات الأولى لدعوته الإصلاحية قد بدأ يصطدم بالأجنبي الغاصب القوى ففضل الابتعاد عن الأنظار واختار الأراضى المقدسة ملجأ له في هذه المرة كذلك . وأخذ يعد نفسه للقيام بهذه الرحلة البرية الشاقة . وهكذا كانت الحملة الفرنسية على الجزائر أقوى محرك لشعور هذا الشاب الطموح واندفاعه في حركة الدعوة لإصلاح حال المسلمين بعد أن وضع يده على سر تدهورهم الذى أطمع الأجنبي الغاصب فيهم .

وفى رحلة السيد السنوسى الكبير إلى الاراضى المقدسة اصطحب معه نفرًا من أهل المغرب كاخوان له لازموه طوال اقامته التى استغرقت هذه المرة ثمان سنوات واطب في أثناءها على الدرس والتحصيل على يد أساتذة مكة وفى

مقدمتهم السيد أحمد بن ادريس الفاسي الرئيس الرابع للطريقة القادرية المراكشية (١) التي تفرعت بدورها عن الطريقة الشاذلية (٢) وقد أصبح السيد أحمد بن أدريس فيما بعد المؤسس الأول للطريقة المعروفة بالطريقة الادريسية أو الطريقة القادرية الادريسية . وكان التجاوب العلبي والروحي قوياً بين السيد السنوسي الكبير وأستاذه حتى إن السيد أحمد بن ادريس عندما وجد نفسه مجبراً على ترك بلاد الحجاز والالتجاء إلى بلاد اليمن أمام ما أثاره في وجهه علماء مكة من معارضة قوية له ورميه بتهمة مخالفة المذهب المالكي وما جاءت به سنة الرسول اختار السيد السنوسي الكبير لصحبته في هذه الرحلة لما توسمه فيه من تجاوب روحي فضلاً عن فهم كل منهما للآخر وقد رافقهما كذلك السيد الميرغني أحد التلاميذ المعجبين بالسيد أحمد بن ادريس . وهناك في اليمن عاش السيد السنوسي الكبير عامين مواصلاً الدرس والتحصيل على يد أستاذه واجداً في رفقة السيد الميرغني خير مشجع له على تحمل آلام الغربة والبعد عن الأهل والأوطان حتى إذا انتقل السيد أحمد بن ادريس إلى جوار ربه قام من بعده تلميذاه السيد السنوسي الكبير والسيد الميرغني بتنظيم أتباعه في

(١) تعتبر الطريقة القادرية من أوسع الطوائف الدينية الاسلامية انتشاراً . أسسها الولي الشهير عبد القادر الجيلاني في القرن الثاني عشر الميلادي (نقرن السادس الهجري) وقبره في بغداد يزار . وقد دخلت الطريقة القادرية إلى بلاد المغرب في القرن الخامس عشر على أيدي مهاجري واحدة توات Tuat في جنوبي الجزائر والمعروف أن الزعيم العراقي رشيد علي الكيلاني صاحب الثورة المعروفة في العراق من أحفاد مؤسس هذه الطريقة وهو يعيش الآن لاجئاً عند الملك عبدالعزيز بن السعود في عاصمته الرياض .

(٢) من أهم الطرق الدينية في الشمال الافريقي ومنها ن فرع الكثير من الطارق الدينية الأخرى . وكان مؤسسها ابو الحسن الشاذلي من رجال القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) .

طريقتين فرعيتين هما الطريقة الميرغنية التي أخذت تشق طريقها في السودان
المصرى الانجليزى فيما بعد والطريقة السنوسية التي تولى زعامتها الاولى السيد
السنوسى الكبير . وهناك فوق جبل أبى قبيس في مكة المكرمة أنشأ السنوسى
الكبير الزاوية الاولى لطريقته السنوسية الجديدة ويمكن اعتبار سنة ١٨٢٧
بداية ظهورها للوجود . وبفضل ما بذله من جهود موفقة في سبيل نشر طريقته
الجديدة صادف اقبالا من أهل الحجاز ومازلنا إلى يومنا هذا نجد تعاليم
هذه الطريقة منتشرة بين أفراد قبيلة حرب الضاربة أطناها فيما بين مكة والمدينة
بجذاء البحر وات ما زال يواظب أفرادها على الاعتراف بالتبعية لمبادئ
هذه الطريقة ويعبرون عن شعور ولائهم لها بدفع الزكاة إلى الزوايا السنوسية
المنتشرة هناك وما زالت زاوية أبى قبيس التي تطل من فوق جبل أبى قبيس
على الحرم المكى ، عامرة إلى يومنا هذا تحت اشراف شيخها .

...

...

...

غير أن هذا النجاح الذى صادفه السيد السنوسى الكبير فى التفاف القبائل
الحجازية البدوية حوله قد أثار عليه حسد الآخرين فبدأوا يناصرونه العداء
كما ناصبوا أستاذة السيد أحمد بن ادريس من قبله وبدأت السلطات العشمانية
كذلك تساورها الشكوك وتحسب لنشاطه الف حساب مندفعة فى ذلك بما سبق
لها أن عانت من جراء نشاط الزعيم المصلح محمد بن عبد الوهاب وحركته
الوهابية ولهذا رأت العمل على الحد من نشاطه وتقييد دعوته الإصلاحية
منها لائى خطر تتوقعه وقد ساعدها على ذلك ما قام به علماء مكة من معارضة
قوية له بحجة اتيانه بالشىء الجديد فى الفقه الاسلامى كما أن اشراف مكة ساهموا
بدورهم فى خلق مثل هذه المصاعب خوفاً على مكانتهم بين الشعب . وهكذا
تحالفت هذه القوى الثلاث بما لها من سلطة زمنية ودينية . عند ذلك

لم يحسد السنوسى الكبير بدأ من ترك الحجاز كما فعل أستاذه السيد أحمد بن ادريس من قبله وولى وجهه شطر بلاد المغرب فى سنة ١٨٤١ مصطحباً معه بعض أتباعه . وبعد أن أقام عدة شهور فى مدينة القاهرة لم يسلم فيها من مهاجمة علماء الأزهر له واصل رحلته غرباً إلى واحة سيوة حيث اضطر أن يطيل فيها إقامته بعض الوقت لما ألم به من مرض ومع أن هذه الفترة التى أقامها فى واحة سيوة كانت أشبه بفترة امتحان له إلا أنه استغلها فى تعليم أهلها وتلقيهم مبادئ دعوته الإصلاحية الجديدة . وهكذا كانت تلك الأسابيع المحدودة التى أمضاها فى واحة سيوة كافية لئرس بذور الدعوة السنوسية بين أهلها وترك فرصة تعهدا للسنوات المقبلة . ثم واصل سيره غرباً بالطريق الصحراوى حتى وصل مدينة طرابلس الغرب فى السنة التالية وهناك استراح بعض الوقت قبل أن يستعد لمتابعة رحلته نحو تونس ولكن الأخبار جاءت به وهو فى طريقه إلى بلدة قابس بالانتصارات الجديدة التى أحرزها الفرنسيون فى بلاده الجزائر وبسطهم السيادة عليها فرأى من الضرورى التوقف عن متابعة رحلته هذه والعودة مرة أخرى إلى مدينة طرابلس الغرب ولكنه لم يبق فيها هذه المرة بل واصل سيره إلى مدينة بنغازى حيث انتهى به المقام فى إقليم برقة .

لا ندرى عما إذا كان السيد السنوسى الكبير قد كان فى إقامته النهائية فى إقليم برقة مجبراً أو أنه اختار هذه الإقامة لما توفر فى هذه البلاد من أسباب وجد فيها خير معين له فى دعوته الإصلاحية الجديدة . الواقع أن هذه النقطة هامة بالنسبة لتاريخ الطريقة السنوسية من جهة ولتاريخ البلاد من جهة أخرى وعلينا أن نقف عندها محاولين تفسيرها وإن كانت الأدلة متوفرة لتأييد كل من القولين .

وجد السيد السنوسى الكبير الطريق إلى بلاده الجزائر مقفلاً بسبب تقدم

الفرنسيين فيها كما تبين له بعد أن وصلته أخبار هذا التقدم خطر متابعة السير إلى الجزائر إذ في ذلك مضامرة منه ربما كانت نتيجة القضاء على حركته الإصلاحية الناشئة التي لم تكن قد قويت بعد لتقف أمام مثل هذا التيار الأوربي القوي وهو في عنف سطوته والذي لن يترك أمامه أى مجال للنشاط. أما مدينة طرابلس فقد كانت كذلك في حالة من الفوضى والارتباك وقد عاد إليها سلطان العثمانيين من جديد بعد القضاء على سلطة الأسرة القره مانلية ونزع سيادة البلاد من أفرادها ولا شك أن الأتراك وقد عادوا حديثاً إلى طرابلس لن يتركوا له ولا مثاله فرصة القيام بأى نشاط ربما كان من ورائه السعى إلى تنظيم أى مقاومة شعبية لسيادتهم وهم الذين استعادوا هذه الولاية بعد أن فقدوا السلطة عليها طيلة حكم الأسرة القره مانلية. أما في الجهات المجاورة لمدينة طرابلس الغرب فلم تكن الحالة فيها بأحسن عما كانت عليه في المدينة نفسها بل كان في بعضها من العوامل الأخرى ما يزيد المصاعب أمام حركته التي كان يخشى عليها التعرض لأى ضغط قوى وهى ما زالت في الدور الأول من نموها وقد كفاه ما عاناه في مكة نفسها في سبيل المحافظة عليها .

أما بلدة ظليتين التي أقام بها بعد تركه لمدينة طرابلس الغرب وتعرف فيها بعائلة ابن بركة من قبيلة الفواتير المشهورة بالشرف والعلم والورع فقد حاول أن يتخذ منها مقاماً له وأن يقيم بها زاوية له إلا أنه اضطر أخيراً أن يرجع عن محاولته هذه وأن يواصل السير إلى الشرق . وإذا كان بعض كبار السن من أهالى ظليتين الذين ما زالوا على قيد الحياة يعلمون ذلك بسمع السنوسى الكبير لتصيحة حيا المريقى الفيتورى المعروف بصلاحه وتقواه والذي طلب منه أن يترك ظليتين ويذهب إلى واحة الجغبوب لبناء زاويته هناك ، وإذا كان مردود هذه الرواية يرون فيها تعليلاً لأبطال ما انتواه السيد السنوسى الكبير من اقامة في ظليتين واتخاذها مقراً لحركته إلا أننا نستطيع أن نقول أن السيد

السنوسى الكبير قد استطاع أن يفهم جيداً بلدة ظليتين وما يسودها من ظروف خاصة بحكم وجود قبر الولي الصالح عبد السلام الأسمر النيتورى بها وما كان له من أثر قوى فى نفوس أهلها مما قد يعرض دعوته إلى الاحتكاك بهم إذا شيد زاويته هناك واتخذ منها قاعدة للتبشير بطريقته الجديدة لهذا فضل الرحيل عنها والابتعاد عن أى نضال توفيراً لما كان سيدخله من جهود فى مكافحة تيارات قد تشغله عن صميم دعوته الإصلاحية التى كانت أعم وأشمل وقد تشغله عن توجيهها الوجهة الصحيحة السليمة .

بعد أن ترك السيد السنوسى الكبير بلدة ظليتين مصطحباً معه الشيخ عمران بن بركة اتجه شرقاً ماراً ببلدة مسراته . فلما مرَّ بها راوده التفكير فى أن يتخذها مقاماً له إلا أن ظروفها لم تكن بأحسن حالا من بلدة ظليتين إذ سبقته إليها الطريقة المدنية لمؤسسها محمد بن حمزة ظافر المدنى والتى بلغت فى ذلك الوقت أوج قوتها وقد اتخذت لها من بلدة مسراته قاعدة لها حيث يقوم قبر مؤسسها السابق الذكر . لقد كان السنوسى الكبير مسالماً فى تأسيس طريقته ودعوته الإصلاحية ولذا كان كثيراً ما يتجنب مواطن الاضطدام لا لضعف فى عقيدته الإصلاحية ولا لقصور عما نصب نفسه له من غاية ولكن توفيراً لجهوده وعدم تشتيتها وهى مازالت فى دور التكوين حتى يضمن سلامة الأسس القوية لدعوته الإصلاحية واستعداداً للمستقبل الذى سيتطلب منه الكثير من الجهود بعد أن يشتد ساعد حركته ويتهيأ لها اكتساح ما يعوق نجاحها . هذه كانت سياسة السنوسى الكبير فى تأسيس حركته الإصلاحية وهذا ما يمكن أن نعال به كثرة تنقلاته ونقل مركز دعوته من مكان إلى مكان آخر حتى إذا جاء ابنه من بعده ووجد من قوة حركته ما شجعه على تغيير هذه السياسة فعل ذلك وأحرز النصر فى الكثير من المواقف .

تابع السيد السنوسى الكبير سيره نحو الشرق وهكذا وجد نفسه مجبراً

على اتخاذ برقة مقاماً له فالطريق إلى المغرب وبلاد الجزائر بالذات مسدود أمامه باحتلال الفرنسيين لبلاده كما أن الحالة العامة في لوبيا الغربية ليس فيها ما يشجعه على الإقامة بها والاعتماد عليها كقاعدة لدعوته الإصلاحية الجديدة لما كان يسودها من ظروف سياسية واجتماعية . أما التفكير في الذهاب إلى القاهرة فلم يكن هناك ما يشجعه عليه بل كان هناك ما يدفعه إلى الاعتقاد في عبث مثل هذه المحاولة وقد سبق لنا أن ذكرنا أن علاقاته لم تكن طيبة مع محمد علي وإلى مصر في ذلك الوقت فضلاً عما كان يضره له بعض علماء الأزهر من عداوة اتخذت شكل المهاجمة والاثام الديني . أما العودة إلى بلاد الحجاز من جديد فلم يرتح باله إليها لخبرته السابقة بأحوالها ولهذا فضل الإقامة في إقليم برقة وكانت ظروف هذه البلاد وأحوالها مهيأة لقبول دعوته الإصلاحية وبالتالي لضمان سلامة جهوده وحمايتها من الرجات العنيفة التي قد تعرقل إنتاجها . وهكذا أحسن السنوسي الكبير اختيار التربة الصالحة لوضع بذور حركته المباركة فكان التوفيق حليفه وكان الانتشار الناجح لدعوته . وهكذا اختار هذا المصلح الكبير وطنه ومجال دعوته .

وإذا كان الموقع الجغرافي لشبه جزيرة برقة قد لعب دوراً هاماً في تاريخ هذه البلاد وحياة أهلها فإن أثره كان أوضح ما يكون في قيام الحركة السنوسية وانتشارها فيما بعد فهي ببروزها في البحر الأبيض المتوسط وعزلتها عن دلتا النيل بسبع مائة كيلو متر من الأراضي الشبه صحراوية قد كانت في أمن من طمع محمد علي وإلى مصر الذي أخذ يعمل على توسيع رقعة ولايته بالتوسع في السودان وبلاد الشام ولا شك أن محمد علي قد رنا بنظره إلى بلاد المغرب وحاول أن يرث الدولة القرهمانلية المتداعية في ذلك الوقت وما تفكيره في مساعدة الفرنسيين في الحملة على الجزائر إلا دليل على هذا الانجاء والتفكير في شأن لوبيا . وإذا قدر لمحمد علي النجاح في فتوحاته ببلاد الشام

وطال به العمر بعض الوقت لكان من المرجح أن يتجه بنشاطه الحربى فيما بعد نحو المغرب ولبسط نفوذه على برقة بل كل الأراضى اللوبية كما فعل ولاية مصر من ملوك البطالسة الذين سبقوه فى الحركة الاستقلالية بمصر وتأمين حدودها بالاستيلاء على ما يجاورها من البلاد الملاصقة . وهكذا كانت هذه العزلة الصحراوية من جهة الشرق وقيام الدعوة السنوسية فى برقة فى الوقت الذى بدأت فيه جهود محمد على التوسعية فى الانهيار خير واق لها من خطر محمد على وأطاعه . وبرقة من الغرب تفصلها أرض شبه صحراوية كذلك عن طرابلس العاصمة التى عاد إليها النفوذ العثمانى فى أقوى ما يكون بعد انهيار حكم الأسرة القره مانلية وعودة البلاد للحكم العثمانى . وكان لبرقة فى هذا البعد خير حام لها من الحكم العثمانى المباشر الذى كان أوضح ما يكون فى طرابلس العاصمة . وإذا كانت السيادة العثمانية قد عادت إلى لوبيا بأجمعها بعد زوال حكم الأسرة القره مانلية فإن ذلك لم يكن واضحاً تماماً فى جميع أنحاء برقة بل اقتصر على المدن الساحلية بصفة خاصة ولم تصل إلى ما كان عليه الحال فى المدن الساحلية الأخرى بلوبيا الغربية بحكم قربها من العاصمة حيث مركز السيادة العثمانية .

أما أهالى برقة فقد كانوا وما زالوا من العرب الخاضعين للنظام القبلى إذا استثنينا المدن الساحلية . وإذا كانت القبائل العربية التى غزت البلاد وأقامت فيها قد اختلطت بما سبقها من عناصر بربرية وغيرها فإنها على العموم قد احتفظت بحياة البساطة الغير المعقدة . وإذا كانت هذه القبائل العربية قد اعتنقت الدين الإسلامى منذ قرون متطاولة قبل مجىء السنوسى الكبير إليها وتأثيره فيها بدعوته الإصلاحية إلا أنها بحكم الزمن وتوالى السنين وتكاسل الأئمة المسلمين فى مهمتهم قد حادت عن الأصول الصحيحة للعقيدة الإسلامية كما حدث لغيرها من أهالى البلاد الأخرى مما جسر البلاء على العالم الإسلامى . الواقع أن السيد السنوسى الكبير قد وجد أهالى برقة مؤلفين من البدو

المسلمين ورآهم في عقيدتهم الدينية مقلدين لا عن فهم حقيقى ولهذا لم يكن السنوسى الكبير يدعو شعباً وثنياً ليفهمه حقيقة دينه ويبصره بما جاءت به تعاليم هذا الدين فهو كان فى حركته مصلحاً ومبرشداً ولم يكن داعياً لعقيدة جديدة لم تكن معروفة قبل مجيئه بل كانت مهمته العودة بالأهالى إلى أصول الدعوة الاسلاميه الصحيحه وإزالة ما علق بالعقائد من شوائب. وإذا كان السنوسى الكبير قد وجد «مسلى برقة سادرين فى غيابات الضلال معرضين لخطر الاضمحلال السريع من الوجهتين الدينيه والخلقيه فأراد أن ينتشلهم من هذه السقطه .» كما يقول الرحالة أحمد حسنين فى كتابه (١) فإن هذا الوصف بعض ما كان يشترك فيه أهالى برقة مع بقية البلاد الاسلاميه الأخرى إلا أن السنوسى الكبير رأى فى المجتمع البرقاوى خير فرصة لإجراء تجربته الاصلاحية لما امتاز به من قلة فى عدد السكان لا تتطلب جهوداً كبيرة وأشخاصاً كثيرين وزمناً كبيراً. كما كان هذا المجتمع أكثر تجانساً فى تكوينه الجنسى وخلواً من الأقليات التى تفت دائماً فى عضد الحركات الاصلاحية. وهكذا كانت هذه البلاد خير حقل لإجراء هذه التجربة الاصلاحية حتى تكون نتيجة العمل فيها مقياساً يستفاد منه فى نشر الدعوة الاصلاحية فى البلاد الأخرى.

لم يكن مجيء السنوسى الكبير إلى برقة من بلاد المغرب بالشىء الجديد بالنسبة لأهلها وكان الجديد هو دعوته ولم يتبين أهل برقة هذه الجدة إلا بعد دخولهم فى الدعوة فكثيراً ما رأى بدو برقة «العالم» وهو فى نظرهم كل شخص يستطيع القراءة والكتابة وكانوا يعهدون إليه بتربية أولادهم ويستعينون بما يقدمه لهم من إرشادات كما كان يقوم بتعليمهم القواعد الاسلاميه حسب فهمه لها

(١) أحمد حسنين : فى صحراء ليبيا ، ص ١ ، ص ٤٨

واستعدادهم لقبولها كما عرف بدو برقة كذلك «المحكم» "Muhakkam" الذي كانوا يعهدون إليه أمر الحكم فيما يقوم بينهما من خصومات ومنازعات كما كان يقوم بالتوثيق بينهم في المناسبات وهو في العادة رجل غريب عن البلاد وأهلها ولهذا كانوا يطمأنون إليه وإلى نزاهته وعدم محاباته لأى طرف من المتخاصمين كما أنهم عرفوا نوعاً آخر من الرجال هو الم رابط الذى اشتهر بينهم بالتدين والتعبد مما دفعهم إلى طلب العون منه فى الملمات . وكانت بلاد المغرب بأجزائها المختلفة تمد قبائل برقة بهذا النوع من العلماء والمحكمين والم رابطين حتى زمن مجيء السنوسى الكبير اليها وبدايته بالدعوة الاصلاحية الجديدة وقد وجد منهم اثنين قد اشتهرا بين القبائل . كان أحدهما أحمد بن عبد الله السقورى El-Sakkuri وكان يعيش فى الجهات الغربية من برقة أما الآخر فهو المرتضى فرকাশ وكان يعيش فى الطرف الشرقى من الجبل الأخضر . وكان كل منهما يقوم بتعليم أبناء القبائل المجاورة له وفض المنازعات بين الأهالى وقد أصبح كل منهما من أتباع السنوسى الكبير وقد تولى أحفاد كل من هذين الشيخين رئاسة بعض الزوايا السنوسية فيما بعد . والواقع أن قبائل برقة مدينة كثيراً لهؤلاء الرجال لأنه رغم ما كان عليه بعضهم من جهل إلا أنهم علموا القبائل عادة احترام العلم وغرسوا فى نفوس أفرادها محبة الدين والعمل على المحافظة على هذين الأساسين باستمرار . وهكذا كان فى نشاط مثل هؤلاء الرجال على ما فيه من نقص خير ممد لبذر بذور الدعوة السنوسية الاصلاحية بين قبائل برقة لأن أصولها قد تغلغلت فى نفوسهم بفضل جهود مثل هؤلاء الرجال أو على حد تعبير الأستاذ ايفنز بريتشرد قد انغرس فى عظامهم "It is planted in their bones" (١)

جاء السنوسى الكبير إلى إقليم برقة وقصد الجبل الأخضر بالذات وهناك

فيما يعرف الآن ببلدة «البيضاء» حيث قبر الصحابي المعروف رافع الأنصاري اتخذ السنوسي الكبير مقاماً له وبدأ في وضع أساس زاويته الأولى في لوبيا سنة ١٨٤٣ . ولم يكن اختياره لهذه البقعة اعتباطاً بل بناء على دراسة وتفكير عميق . فهي من حيث المناخ الطيب والماء العذب والخضرة الدائمة شيء يصعب علينا وصفه . أما من حيث الموقع فهي بتوسطها في الجبل الأخضر يمكنها أن تشرف عليه بسهولة وتجعل أصحابها على اتصال دائم ببقية مراكز الحياة الأخرى كما أن قربها من أطلال قورينا المعروفة الآن بشحات جعل أهلها يستطيعون استغلال أحجار هذه الأطلال في تشييد مبانيهم وسرعان ما ازدهر شأن هذه الزاوية وأصبحت بمثابة الأم لجميع الزوايا الأخرى التي شيدت فيما بعد .

...

...

...

وببناء هذه الزاوية يبدأ الدور الأول من دعوته في لوبيا التي كانت ثابتة الحلقة الأولى في سلسلة البلاد الإسلامية التي خصها بحركته الإصلاحية ذلك أن السيد السنوسي الكبير قد أزعجته الحالة العامة التي آل إليها العالم الإسلامي حتى أصبح أهله فريسة للتوسع الأوربي وغنيمة باردة لكل من غلب من الدول الأوربية وهم الذين كانوا سادة إلى عهد قريب وقد شاهد بنفسه كيف سقطت بلاده الجزائر طعمة في أيدي الفرنسيين وأصبحت ضحية للحركة الاستعمارية الأوربية التي أخذت تركز جهودها في القارة الأفريقية طيلة القرن التاسع عشر ولم يكن السنوسي الكبير بالشخص العادي الذي تمر به مثل هذه الحوادث دون أن تثير اهتمامه أو يلتفت إلى التفكير فيها ومحاولة إيجاد مخرج منها ولم يكن ذلك من الصعب عليه بحكم نسبه ونشأته وتربيته وثقافته وطموحه ورحلاته المتعددة التي ساهمت

كثيراً في توسيع مداركه وفهمه الدقيق لحال المسلمين عامة لذلك كان موفقاً في تشخيص الدواء الناجع لهذا الداء الاستعماري الأوربي الذي أخذ يهدد كيان العالم الاسلامي . رأى السيد السنوسي الكبير ألا نجاة للعالم الاسلامي مما يعانيه من أزمات شديدة إلا بعودة أهله للإسلام الصحيح الذي كفل لهم العزة يوم أن كانوا خير مسلمين محافظين على عقيدتهم متمسكين بتعاليمها . على هذا الأساس قام يدعو القبائل في برقة ويشر بيدها بحركته التي تنادى بضرورة العمل بالقرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة وعدم الاكتفاء بالأذكار والأوراد والاعتناد على مجرد التلاوة والذكر دون العمل الجدي ومراعاة أحكام الشريعة الاسلامية في الأعمال الخاصة والعامة كما كان العهد في أيام الرسول والخلفاء الراشدين من بعده . والخلاصة أن السنوسي الكبير كان يرى ضرورة قيام الحكم في البلاد الاسلامية على أسس اسلامية شرعية صحيحة في ظل أمام عادل يجمع بين الزعامة الدينية والزعامة السياسية جمعاً فعلياً .

...

...

...

ومع أن الطريقة السنوسية التي وضع أساسها السيد السنوسي الكبير سنة ١٨٣٧ تعتبر من أحدث الطرق الدينية بالنسبة لزميلاتها الأخرى التي يبلغ عددها ثمانية وثمانين طريقة دينية اسلامية (١) إلا أنها تعتبر من أهم وأنجح الطرق الدينية عامة فإنها عمت كل الشمال الإفريقي بصفة خاصة حتى أصبح نشاطها فيما بعد خطراً على السياسة الاوربية التوسعية ومع

أن قارة افريقية قد عرفت الكثير من هذه الطرق الدينية الصوفية التي كانت نتيجة لحركة الإحياء الديني العامة التي عرف بها القرن التاسع عشر إلا أن الطريقة السنوسية كانت أكثرها نجاحاً في ليبيا والبلاد المجاورة لها . وهذا ما دعا فرنسا ثم إيطاليا فيما بعد إلى التخوف من حركة السنوسى الكبير وإتباع طريقته وتصويرها بصورة المهدد للتقدم الأوربي في قارة افريقية المظلمة وهذا أيضاً ما دعا الأستاذ ايفنز بريتشرد أستاذ علم الاجتماع بجامعة اكسفورد بانجلترا إلى أن يدعو إلى عدم التقليل من شأن هذه الطريقة واتباعها في الآونة الحاضرة ثم يقول « كل الدول الأوربية بما فيها نحن أنفسنا في هذا الوقت قد قدرنا عدد أتباع السنوسية وقوتهم الحربية فوق قدرها» (١)

وربما كان من أسباب النجاح الكبير الذي أحرزته الطريقة السنوسية أن مؤسسها السيد محمد بن علي السنوسى قد انحرف قبل تأسيسه لهذه الحركة في عدة طرق دينية كالطريقة التيجانية أثناء إقامته بمراكش والطريقة الشاذلية والطريقة الناصرية والطريقة القادرية أثناء إقامته بالحجاز وتلمذ على يد الشيخ أحمد بن أدريس مؤسس الطريقة الادريسية التي اشتقت تعاليمها من الأسس الشاذلية فاستفاد من كل هذه الطرق واستطاع أن يقتبس منها أحسن ما فيها وليس معنى هذا أنه قام بمجرد الخلط بين بعض قواعد هذه الطرق ولكنه كان في التحاقه بها دارساً لها مختاراً منها ما يصلح أن يكون أساساً قوياً لطريقة عملية يستطيع بها أن يعود بالمسلمين إلى عهد الرسول والخلفاء الراشدين مع الاستفادة بما جدد في العالم من تقدم في الحضارة والمدنية في النواحي

(١) المصدر السابق ص ٢٨

“All the European Powers, including ourselves, at this time greatly overestimated the number of Sanusi adherents and their military strength,,

الزراعية والاقتصادية في ظل عدل عام وأمن شامل.

ومع أن كل هذه الطرق الدينية كانت سنية في أسسها إلا أن الطريقة السنوسية تعتبر من أكثرها تمسكاً بالسنة لاعتمادها على القرآن الكريم والسنة

المحمدية كمصدرين أساسيين للتشريع الاسلامي "Of all the Orders the

Sanusiya are perhaps the most Orthodox", (١)

وإذا كان الأستاذ ايفنز بريتشارد يرى أن السنوسى الكبير لم يعترف بغير هذين الأساسين كمصدر للشريعة الاسلامية فانه قد جانب الصواب في قوله هذا لأنه أنكر على السنوسى الكبير الاعتراف بالقياس والاجماع كمصدرين آخرين للتشريع الاسلامي بعد الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة المحمدية لأن في هذا تعارضاً وما كان عليه السنوسى الكبير من اقدام على فتح باب الاجتهاد وعدم الاعتراف بقفله كما كان يدعى علماء ذلك العصر الذين كانوا يزعمون أن باب الاجتهاد قد أقفل منذ سنة ٨٢٥م أى بعد الأئمة الأربعة المشهورين. وإذا عرفنا أن الاجتهاد لا يكون إلا إذا اعتمد صاحبه على القياس كمصدر أساسى من المصادر الأربعة للتشريع الاسلامي فإن الزعم بانكار السنوسى لهذا المصدر يتنافى وحالة الاجتهاد التي تزعمها السنوسى الكبير وأيدها الأستاذ ايفنز بريتشارد وإن كان هذا الأستاذ قد عاد وقال بأن السيد محمد بن على السنوسى كان من الناحية العملية يطبق ما يسمى بقياس المماثلة (٢)

١- E. Evans-Pritchard:— The Place of the Sanusiya Order in the History of Islam.

٢- المصدر السابق ص ١٣

"Some of the more strictly orthodox Sunni groups, including the Sanusls, acknowledge, at any rate in theory, only these two sources of doctrine and law, but the rest recognize two further sources, Ijma' (Agreement) and Qiyas (Analogy). Muhammad bin Ali al-Sanusi rejected both, though in practice, he made use of what amounts to Analogy."

كان السنوسى الكبير مالكيّاً في مذهبه أسوة بما هو عليه سواد الشمال الإفريقى إذ استثنينا أهالى الدلتا في المملكة المصرية حيث يتبع معظمهم المذهب الشافعى . وقد جر عليه قيامه بالاجتهاد عداوة بعض علماء الاسلام في القاهرة والحجاز في ذلك الوقت إذ رأوا في حركته ما يجبرهم على النشاط وإمعان النظر فيما عليه العالم الاسلامى من ضعف عام وكان نشاطه يتنافى وما عودوا عليه أنفسهم من دعة وراحة غير ناظرين لما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة مست كيان الشعوب الاسلامية فهم لا يهتمون لشيء ما دام الخطر بعيداً عن أشخاصهم وما دامت أبواب الرزق مضمونة لهم في المرتبات التى يتقاضونها والأوقاف الخيرية التى يتسلمون ريعها . وإذا كان هناك من العلماء من كان مؤمناً بحركة السنوسى الكبير وفائدتها للعالم الاسلامى إلا أن روح الحسد المكبوتة بين ضلوعهم قد أبت عليهم أن يعترفوا بالفضل لأهله واستكثروا أن يكون ذلك على يد غيرهم خصوصاً وأن لا يكون لهم فى التجديد شأن وزاد فى هذا الحسد ما كان عليه السنوسى الكبير من روح وثابة وطموح كبير واستخفاف بالمصاعب وكلها صفات ساعدته على الصمود أمام هذه المعارضة القوية من علماء القاهرة والحجاز وأمام الاتهام بالكفر والاحاد شأن كل المصلحين الذين استهدفوا لمثل هذه الاتهامات كلما ظهر منهم واحد . وبفضل صموده نجح فى التغلب عليها وتحقيق بغيته وأصبحت كل هذه الاتهامات أشبه بزوبعة فى فئجان من الشاي (١) "a storm in a tea cup" وكان من أبرز المعارضين له من علماء القاهرة الشيخ عليش المعروف الذى أصدر

فتوى في حق السنوسى الكبير ولكنه عاد فسحبها عندما تأكد من عدم صحة ما وصله من أخبار عنه. (١)

وكان أهم ما وجه إلى السنوسى الكبير في دعوته من اعتراض إلى جانب فتحه لباب الاجتهاد يتناول مسائل صغيرة تافهة رأوا فيها تعارضاً مع المذهب المالكي كالإطالة في السجود أثناء الصلاة بشكل يسبب مضايقة للغرباء عن الطريقة المساهمين في الصلاة معه . وقراءته للبسملة بصوت عالٍ بينما يقرأها المالكيون الآخرون بصوت خفي وقبض اليدين في الصلاة ورفعهما وكلاهما مسائل لا تتناول الأسس الجوهرية للمذهب المالكي فضلاً عن أن السنوسى الكبير استطاع أن يدعم رأيه فيها بما يثبت صحتها ومن أراد الاطلاع على ذلك فعليه الرجوع إلى ما تركه لنا من مؤلفات فقهية تناول فيها كل ذلك بالشرح الوافي والإبانة الواضحة . وإذا كان السنوسى الكبير قد سمح لنفسه بما تأتت له من امتداد فقهي أهله للأقدام على الاجتهاد أن يستفيد من الرخص الأخرى الوارد ذكرها في بقية المذاهب الثلاثة إلى جانب ما في المذهب المالكي من من رخص فليس معنى ذلك السماح لأى انسان من أتباعه بأتیان هذا العمل دون التقيد بأحكام مذهب خاص كما ادعى الأستاذ ايفنز بريتشرد (٢) وإلا لأصبح كل انسان مجتهداً وفتح باب الاجتهاد للجميع حتى العامة دون التقيد بشروط خاصة للاجتهاد الأمر الذى يتنافى والحقيقة المعروفة عن السنوسى الكبير وطريقته .

أما بخصوص حالة التصوف في هذه الطريقة التى أسسها السنوسى الكبير

١ — لوثرروب استوارد الأمريكى . — حاضر العالم الاسلامى . تعليقات الامير شكيب

ارسلان ص ١ ص ٧٧ .

٢ — E. E. Evans-Pritchard:— The place of the Sanusiya Order in the History of Islam, P. 28,

فإنها سنية كذلك في جميع أسسها ويكنى أن نعرف أن أتباع الحركة الوهابية المعروفين بشدة محاربتهم للطرق الإسلامية المختلفة لم يجدوا في طريقة السنوسى الكبير ما يتعارض وحركتهم الإصلاحية ولهذا لم يحدوا من نشاطها في الحجاز كبقية الطرق الأخرى وما زالت الزوايا السنوسية إلى يومنا هذا منتشرة في بلاد الحجاز . وقد منع السنوسى كل أشكال المبالغة في الحماسة الخاصة بالذكر كما هي العادة في معظم الطرق الأخرى وقصر الذكر في طريقته على اسم الجلالة وجعل لها ما يعرف « بالورد » ومنع الاستعانة بالدفوف والمواكب والحركات العنيفة التي ترمى إلى ازدياد حماسة الأشخاص في الذكر بهز الأجسام بشكل خاص وربما كان السنوسى الكبير في هذه الناحية سائراً على نهج الطريقة الشاذلية التي اشتقت منها معظم طرق الشمال الأفريق ومنها الميرغنية .

... ..

هذه خلاصة دعوته وأهم الأسس التي قامت عليها طريقته وقد أخذ يبشر بها بين قبائل برقة بعد أن اتخذ من الجبل الأخضر مقاماً ومن زاوية « البيضاء » مركزاً ولكن مقامه بها لم يطل كثيراً إذ سرعان ما قام برحلة إلى مكة في سنة ١٨٤٦ ربما كان الداعى إليها التعميم بحولة تفتقدية لما سبق له أن وضع أساسه هناك مع التزود من روحانية الأراضى المقدسة بما يساعده على ما هو قُسم به من إصلاح حتى إذا ما عاد إلى برقة في سنة ١٨٥٣ بدأ يشعر بحاجته إلى العزلة التامة والوحدة للتفرغ إلى التعبد المطلق والتأمل النهمى وقد افترب عمره من السبعين فتصد إلى حيث تقوم زاوية العزبات Azziyyat على الحافة الجنوبية لهضبة برقة حيث أقام له زاوية هناك ولكنه لم يتم فيها إلا مدة قصيرة انتقل بعدها إلى واحة الجفوبوب التي تبعد عن ساحل البحر الأبيض المتوسط مسافة مائة وستين كيلو متراً .

ويذهب البعض (١) في تفسير توغل السنوسى الكبير فى الصحراء والابتعاد عن الساحل مركز الحياة فى برقة بهذه المسافة الكبيرة إلى رغبة السنوسى الكبير فى الابتعاد عن السلطات العثمانية الحاكمة التى كانت أوضح ما يكون فى الجهات الساحلية والتى بدأت تهتم بحركته الإصلاحية وأخذت تعمل ألف حساب لتموها وانتشارها بين قبائل الجبل الأخضر كما أن البعض الآخر (٢) يفسر هذا الابتعاد بأن السنوسى الكبير شعر بقرب استيلاء الأجانب على البلاد فاختار التوغل جنوباً والاقامة فى الصحراء . قد يكون كل هذا صحيحاً إلى حد ما ولكننا لا نستطيع أن نسلم به على أنه التفسير الحقيقى لهذا الابتعاد فى داخل الصحراء ولكن الذى نستطيع أن نقوله أن السيد السنوسى الكبير رأى بعد عودته الأخيرة من الأراضى المقدسة أن يخطو خطواته العملية الثانية فى دعواته الإصلاحية وأن يكون أكثر إيجابيه بعد أن مهد لذلك بنشر بدور دعواته ولا يمكن أن يقوم بهذه الخطوة العملية وهو بعيد عن ميدانها الذى اختساره وانتوى أن يتجه إليه بجهوده . ولا شك أن القارىء سيتبين صحة هذا الرأى باستعراض البرنامج العملى للسيد السنوسى الكبير بعد انتقاله إلى واحة الجفوب كما سنبينه بعد .

كانت واحة الجفوب فى سنة ١٨٥٦ عندما اختارها السيد السنوسى الكبير قاعدة له واحة غير مأهولة بالسكان لمياهها الخير العذبة مع قلة فى كميتها التى لا تساعد على إرواء أكثر من مساحة صغيرة من البساتين ذات النخل القليل العدد فضلاً عن أن تربتها بصفة عامة مستعصية على الزراعة . وخلاصة القول أنها لم تكن مكاناً صالحاً لآى نوع من الحياة المستقرة الناعمة رغم ما تمتاز به من

(١) E.E. Evans-Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica, P. 14

(٢) لوثروب ستودارد الأمريكى . حاضر العالم الإسلامى ، ترجمة فويهض وتعليقات الأمير

شكيب أرسلان . ج ١ ،

جو صحى بعكس ما كانت عليه جارتها واحة سيوة المعروفة بانتشار المملاريا بين أهلها لكثرة عيونها ومياها العذبة الراكدة إلا أن السنوسى الكبير فى اختياره لواحة الجنبوب كقاعدة له لم يكن يعتبر راحته هى الهدف الأول من الحياة وإلا لما حمل نفسه مشاق كل هذه الانتقالات والخربة عن الأهل والوطن والتعرض للهجوم والنقد وترك أما كن قد تهيأت له فيها سبل الراحة التامة والحياة الناعمة . ولم يكن السنوسى الكبير فى اختياره لواحة الجنبوب ايضاً قد اختار اعتباطاً أو من باب الصدفة وإلا لتحول عنها بعد أن تبين له خلوها من وسائل الراحة والنعيم المطلوب ولكن اختياره لها كان بعد دراسة وتفهم لأهميتها وتقدير لقيمتها الاستراتيجية فهى على مسافة تجعل من الصعب فى ذلك الوقت على السلطة العثمانية الممثلة فى حكام المدن الساحلية أن تهتم بشأنه وتتبع نشاطه كما أنها تجعل من العسير على الحكومة المصرية فى ذلك الوقت أيضاً أن تلتفت إلى نشاطه أو تحاول الوصول إليه . أما بالنسبة للنفوذ الفرنسى الذى أخذ يتغلغل فى وسط افريقيا ويقترب من الاملاك العثمانية الساحلية فهى فى أمان منه لبعدها الكافى عن متناوله مع اليقظة التامة لأعماله ونشاطه . وهكذا رأى السنوسى الكبير فى واحة الجنبوب قوقعة صلبة لتحتويه وتكفل له السلامة من أى خطر يتوقعه أو احتمكك بالسلطات الحاكمة التى كانت ترتعش من حركات المصلحين ويذهب بها الخوف من خطرهما إلى حد يجعلها تحسب للامر الف حساب مما يفوت الفرصة أمام كل محاول للإصلاح أو ناشده . وواحة الجنبوب كذلك تقع عند ملتقى طريقين هامين للقوافل أحدهما للحجاج يسلكه بعض أهالى شمالى غربى افريقية عبر الأراضى المصرية الى الأراضى المقدسة فى الحجاز والآخر لتجارة القوافل يصل ساحل البحر الأبيض بمراكز التجارة فى الواحات المنتشرة فى الصحراء الكبرى ومنها الى بلاد السودان جنوباً وهكذا بفضل هذين الطريقين أصبحت هذه الواحة على اتصال بالعالم الخارجى بقدر

ماهى فى عزلة عن بقية جيرانها بما يفصلها عنهم من أراض صحراوية واسعة .
والجغوب كذلك أكثر الامكنة توسطاً لتكون مركزاً على مسافة متساوية
مع ما أنشأ من زوايا وما سيشئ فى لوبيا بأجمعها وصحراء مصر الغربية
والسودان لاسيما وأن برقة التى وقع عليها اختياره للقيام بتجربته الإصلاحية
شبه جزيرة أقرب ما تكون إلى الشكل الدائرى . وواحة الجغوب بحكم موقعها
كذلك تصلح أن تكون مركزاً للنشر الوفاق بين قبائل الصحراء المتعددة
والقضاء على ما بينها من خصومات ومنازعات واحلال السلام بينها كخطوة
ضرورية للقيام بحركته الدينية الإصلاحية وقد تم له ذلك بعد انتقاله إليها اذ
سرعان ما انقطعت تلك الاغارات المتواصلة التى كانت تشنها قبائل الشرق
والغرب على بعضها البعض بل استطاع أن يقضى على ما كان بين قبائل برقة
نفسها من مشاحنات وعداوة قديمة بحكم هذا الموقع الجغرافى المنعزل الذى مكنته
من أن يكون فى موقف المحايد بالنسبة للجميع وأن ينظر نظرة الفاهم لمشاكل
كل القبائل وما أشبه ذلك بموقف حكم المباريات الرياضية فبقدر حيدته وتبعه
لحركات اللاعبين يكون حكمه اقرب الى الواقع والصواب بعكس ما لو اندمج
فيهم وحصر اهتمامه فى زاوية خاصة من مبارياتهم .

وربما كان السنوسى الكبير فى نقل قاعدته الى الجغوب مقدمة لاتباعه
بنشاطه نحو الجنوب حيث رأى فى السودان وأهله ميداناً فسيحاً للتبشير بالدين
الاسلامى بين الجماعات الوثنية هناك وقد أخذت موجات البعثات التبشيرية
المسيحية تغزو أواسط افريقية فى القرن التاسع عشر على أثر نشاط الحركة
الكشفية فى افريقية ولا شك أن من أهم اغراض حركته الإصلاحية نشر
الدين الاسلامى بين الجماعات الوثنية وهدايتها إلى جانب تفهيم المسلمين عقيدتهم
الدينية الصحيحة وارشادهم الى مواطن القوة فيها حتى يعود للاسلام مجده
السابق وذلك هدف انسانى جليل فطن إليه السنوسى الكبير وليس هناك

أحسن من واحات الصحراء الكبرى وبلاد السودان وما ورائها من افريقية الاستوائية للقيام بتحقيق هذه الغاية خصوصا وأنه بدأ يطمئن بأن صدق دعوته قد أخذ في الظهور بوضوح في بلاد الشمال الافريقي بفضل أعوانه واتباعه الذين كانوا خير ممثلين له وناشرين لدعوته فانتشرت زوايا طريقته في لوبيا بآجمعها .

كل هذه العوامل يمكننا أن نعتمد عليها كمفسر لأهمية واحة الجنبوب بالنسبة للسنوسى الكبير وتفضيله الاقامة بها على ما فيها من عسر وضيق بالحياة المستقرة وهكذا أيضا تحققت له نبوءة محيا المريقى الفيتورى عندما نصحه بالذهاب الى الجنبوب لبناء زاوية له بدلا من اقامتها في ظليل عندما كان السنوسى الكبير في زيارته لعائلة ابن بركة الفيتورى بهذه البلدة

...

...

...

كانت دعوة السنوسى الكبير في أول أمرها حركة اصلاحية داخلية في الاسلام نفسه ثم أصبحت بانتقاله الى واحة الجنبوب الى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة وبذلك يمكننا أن نعتبر انتقال السنوسى الكبير الى هذه الواحة بداية مرحلة جديدة في دعوته الاصلاحية تقوم في اساسها على سياسة مرسومة ثابتة تضمن لها البقاء والاستمرار بعد أن عصف كيف يختار لها ما يلزمها من استعدادات وقد تمثلت جهوده الاصلاحية بعد انتقاله الى واحة الجنبوب في القيام بالأعمال الآتية :

أولا : شرع السيد السنوسى الكبير في بناء زاويته بالجنبوب على اساس ما تتطلب سياسة العهد الجديد الذى هو مقبل عليه ولهذا أتت زاوية الجنبوب في بنائها وهندستها متمشية مع المرحلة الجديدة محققة لاهداف الدعوة في طورها الحديث وقد استعان في بنائها بالحجر وكان بعض أقسامها مكونا من طابقين وهى تضم جامعا أقرب الى المربع فى شكله يتسع لخمسائة أو ستمائة شخص من

المصلين وبه امام للقيام بواجب الصلاة بالناس ومؤذن يدعوهم اليها عند حلول أوقاتها وبالزاوية مدرسة قرآنية «كتاب» لتحفيظ القرآن الكريم تحت اشراف فقيه مخصص للقيام بهذا العمل وبها ايضا معهد ديني يلتحق به من أنتم حفظ القرآن الكريم لدراسة علوم الشريعة الاسلامية وما تتطلبه من دراسة لغوية ومنطق وفلسفة وتاريخ وجغرافية وفلك ومبادئ العلوم الرياضية وكل ما يساعد الطالب على تفهم حقيقة دينه نظريا وعمليا وكان يقوم بالتدريس في هذا المعهد اساتذة مشهور لهم بالكفاءة العلمية والمقدرة الشخصية كان في مقدمتهم السيد أحمد عبد القادر الريفي . وقد استطاع هذا المعهد أن يمد البلاد بحاجتها من رجال للقيام بالمسائل الشرعية وارشاد الناس وتفهيمهم قواعد دينهم وقد تخرج فيه علماء افاض استطاعوا أن يبرهنوا على تفوق ملهوس في هذه الناحية . أما من ان منهم يريد الاستزادة والتبحر في العلوم الشرعية فكان في استطاعته أن يلتسب الى الجامع الأزهر الشريف دون أن يشعر بصعوبة تعوقه عن متابعة حلقات الدروس لما له من استفادة سابقة تحصل عليها في معهد الجغبوب .

ولما كان معظم الطلبة الملتحقين بالمعهد غرباء عن واحة الجغبوب فقد خصص لهم أماكن لسكنائهم عرف كل منها باسم «خلوة» كثيراً ما كان الطلبة يختلون فيها للتعبد أثناء الليل ومن هنا جاءت إليها التسمية . وكان لهذه «الخلوات» نظام أشبه بنظام الأروقة في الجامع الأزهر الشريف إذ كان جامع الجغبوب يضم عدداً من «الرباطات» كل منها يضم بدوره عدداً من «الخلوات» . وقد خصص المشرفون على جامع الجغبوب كل «رباط» لبلاد معينة من البلاد لإيواء أبنائها بما يدل على اتساع هدف هذه الحركة وعدم قصرها على لوبيها وحدها . فهذا رباط «السوادين» وكان يضم الطلبة الملتحقين بالمعهد وينتمون إلى بلاد السودان وأولئك الذين كانوا يقومون بالخدمة في زاوية الجغبوب من أبناء السودان وما زال هذا «الرباط» قائماً إلى يومنا هذا . وكان هناك «رباط

وحول كل هذه المباني والمرافق أقام سوراً حجرياً له عدة أبواب لضمان سلامة أهلها كما جرت عليه العادة وقتئذ .

وبفضل هذا النشاط العلى أصبحت واحة الجغبوب تضم مجتمعاً جامعياً

بما في هذه العبارة من معنى على دقيق . It was in fact almost purely a University Society (١) . وربما كان السنوسي الكبير في سياسته العلمية هذه سائراً على نهج أجداده الأدارسة عندما جاء ادريس الأول إلى بلاد المغرب وقام ابنه من بعده بتأسيس جامع القرويين بعاصمته فاس الذي أصبح منارة للعلم والفقه الاسلامي والذي حمل لواء هذه المهمة وما زال يحملها طيلة هذه القرون وقد سبق للسنوسي الكبير أن درس في جامع القرويين ولا شك أن الأفكار عادت به أثناء الدراسة إلى تلك الأيام التي حمل فيها أجداده مشعل العلم فأضاموا أركاناً كان مقدراً لها سيادة الجهل لولا هذه المؤسسة العلمية . وهكذا كان معهد الجغبوب في لوييا حلقة هامة أكملت ذلك الفراغ الملموس في سلسلة المعاهد الاسلامية المنتشرة بطول الساحل الافريقي الشمالي المشتملة في الجامع الازهر بالقاهرة وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس وقد احتفظ معهد الجغبوب بأهميته العلمية الممتازة إلى أن قضى عليه الايطاليون بالاستيلاء على لوييا . وإذا كان من حق مصر وتونس ومراكش أن تفخر بمعاهدها الدينية وما لها من فضل كبير في حماية أهلها من الزيغ الديني وتفهم الناس حقيقة دينهم مما حجب اليهم التفاني في سبيل رفع كلمة الاسلام والاستشهاد دونها فن حق لوييا أن تفخر بمعاهدها في الجغبوب وما تفرع عنه من زوايا منتشرة في أنحاء البلاد وقد أتت بنتيجة مدهشة ولم يمض على إنشائها زمن طويل حتى يحق لنا أن نقول دون تردد أن البلاد مدينة في موقفها أمام الغزو الأجنبي عندما استهدفت له في سنة ١٩١١ من طرف الجيوش الايطالية لأولئك الذين غرسوا

بذور حب الاستشهاد في سبيل الله بين أفراد الشعب وعلموا أفراداً كيف يبذلون أرواحهم في هذا السبيل . وهكذا قام معهد الجغبوب وما تفرع عنه من زوايا بواجبه كما قام من قبله بقية المعاهد الإسلامية الأخرى . وما أجددنا وقد تحققت بعض أهدافنا أن نلتفت إلى هذا التراث العلمي فنعمل على إحيائه من جديد حتى نضمن له البقاء والاستمرار فنكون بذلك ضامنين لروح الشعب الفتية واستمرارها .

ثانياً : كان على السنوسى الكبير وقد اختار واحة الجغبوب مقاماً له أن يتغلب على مشكلة تامين أهلها حيث إنها لا تنتج إلا القليل من التمر وهو شيء لا يكفي إطعام أهلها فضلاً عن توفير الجو اللازم للحياة العلمية المستقرة التي وضع أساسها وقد أصبح عدد سكانها بعد تشييد معهد الجغبوب حوالى الألف ولا شك أن هذا العدد كبير بالنسبة لما يجب أن تستوعبه واحة الجغبوب وبالنسبة لما كانت عليه قبل مجيء السنوسى الكبير إليها كوكر لبعض قطاع الطرق الذين كانت مهنتهم التربص للقوافل ونهب أمتعتها واتخاذ هذه الحرفة وسيلة لضمان رزقهم . أما الآن وقد استحوالت من مركز للصوصية إلى مكان يطلب الجميع عنده الأمن والسلام إلى جانب ما يجدونه من ضيافة وإرشاد وتعليم فكان على السنوسى الكبير أن يجد حلاً لمشكلة تمولينها وقد وفق في هذه المهمة أحسن توفيق مستعيناً في ذلك بما كان له من إبل اتخذ لها من أعشاب الأراضى الواقعة إلى الغرب من واحة الجغبوب مرعى وبما له من أبل في العزيات في استجلاب المؤن الضرورية من المراكز الساحلية إلى واحتته كما استعان في حلها أيضاً بما كان يرسله إليه أتباعه من رؤساء الزوايا الأخرى من سلع بعد أن يأخذوا لأنفسهم ولزواياهم ما يكفي إدارة هذه الزوايا . وكان معظم واردات هذه الزوايا من البضائع العينية والمؤن اللازمة لحياة الأفراد ولكن أنى لمثل هاتين الوسيلتين أن تقوموا بسد حاجة أفراد المجتمع الذى كونه على ما فيها من

اعتماد على الغير وتعويد أتباعه روح التواكل ، لهذا نراه يلجأ إلى طريقة عملية فيها كل الخير له ولا يتابعه فضلاً عن أنها تعودهم الاعتماد على النفس وغرس روح العمل بين صفوفهم ولهذا أخذ يقرن التعليم في معهده بالحياة العملية وما أقرب هذه الطريقة التربوية التي اختطها بما نعرفه الآن من طرق حديثة في التعليم كطريقة المشروع للأستاذ ديوى الأمريكى وغيره من أصحاب الطرق التربوية الأخرى . كان السنوسى الكبير يخصص يوم الخميس من كل أسبوع دراسى للمنهج العملى من الدراسة فيقوم الطلبة تحت إشراف أساتذتهم وبرئاسته بأعمال يدوية يحققون بها معظم ما يحتاجون إليه من بناء ونجارة وحدادة ونساجة وإعداد ملابس وبذلك يتحول المعهد إلى أشبه بورشة صناعية ترى الكل فيها مشغول بعمل يدوى نافع يحقق المصلحة للجميع . كل ذلك إلى جانب اهتمامه بتوسيع رقعة الأرض المزروعة في واحة الجنبوب بالاكتثار من حفر الآبار والقيام بخرس الأشجار وزراعة بعض أنواع الخضر والفاكهة التي يحتاجون إليها في حياتهم اليومية . وكان من تشجيعه للزراعة أن يقول للطلبة إذا سألوه تعليمهم الكيمياء بأن « الكيمياء تحت سكة المحراث » وأحياناً يقول لهم « الكيمياء هي كد اليمين وعرق الجبين » وكان يشوق الطلبة والمريدين إلى تعلم الحرف والصناعات ويقول لهم جملاً تطيب خواطرهم وتزيد من رغبتهم في حرفهم حتى لا يزدروها أو يظنوا أن طبقتهم هي أدنى من طبقة العلماء فكان يقول لهم « يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية وليس غيركم بأفضل منكم » وأحياناً يدفع بنفسه بين أهل الحرف ويقول لهم وهو يشتغل معهم « يظن أهل الأوريقا والسيحاح أنهم يسبقوننا عند الله لا والله ما يسبقوننا » . يريد بأهل الأوريقا العلماء وأهل السيحاح العابدين والقانتين فكأنه يريد أن يقول للبحرثفين والصناع لا تظنوا أنكم دون العلماء والزهاد مقاماً بمجرد كونكم صناعاً وعملة وكونهم هم علماء وقراء . هذا ليزيدهم رغبة وشوقاً ويعلم الناس حرمة

الصناعة التي لأمدينة إلا بها (١) .

بهذا المنهج العملى ساهم السيد السنوسى الكبير فى حل مشكلة تامين واحة
الجغبوب وهذه السياسة العملية التى تقوم على مبدأ الاكتفاء الذاتى عمل السيد
السنوسى الكبير على تنشئة جيل جديد فاهم لحقيقة دينه وبهذه الروح التعليمية
العملية كان السنوسى الكبير فى طليعة رجال التربية العمليين بل سبق بعضهم
فيما نادوا به فى الأعوام الأخيرة من اتباع لطرق خاصة كطريقة المشروع
وغيرها . وهو فى ذلك مستلهم ما كان يفعله علماء المسلمين يوم أن كان العرب فى
أوج مجدهم فما أخرجنا إلى هذا النوع من التربية فى مدارسنا وما أخرجنا إلى
الكثير من أمثال هذا المربي المصلح الفاهم لماهية التعليم وأهدافه ١١١

ثالثاً : — كان أيضاً على السنوسى الكبير وقد انتقل إلى واحة الجغبوب أن
يستغل ما لهذه الواحة من موقع هام فى تجارة القوافل وأن تكون له سياسة
واضحة فى نشاطها تعود على أصحابها بالخير وعلى مؤسسته الناشئة بالفائدة المطلوبة .
وكان عليه أن يعمل على نشر الأمن والسلام فى ربوع الصحراء حيث تمتد
شرايين هذه التجارة حتى يزدهر حالها ويتحقق المطلوب منها وسرعان ما وصل
إلى غايته هذه لاعن طريق القوة وتوزيع رجال الأمن كما يفعل الحكام وأصحاب
السلطان لأنه يعلم أن ذلك فوق طاقته وشئ لا يمكن الاقدام عليه لاستحالاته
عملياً فضلاً عن تعارضه وما يجب أن يكون صدوره كسلوك تلاقئ من أفراد
الشعب لأن مصير القوة الكابطة الزوال ومصير السلوك الفردى الظهور على
حقيقته . نجح السنوسى الكبير فى تحقيق هذه الغاية رغم قلة السنوات التى
صرفها فى هذا المجهود بماله من سلطة روحية استطاع أن يثبتها بين رجال القبائل
المنتشرة فى الصحراء وفى مقدمتها قبيلة المجابرة فى واحة جالو وقبيلة « زوبة »
المنتشرة فى جخرة فيما بين واحة الجغبوب شرقاً وواحتى جالو وأوجلة غرباً .

(١) لوثرروب سنودارد الأمريكى : حاضر العالم الاسلامى ج ١ - تعليقات الامير شكيب ارسلان

وكان رجال هاتين القبيلتين يسيطرون على تجارة القوافل في الصحراء الكبرى
بما لهم من استعداد خاص وبفضل اكتساب هاتين القبيلتين أصبح السيد
السنوسى الكبير يتحكم فى معظم تجارة القوافل ويهيمن على مسالكها وأصبح
التجار يأمنون على تجارتهم من النهب والسلب فازدهر أمر التجارة وعم الرخاء
وكان سكان الواحات أول من استفاد من هذا الانقلاب الكبير الذى طرأ على
هذه التجارة وأصبحت الجنبوب حلقة هامة فى تجارة القوافل بعد أن كانت
ملجأ لقطاع الطرق وناهى القوافل .

وبفضل اعتراف رجال قبيلة زوية بالتبعية للطريقة السنوسية استطاع
السنوسى الكبير أن يمد نفوذه إلى الكفرة جنوباً التى تبعد مسافة ٧٠٠ كم عن
واحة الجنبوب ذلك أن قبيلة زوية كانت تملك معظم أشجار النخيل فيها بعد أن
استولت عليها سنة ١٨٤٠ (١) من أهلها قبائل التبو الذين كانوا يمثلون بقايا
العناصر البربرية التى لجأت إلى الكفرة كمنطقة للعزلة أمام الزحف الإسلامى
وانتشار العنصر العربى فى شمالى افريقية . وقد وعدت قبيلة زوية السنوسى الكبير
بالسيادة التامة له على هذه الاحراش من النخل وعيون الماء الموجودة بالكفرة
إذا قام ببناء زاوية سنوسية لهم هناك وقد رحب السنوسى الكبير بهذا العرض
واستجاب لرغبتهم هذه وأرسل إليهم أحد أعوانه للإشراف على تشييد زاوية
فى واحة الجوف Jauf عرفت فيما بعد بزاوية الاستاد (بقلب الذال دالا) وقد
اتخذها خليفته السيد محمد المهدى قاعدة له بعد أن انتقل إليها من واحة الجنبوب
وبامتداد نفوذ السنوسى الكبير إلى واحة الكفرة ازداد أمر اشرافه على تجارة
القوافل وتنظيمها باكتسابه حلقة أخرى هامة فى نشاط تجارة القوافل
الصحراوية كما أن سياسته فى اقامة الزوايا فى بقية الواحات الأخرى كانت خير

مشجع لها في الميدان لما كانت توفره لرجال القوافل من أمن وسلام وضيافة يجدونها عند وصولهم إليها . حقاً لقد خلق السنوسى الكبير عالماً جديداً في قلب الصحراء !

رابعا : وكان كذلك على السيد السنوسى الكبير بعد انتقاله إلى واحة الجنوب أن يتجه بنشاطه إلى الجنوب وقدهاله نشاط البعثات المسيحية التبشيرية في ربوع السودان خصوصا وأنه قد بدأ يطمئن إلى تخلخل دعوته الإصلاحية في البلاد الساحلية بالتشاور مراكز دعوته الممثلة في الزوايا بجميع بلاد الشمال الأفريقى . وقد نجح السنوسى الكبير في وضع أسس هذه السياسة التبشيرية وسار فيها بخطى واسعة حتى إذا ما أتى خليفته السيد محمد المهدي من بعده وجد الطريق ممهداً واستطاع أن يصل إلى نتائج طيبة . وما كان للسيد السنوسى الكبير أن ينال مثل هذا النجاح لو لا إيمانه الصادق بدعوته وتقانيه في نشر مبادئها الإسلامية ورسم الخطط السليمة المؤدية إلى هذه الأهداف وقد استعان في كل ذلك بوسائل متعددة كان في مقدمتها استغلال تجارة القوافل في هذه الغاية بإرشاد القائمين عليها إلى حقيقة دينهم وتفهمهم للقواعد الإسلامية الصحيحة خصوصا ما يتعلق منها بالتجارة والمعاملة حتى يكونوا خير رسل للدعوة الإسلامية في الجهات الجنوبية التي يتاجرون مع أهلها . وهكذا استطاع تجار القوافل أن يكتسبوا ثقة أهالى السودان ويحببوا اليهم الدين الإسلامى بما كانوا عليه من اخلاص في المعاملة وصدق في البيع والشراء حتى أن كثيرا منهم كان يقوم بمهمة التبشير بالدين الإسلامى بين جماعات الوثنيين من أهالى السودان وينجح في مهمته دون أن يكلف نفسه مشقة المناشئة والتفهم والتحليل كما كانت تفعل بعض البعثات المسيحية التبشيرية المؤيدة بقوة النفوذ والسلطان . بهذه الطريقة السليمة البسيطة نجح السيد السنوسى الكبير في الوصول بالدعوة الإسلامية الى أماكن بعيدة في بلاد السودان ما كان يستطيع أن يصل إليها الغير وما كان يستطيع أن

يصل اليها السنوسى الكبير لو لم يلجأ الى هذه الوسيلة الطبيعية .

وبفضل تجارة القوافل ايضا استطاع السنوسى الكبير أن يكون على اتصال بالأمير محمد الشريف الذى أصبح سلطان وادى سنة ١٨٣٨ وأن يجدد علاقته به اذ كان كل منهما زميلا للآخر أيام طلب العلم فى مكة المكرمة وقد نشأت بينهم صداقة متينة جعلت العلاقة بينهما دائمة فكانت خير معين للسنوسى الكبير بين رعاياه بوادى . وليس بالكثير على السلطان محمد الشريف أن يتخذ مثل هذا الموقف اذ كثيرا ما كانت الزمالة المدرسية خير معين على تهئية الأسباب وحل بعض المشاكل والتقريب بين وجهات النظر وكثيرا ما لجأ إليها بعض رجال السياسة للوصول الى الكثير من الحلول المقبولة .

ولم يكتف السيد السنوسى الكبير بهاتين الوسيطتين لنشر الدين الاسلامى جنوبا بل استطاع كذلك أن يجد فى تجارة القوافل وسيلة اخرى لتحقيق هذه الغاية اذ بدراسته لحركة التجارة مع بلاد الجنوب وجد أنها تضم بين سلعها المتبادلة ما يأتى به تجار القوافل من رقيق يبيعونه فى الاسواق الساحلية فقام بشراء قافلة تجارية كانت تمر بواحة الجغبوب فى طريقها الى الموانى الشمالية وكل بضاعتها من العبيد المجلوبين من بلاد السودان ثم قام بتعليم افرادها عقيدة الدين الاسلامى وبعد أن اطمان لاستيعابهم لهذه الدعوة الاسلامية واعتقدهم عمل على اعادتهم الى موطنهم الاصل فكانوا له خير دعاة لدعوته التبشيرية بين مواطنيهم لأنهم أقرب من سواهم إلى التفاهم مع بنى جنسهم وبفضل هذه البعثة التبشيرية العملية عرف الاسلام طريقة الى الكثير من الجماعات هناك . وهكذا عرف السنوسى الكبير كيف يستغل حكمة إباحة الرق فى الشريعة الاسلامية من أجل العمل على نشرها ورفع لوائها فى مجاهل افريقية وفى هذا العمل تبرير واضح لمشروعية الرق فى الاسلام .

هذه هى الاسس الهامة التى رسمها السيد السنوسى الكبير لدعوته بعد انتقاله

الى واحة الجنوب ولاشك أنها أسس محكمة الوضع مدروسة النتائج وقد برهنت التجارب والأيام على صحتها وسلامة أهدافها . كل ذلك في فترة قصيرة لا تعدو سنوات معدودات .

...

...

...

إن الكلام على السنوسى الكبير وحركته الإصلاحية لا يكون وافياً بالغرض المطلوب ما لم نستعرض الدور الذى لعبته « الزاوية » فى هذه الحركة والأثر الحميد الملموس الذى خلفته فى البلاد وأهلها . فهى اسم حقيقى أطلق عليها لما قامت به من أهمية خاصة فى هذه الحركة حتى أنه يمكننا أن نجعل كلمة « ركن » مرادفاً لها فى هذه الدعوة . ويبدو أن هذه الكلمة « الزاوية » لم تكن بغريبة عن هذه الدعوة لأهمية عملها وإن كان المعنى الأصلى لها هو ركن البناء ، ثم أصبحت هذه الكلمة « الزاوية » تطلق على « الخلوة » التى يختل فيها المتعبدون للتفرغ للعبادة الخاصة . وبهذا صارت ملجأ كل شخص يطلب العون من هؤلاء النساك المعتزلين بها . ومن ثم أيضاً أصبحت مصدراً للارشاد الدينى للجاعات . والواقع أن قيام دعوة السيد السنوسى الكبير ونجاحها وإن اعتمدت على شخصية السنوسى الكبير وإيمانه بحركته ومساعدة الإخوان له فإن قيام « الزاوية » كان الأساس الثالث فى نجاح هذه الحركة وضمن استمرارها من بعده . وإذا كانت هذه الزوايا قد اختلف بعضها عن بعض من حيث الكبر وتعدد الحجرات فإنها قد اتفقت جميعها فى النية وتعاونت فى سبيل الوصول بالحركة الإصلاحية إلى مرتبة الكمال عن طريق العلم .

وتضم كل زاوية فى العادة مسجداً للصلاة ومدرسة قرآنية لتحفيظ الصبية القرآن كما يلحق بها « مضيقة » خاصة لاستقبال الضيوف للقيام بواجب الضيافة طيلة ثلاثة أيام كما جرى به العرف عند العرب من أهل البلاد . وملحق بالزاوية

كذلك بيت شيخها وعائلته وقد يلحق بها غرف للأساتذة والطلاب والاخوان والمريدين والخدم وعائلاتهم اذ كان للزاوية مكانة تقتضى توسيعها على هذا النحو وموارد تساعد على القيام بجميع واجباتها . وبناء الزاوية أو مبانيها يقوم حول مساحة داخلية متسعة حيث يأمن رجال القوافل على بضائعهم ودوابهم وكثيرا ما يكون هناك برّ فى الساحة الداخلية هذه أو على مقربة من الزاوية لامتداد أهلها والنازلين بها بالمياه اللازمة . ولحصانة ومماناة الكثير من هذه الزوايا تحول بعضها إلى أشبه ما يكون بالقلاع عندما تعرضت البلاد للغزو الايطالى فيما بعد بعد أن أدخل الإخوان السنوسيون عليها بعض الاصلاحات والتزيمات البسيطة . وكثيرا أيضا ما يكون للزاوية حديقة أو حدائق صغيرة على مقربة منها تزود أصحابها بما يحتاجون إليه من أنواع الخضروات والفواكه المطلوبة فضلا عما فى العمل فيها من مساهمة فى تعويد الاساتذة والطلاب روح الاعتماد على النفس . وجرت العادة كذلك أن تكون مقبرة الموتى لأهل المنطقة على مسافة قريبة منها تبركا بها وكثيرا ما كانت بعض الزوايا تضم عدة مئات من الأشخاص ولكنها فى المتوسط كانت تضم ما بين خمسين ومائة شخص بما فى ذلك زوجات المتزوجين منهم وأطفالهم . وعلى العموم فإن أهمية الزاوية لم تكن تقدر بكثرة عدد من يشغلها ولكن بمرکز قبيلتها وعدد اتباعها وبدور الجهات القريبة . وجرت العادة بأن تكون الأراضى المحيطة بالزاوية منطقة حرام لايسمح لغير المشرفين على الزاوية باستغلالها . وكثيرا ما كان يزداد دخل الزاوية بكثرة التبرع لها بالأراضى والأشجار والحيوانات والعيون المائية والآبار وكثيرا ما كان يقوم النزاع حول ملكية أى عقار وينتهى النزاع حوله بالتسليم به الى الزاوية المجاورة حلا للاشكال فللزاوية شخصية معنوية قانونية تخولها حق ادارة اوقافها . كما كانت هناك طريقة اخرى تتحصل بها الزاوية على تنمية ايرادها وذلك بالحصول على الاذن من اصحاب بعض الاراضى بزراعتها

وبالممارسة المستمرة لهذه الزراعة تكتسب الزاوية هذا الحق لها . وكان رجال القبائل المجاورة للزاوية كثيراً ما ية-ومون بمساعدة شيخ الزاوية في زراعة الاراضى المحيطة بها وإن كان الاعتماد الاساسى لشيخ الزاوية فى هذه الناحية على رجال زاويته . وتعتبر هذه الاملاك الخاصة بالزاوية وقفاً عليها أو «حباس» لها كما يقول اللوبيون . وكثيراً ما تكون هذه «الاحباس» مقدمة من فرد أو أفراد أو من قبيلة أو قبائل . ويقوم بادارة هذه الاوقاف ويسأل عنها شيخ الزاوية ويقدم عنها تقريراً اجمالياً إلى السيد السنوسى الكبير كل نهاية عام هجرى ويرسل ما يزيد عن حاجته وما يتطلبه منه أمر المحافظة على شئون الزاوية إلى المركز الرئيسى للزوايا السنوسية حيث كان يقيم السيد السنوسى الكبير سواء فى الزاوية البيضاء فى أول الأمر أو فى واحة الجنوب بعد أن انتقل إليها وكان دخل هذه الزوايا يشمل الكثير من الاشياء المتنوعة مثل الشعير والجلود والصوف والحبوب والمسلى والعسل والحوم والاغنام وقد يكون من بين دخلها النقود أو البضائع المستوردة من الخارج كالارز والشاى والسكر والاقشة.

وخلاصة الامر أن الاهالى كانوا يقومون بخدمة هذه الزوايا عن طيب خاطر ويرون فى ذلك مساهمة منهم فى النهوض بالدعوة السنوسية واكتساب رضا صاحبها . وهكذا نشأ نظام التعاون التام بينهم وبين المشرفين على الزوايا فى سبيل خدمتها . وكان تعاوناً من النوع التلقائى الذى يحفظ للأمة حياتها وبقاءها وما يمكن أن نلخصه فى هذه العبارة «الجميع فى خدمة الزاوية والزاوية للجميع».

أما عن الكيفية التى كان يتم بها تأسيس هذه الزوايا فبمالبأ ما تكون بالطريقة التالية وهى أن ترى احدى القبائل أو نخذ منها أن جيرانها قد أنشأوا زاوية لهم فتبعث برسول إلى السنوسى الكبير يطلب منه تزويد عشيرته بشيخ ليعلم أطفالهم ويقوم بمسائلهم الدينية ويفض خصوماتهم وغير ذلك من الأمور التى يرون الشريعة الاسلامية المرجع الاساسى فيها . وكان السنوسى الكبير

يرحب بمثل هذه الطلبات بل ويشجع أصحابها بشكرهم على سعيهم اليه ويرسل معهم شيخاً يختاره من بين رجاله المتعلمين المحيطين به في الجنوب والمتخرجين في معهده وكثيراً ما كان هذا الشيخ المبعوث يصطحب معه واحداً أو أكثر من رفقاءه المعروفين بالاخوان لمساعدته في تأسيس الزاوية الجديدة التي كان يقوم ببنائها رجال القبيلة بأنفسهم في أحسن بقعة من أرضهم يقع عليها الاختيار بعد الاسترشاد برأى هذا الشيخ الموفد وصحبه . ومع أن الكثير من هذه الزوايا كان بسيطاً في بنائه إلا أن عملية البناء كثيراً ما كانت تستغرق عدة سنوات ثم يأخذون في تزويدها بوسائل الراحة حسب مقدرة أصحابها . والكثير منها كان يتطور مع الزمن بحكم ما يطرأ عليها من نمو في إيرادها والملاحظ أن هذه الزوايا كان الكثير منها يقوم على أنقاض الاطلال الاغريقية والرومانية أو على مقربة منها حتى يمكن الاستفادة من أحجارها في عملية البناء . كما أن الكثير منها قد أقيم في طريق تجارة القوافل للاستفادة منها كوسيلة للواصلات تربطها بالعالم الخارجى . هذا إلى جانب ما كانت تتمتع به من توفير سبل حمايتها من أى خطر طارىء يهددها وقد وزعت جميعها لتشمل معظم المجموعات القبلية الهامة وفي مراكز الحياة القبلية كما يشاهد خاصة فيما بين القبائل الرحالة الجنوبية التي كانت تتوغل في كل صيف إلى المراكز الداخلية مثل « المخيلي » و « النيان » Al - Nayan و « القطافية » و « النوفلية » وبعبارة أخرى حيث وجد الإغريق والرومان فيما مضى والأتراك فيما بعد من الضروري بناء محطات وقرى لتثبيت سيادتهم بصدد الهجمات التي تقوم بها القبائل المتوغلة في الصحراء وبالمثل استعان الايطاليون فيما بعد بهذه المراكز لتثبيت حكمهم في البلاد باتخاذها مراكز لحركتهم الاستعمارية التوطنية .

وعلى الرغم من قصر الفترة التي قضاها السنوسى الكبير فى ليبيا كقاعدة لدعوته الإصلاحية والتي تبلغ فى مجموعها حوالى العشر سنوات (١) استطاع أن يؤسس إحدى وعشرين زاوية فى جميع أنحاء البلاد اللبية وكثير من هذه الزوايا قد تم انشاؤه فى الواحات الواقعة على جانبي خط عرض ٢٩° شمالاً ومن هذه الزوايا على سبيل الذكر ما يوجد فى سرت وزلة وسوكنة وهون وودان وكلها أنشئت حوالى سنة ١٨٥٥ م. ومن المرجح أيضاً أن زاوية واحة الفقهية بفران قد أنشئت فى ذلك التاريخ كذلك أما زاوية مزدة الواقعة فى جنوبى مدينة طرابلس الغرب فكان انشاؤها سنة ١٨٤٥ م .

وبدراسة توزيع الزوايا التى أنشئت فى عهد السنوسى الكبير نلاحظ أن معظمها قد اختصت به الواحات بسبب أهميتها كمراكز لتجارة القوافل واهتمام السنوسى الكبير باستغلال هذه التجارة وتنشيطها هذا إلى أن أهالى الواحات كانوا أكثر استجابة لدعوته الإصلاحية من القبائل البدوية لما كانوا عليه من حياة استقرارية فى هذه الواحات سهلت دوام الإتصال بهم وأعطتهم فرصة أكبر للمساهمة فى الحياة الدينية وإصلاح شأنها . وإذا كان أيضاً من الملاحظ أن الزوايا التى أنشأها السنوسى الكبير تبدو قليلة العدد فى المدن الساحلية بالنسبة لما هى عليه فى الجهات الداخلية فذلك يرجع إلى السيادة العثمانية التى كانت أكثر ما تكون نفوذاً فى المدن الساحلية بعكس ما كانت عليه الحال بين القبائل البدوية وسكان الواحات حيث كانوا لا يعرفون للسلطة العثمانية أى وجود . كانت السيادة العثمانية على البلاد ممثلة فى حكام المدن تحول دون أن يتخذ منها السنوسى الكبير مراكز لدعوته الإصلاحية ولم يكن من المستطاع أن تقوم فى هذه المدن الساحلية حكومتان خصوصاً وأن

السنوسى الكبير كان يخشى الاحتكاك بالسلطات العثمانية كما كانت هذه السلطات نفسها فى حذر من دعوته وعلى تنبوع دائم لنشاطه وحركاته .

ولم تقم الزوايا السنوسية التى وضع السنوسى الكبير أساس قيامها بمهمة نشر العقائد الإسلامية الصحيحة ونشر الدعوة السنوسية بين أفراد القبائل فحسب بل كانت أشبه بالمراكز الثقافية "Centres of Culture" (١) التى نرى الدول الراقية الآن تعمل على إنشائها فى أنحاء البلاد إذ قامت بتعليم أولاد القبائل القراءة والكتابة ومبادئ الحساب إلى جانب تلقين القواعد الإسلامية الضرورية لكل مسلم بل كان بعضها يذهب إلى أكثر من هذا من حيث التخصص العلى حتى تخرج فى بعض الزوايا من استطاع أن يتم دراسته العالية فى معهد الجنبوب أو الجامع الأزهر بالقاهرة وليعود لبلاده ليكون مسئولاً عن تثقيف أهله وعشيرته ويمكننا أن نقدر القيمة الثقافية لهذه الزوايا وأهميتها إذا عرفنا أنها كانت بمثابة المدارس التى تقوم الآن بفتحها الحكومات الحالية دون أن تكلف من يلتحق بها شيئاً من النفقات بل كثيراً ما كان يستعين بعضهم بما تقدمه له الزاوية من معونة فى مقابلة تكاليف الحياة . والواقع أن البلاد تعتبر مدينة لهذه الزوايا بالمحافظة على تراثها الدينى والثقافى خصوصاً إذا عرفنا أنه لم يكن هناك مدارس حكومية فى البلاد (٢) حتى سنة ١٨٩٥ إذ كانت الثقافة الشعبية كلها مستمدة من هذه المدارس القرآنية الملحقة بالزوايا . وكان لهذه الزوايا أيضاً أثر كبير غير مباشر فى ازدياد ثروة البلاد الاقتصادية بما لعبته من دور كبير فى تشجيع تجارة القوافل التى كانت تعتبر حتى بداية القرن العشرين مورداً هاماً فى حياة البلاد الاقتصادية إذ استطاعت هذه الزوايا بما لها من

E. E. Evans-Pritchard:- The Sanusi of Cyrenaica, P. 79 -١

D. C. Cumming: The Modern History of Cyrenaica, P. 14-٢

نفوذ روحى أن تبسط الأمن فى البلاد وتجعل الجميع يشعرون بالمسئولية تجاه هذه القوافل التجارية فيقدمون لها كل المساعدة والعون بعد أن كانت هدفاً للنهب والسلب . هذا فضلاً عما كانت تجده القوافل التجارية من مساعدة وراحة إذا ما وصلت إلى إحدى هذه الزوايا . وهكذا بفضل مساهمة هذه الزوايا نشطت الحركة التجارية بالبلاد . ومع ما كانت عليه البلاد من فقر ملحوظ فى ظل إدارة تركية ضعيفة فإن الأهالى كانوا ينظرون إلى تلك الفترة التى تلت استرجاع الأتراك للبلاد بعد انهيار سلطة الأسرة القره مانىة حتى الغزو الإيطالى على أنها تمثل عصراً ذهبياً فى تاريخ حياة البلاد^(١) . ولأشك أن مرد هذا الشعور يرجع إلى ما ساهمت به هذه الزوايا فى نشر روح الاطمئنان بينهم بعد أن وجدوا لديها الحل للكثير من مشاكلهم الاجتماعية . أما بالنسبة لأثرها فى تحسين حالة الأمن العام بالبلاد فقد عملت الكثير ونجحت إلى حد كبير فى فض الخصومات والقضاء عليها بين القبائل وبذلك منعت الكثير من الاضطرابات القبلية التى كان لها أسوأ الأثر فى أمن البلاد . وفى ظل هذا السلام والأمن انتابت البلاد فترة من الرخاء رغم ما تعرضت له من مجاعات شديدة وأوبئة فتاكة عامة ولكن كل هذا لم يعق تقدم البلاد اقتصادياً وازدياد ثروتها الحيوانية وازدهار تجارتها فى ظل هذا الأمن المكفول بالسلطة الروحية دون أن يكلف الجميع نفقات باهظة .

وكان لهذه الزوايا كذلك أثر ملحوظ فى تحسين انتاج البلاد إلى درجة كبيرة بتشجيعها للأهالى على حب العمل وتنمية الانتاج . ومع أن البلاد لم تكن قد عرفت وسائل الانتاج الزراعى الحديث إلا أنها بفضل جهود هذه الزوايا فى الناحية الزراعية بما كانت تستغله من أراض وتشجيع الغير على

المساهمة في هذا الميدان تقدم الانتاج الزراعى للبلاد مما ساعد على رفع مستوى المعيشة بين أفراد الأهالى والانتقال بالكثير منهم من حياة الرعى إلى حياة الزراعة والاستقرار . ولانجد هنا ما يفي ببيان هذا الأثر فى تقدم البلاد أحسن مما قاله الأستاذ كنج Cumming فى كتابه بهذا الخصوص «ليس هناك شك فى أن السنوسية زادت من المقدرة الانتاجية لبرقة إلى درجة ملحوظة بتحسين الأمن العام وبتشجيع العرب على العمل الأكثر . إن البلاد لم تدخلها الوسائل الزراعية الحديثة وأنها ما زالت بعيدة عن الوصول إلى إمكانياتها الاقتصادية تماماً ولكن باعتبار شعبها الصغير وعجزها الطبيعى فإن مستوى المعيشة فى برقة أصبح عالياً نسبياً بالمقارنة مع البلاد العربية المشابهة» (١).

أما عن أثرها فى وضع أسس حياة الاستقرار بين القبائل البدوية التى تعودت الانتقال من مكان إلى مكان آخر فشىء قد لمسها الجميع إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزوايتها الخاصة بها وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعاً من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلاً حتى إذا ما دعتها

D.C. Cumming:- The Modern History of Cyraenaica, P.26١

“There is no doubt that Sanussism increased the productivity of Cyrenaica to a marked degree both by improving public security and by encouraging the Arabs to do more work. No New agricultural methods were introduced and the country was still far from reaching its full economic potentialities, but considering its small population and physical disabilities, the standard of living in Cyrenaica became relatively high in comparison with similar Arab Countries”

حاجة البحث عن الماء والمرعى أرسلت بعض أفرادها للقيام بهذه المهمة دون الانتقال بجميع أفراد القبيلة حتى لا يبتعدوا عن زوايتهم ولا يحرموا من الاتصال بها .

وخلاصة القول أن موضوع هذه الزوايا التي وضع أساسها السيد السنوسي الكبير وأثرها في حياة البلاد جدير بأن يكون موضع بحث خاص للشعب نواحيه مما يجعل من الصعب استيفائه حقه في مثل هذا الموضوع من الحلقة الدراسية العامة وأننا لا نجد لها تسمية حقيقية تنطبق عليها وعلى ما أدته للبلاد من خدمات ثقافية وزراعية واقتصادية وتعاونية وتحسين عام للأمن ونشر لوائه وإيواء للفقراء وأبناء السبيل إلا اصطلاح « المراكز الاجتماعية » "Social Centres" الذي أطلقه عليها الأستاذ ايفنزبريتشارد ولكن مع الأخذ بهذا الاصطلاح بأوسع معانيه ، وهكذا أثبتت لنا هذه الزوايا بما وضعه لها السيد السنوسي الكبير من سياسة وأهداف أن صاحبها كان مصلحاً اجتماعياً كبيراً بكل ما في هذه العبارة من معنى حقيقي .

...

...

...

عرفنا باختصار فيما سبق الدور الهام الذي لعبته الزوايا في نجاح دعوة السنوسي الكبير وإن كان جزء كبير من هذا النجاح أيضاً يعود إلى حسن اختياره للرجال الذين عاونوه في مهمته هذه والذين أخلصوا له بدورهم وكان معظم هؤلاء الرجال من بلاد المغرب ويكفي أن نذكر من بينهم السيد أحمد بن عبد القادر الريفي الذي ينتمي إلى بلاد الريف من بلاد المغرب والذي تعرف بالسيد السنوسي الكبير في مكة

المكرمة وأخذ عليه الطريقة ولازمه في نشاطه وحضر معه إلى برقة. وكانت له مكانة خاصة في نفس السيد السنوسي الكبير لما كان عليه من ورع وتقوى وعلم غزير حتى أنه عهد إليه بالاشتراك مع السيد عمران بن بركة الفيتوري بالوصاية على السيد المهدي والسيد محمد الشريف بعد وفاته وقد استمر السيد أحمد الريني يسند الدعوة بجهوده في عهد السيد المهدي ولازمه في رحلته إلى «قرو» بالسودان وعند وفاة السيد المهدي هناك رجع بالتخت الذي كان يضم جثمانه إلى الكفرة. وهناك توفي السيد أحمد الريني في سنة ١٩١١ قبيل الغزو الإيطالي للبلاد بعد أن عمر ما يقرب من التسعين سنة وقد عهد إليه السيد السنوسي الكبير في حياته بمهمة تدريس الفقه الإسلامي والنحو والفلك والتصوف في معهد الجفبوب وكان شاعراً ولكنه من النوع المقل ولذا لم يصلنا شيء من شعره. ومن المعروف أن السيد أحمد الريني قد تلقى علومه في جامع القرويين بفاس واتفق العلوم حتى الفلك والاسطرلاب والهندسة والرياضيات (١). ومنهم أيضاً السيد علي عبد المولى من بلدة سفاقس بتونس والسيد عمران بن بركة الفيتوري من بلدة ظلمين بلوييا الغربية والسيد محمد مصطفى المدني وأصله من بلدة تلمسان بالجزائر وكذلك السيد محمد البكري من واحة بسكرة بالجزائر. وكان هؤلاء السادة يكونون مجلساً عُرف باسم «مجلس الاخوان» اعتمد عليه السيد السنوسي الكبير في حركته الإصلاحية بأخذ رأيه والتشاور مع أفراد بعد أحسن اختيارهم فكانوا خير مخلصين له وله ولدعوته الإصلاحية. وهكذا كان لهذه البطانة المنتقاة فضل كبير في نجاح هذه الدعوة وربما كانت النتائج قد أتت بخيبة السنوسي الكبير لو أساء الاختيار وفرط رجال هذا المجلس في الأمانة التي عهد لهم بها. وهكذا أيضاً

كانت فراسة السيد السنوسى الكبير فى اختيار الرجال المعاوين له أكبر عامل فى نجاح دعوته فكثيراً ما كانت بطانة السوء عامل هدم للحركات الاصلاحية وأصحابها إذا كانت لا تراعى إلا مصلحتها الخاصة ولا يهتمها من الأمر إلا ما يمس كيانهما والتاريخ حافل بالكثير من الأمثلة والحوادث المؤيدة .

وبمرور الزمن اكتسبت هذه البطانة نظاماً خاصاً بها هو المعروف بنظام «الاخوان» وهم أولئك الذين التفوا حول السيد السنوسى الكبير وساعدوه فى مهمته وقد زاد عددهم بانضمام الكثير من تخرج فى هذه الزوايا على يد السنوسى الكبير وخلفائه . وإليهم يرجع الكثير من الفضل فى نجاح هذه الزوايا فى قيامها بمهمتها إذ كانوا هم المشرفين عليها المحركين لها وقد خدموها باخلاص وتفانوا فى سبيلها منذ أن أسس السيد السنوسى الكبير زاويته الأولى المعروفة بزاوية «البيضاء» بالجبل الأخضر فى سنة ١٨٤٣ . وبفضل جهودهم استطاع السيد السنوسى الكبير أن يطمئن على حركته أثناء غيابه عند ما غادر البلاد فى رحلة إلى الأراضى المقدسة سنة ١٨٤٦ وبقائه هناك حتى سنة ١٨٥٣ عندما عاد إلى زاويته بالبيضاء وانتقل منها إلى الجغبوب . وكثيراً ما كان السيد السنوسى الكبير يغيب عن زاويته الرئيسيه . متفقداً بقية الزوايا وهو مطمئن لسير الأمور فى مركز دعوته على ما أحسن ما يكون . والحقيقة أن هؤلاء الاخوان كانوا حلقة الصلة بين السيد السنوسى الكبير وزوايا دعوته المنتشرة فى جميع أنحاء البلاد وخارجها كما كانت هذه الزوايا نفسها حلقة الصلة بين الدعوة السنوسية وأهل البلاد واستطاع السيد السنوسى الكبير أن يخلق منهم قادة للطريقة تولوا أمرها فيما بعد بفضل ما وجدته فيهم من استعداد خاص وإيمان بمبادئ دعوته . وقد ترك الكثير منهم أهله وبلاده وفضل الالتحاق به وصحبته فى جميع تنقلاته حتى استقر به الأمر أخيراً فى واحة الجغبوب . وبما ساعد هؤلاء الاخوان فى نجاح مهمتهم أن معظمهم كان غريباً عن البلاد

ونظامها القبلى مما حماهم من الانغماس فى الولاء للتقاليد المحلية الموروثة وبما أكسبهم مكانة خاصة فى نفوس القبائل ضمننت لهم الاحترام والطاعة التامة وقد تدعم مكان الكثير منهم بالمصاهرة مع أفراد البيت السنوسى نفسه حتى إذا ما انتهت حياة السيد السنوسى الكبير كان هؤلاء الاخوان خير حفظة لتراثه الاصلاحى وكان فيهم خير وصى على ابنه وبفضل حسن رعاية من كاف منهم بالوصاية عليهما استطاع السيد المهدي السنوسى أن يتابع سيرة والده وأن يسير بالدعوة السنوسية إلى الامام .

وقد نجح هذا النظام «الاخوانى» الذى وضع أساسه السيد السنوسى الكبير فى مساعدة قادة الطريقة السنوسية فيما بعد وكانوا خير عون للبلاد فى المحن التى صادفتها وإليهم يرجع الفضل فى خلق مجتمع حساس بالبلاد وفى اثاره الحمية الوطنية والدينية بين صفوف الأهالى عندما أغارت ايطاليا على البلاد فيما بعد ونجحوا فى صبغ نضال الشعب ضد الايطاليين بالصبغة الدينية مما جعل العالم الاوروبى يخشى نشوب حرب دينية صليبية باستتارة شعور العالم الاسلامى لما كانت ترتكبه ايطاليا من أعمال عنيفة بنية الوصول إلى إخضاع البلاد وكبت روح المقاومة المستعرة فيها والتى نجح هؤلاء الاخوان فى إلهابها ودوام استمرارها . ويكفى أن نذكر من خريجي هذا النظام الاخوانى الشهيد عمر المختار بطل المقاومة الشعبية فى الأعوام الأخيرة من كفاح ليبيا وكيف استطاع بما فى نفسه من ايمان عميق بوطنه ودينه أن يكون أقوى من قوى القوات الايطالية ووسائلها . وما كان ليصل إلى هذه المرتبة العالية من الايمان لولا أثر تعاليم السيد السنوسى الكبير فى نفسه ونظامه الاخوانى فى صقله إلى أن لاقى ربه شهيداً مع بقية الشهداء فسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيا .

ولا يمكن استيفاد الكلام عن السيد السنوسى الكبير وحركته دون تناول علاقته بالخلافة العثمانية أو بتعبير أدق مدى التعاون بينه وبين السلطة العثمانية الحاكمة . وقد سبق الإشارة بصورة عابرة فى الصفحات السابقة الى ما كان بينه وبين السلطات العثمانية ممثلة فيما ساور رجال ادارتها من شك وتخوف من نشاطه وحذر وانتباه من جهته . والواقع أن العثمانيين كانوا ينظرون إليه وإلى دعوته بشيء كثير من الارتياب لما قد يترتب عليها من تطور فى سيادتهم على البلاد خصوصاً وأن السيد السنوسى الكبير فى دعوته الإصلاحية قد جاء عقب دعوة المصلح محمد بن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية وما اقترنت به من عنف كاد يعرض السيادة العثمانية على الأراضى المقدسة للزوال لولا استنجاد الباب العالى بمحمد على وإلى مصر الذى أعاد للعثمانيين سيادتهم من جديد على شبه الجزيرة العربية وتحمس محمد على لحرب الوهابيين رغبة منه فى توطيد مركزه لدى رجال الباب العالى . ومما زاد فى خوف العثمانيين من السيد السنوسى الكبير ودعوته اعتقادهم فى اتصاله بالدعوة الوهابية وقد أمضى فى الأراضى المقدسة حوالى العشرين عاماً وإن كان السيد السنوسى الكبير وخلفاؤه من بعده ينفون أى صلة لهم بالحركة الوهابية وإن تشابهت دعوته الإصلاحية بدعوة محمد بن عبد الوهاب فى بعض مسائل اقتضاها ما جاء بخصوصها فى القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة . كل هذه القرائن جعلتهم ينظرون إلى السيد السنوسى الكبير فى دعوته نظرة التخوف والارتياب وهم الذين لم يمض وقت طويل على استردادهم للبلاد اللبوية وضمتها من جديد للحظيرة العثمانية بعد زوال حكم الاسرة القرمانلية . وكان على العثمانيين أن يعملوا على توطيد هذه السيادة وتدعيم نفوذهم فى الشمال الافريقى فإن فرنسا قد جاورتهم بعد أن احتلت الجزائر وأخذت تنمجه بانظارها إلى املاك الدولة العليا المجاورة . وخلاصة القول أن السيد السنوسى الكبير قد ظهر بدعوته فى وقت كانت فيه الدولة العثمانية تعاني الكثير من الحركات الاستقلالية

والانفصالية من شعوبها الخاضعة لها وقد سلك قادة هذه الحركات الاستقلالية طرقاً مختلفة إلا أنها جميعاً قد اصطبغت بالصبغة الإصلاحية حتى تكسب عطف الغير وتدعم نفسها . لهذا لا نعجب إذا رأينا العثمانيين قد ساورتهم الوسوس من ناحية السيد السنوسي الكبير ونظروا إليه هذه النظرة الارتيازية وقد استطاع أن يخلق من قبائل لوبيا لاسيما في لوبيا الشرقية مجتمعا آخر يختلف عما كانت عليه بفضل نشاطه الإصلاحى حتى أصبح هذا المجتمع الجديد فى ظل السيادة العثمانية وبفضل دعوة السيد السنوسى الكبير اشبه بامبراطورية داخل امبراطورية اخرى (١) An Empire within an Empire . والحقيقة التى يجب أن يسلم بها الجميع أن حركة السيد السنوسى الكبير الإصلاحية كانت تحمل فى طياتها بذوراً طيبة تصلح أن تكون أساساً لايحاد كيان سياسى للبلاد على قواعد اسلامية خالصة كما تصلح أن تكون نواة متماسكة لامبراطورية اسلامية كبيرة . فشأن كل دعوة دينية أن تنتهى بدعوة سياسية اصلاحية اذ الاسلام لا يعرف حداً فاصلاً بين سلطتيه الدينية والزمنية وما كان سيدنا محمد صلوات الله عليه فى دعوته إلا رسولاً ورئيساً للحكومة الاسلامية الأولى . وهذا ايضاً ما دعا بقية الدول الأوروبية الأخرى إلى أن تتوجس خيفة من حركة السيد السنوسى الكبير وخليفته وأن تحسب لها ألف حساب وأن يهتم مفكروها بدراسة امسها وتحليلها واخراج المؤلفات عنها ولنا فى اسم بعضها (٢) فضلاً عما تحتويه من آراء وتحليلات ما يبين لنا مدى ما كان يسيطر على العقل الأوروبى من تقدير لخطرها . وقد اخبرنى الشيخ بشير السعداوى أنه قرأ فى شبابه كتاباً باللغة التركية بعنوان « اسيلاي جهان » (٣) وهو ترجمة تركية منقولة عن الأصل الفرنسى وقد شرح فيه مؤلفه الفرنسى الحركة السنوسية وأهدافها

(١) P. C. Cumming : The Modern History of Cyrenaica, P. 20

(٢) راجع قائمة المصادر الافرنجية

(٣) العالم الاسلامى .

رامياً من وراء ذلك إلى بيان خطورة هذه الحركة على شعوب أوروبا محذراً العالم منها متنبأ لها بالنجاح في ضم شمل العالم الاسلامي في شمالي افريقية وآسيا ثم توجيه هذه القوة الاسلامية الفتية المتحدة إلى أوروبا لاسترجاع اسبانيا والجزء منها إلى بقية القارة الأوروبية وقد كتبه مؤلفه بطريقة شيقة تدفع الانسان إلى الانكباب المتواصل على قراءته .

وقد فطن السيد السنوسي الكبير إلى ما كان يضمره له العثمانيون من شعور خاص فعمل على عدم الاحتكاك بسلاطنتهم الممثل في رجال ادارتهم حتى أنه اضطر إلى التوغل في الصحراء ليكون بعيداً عن متناول شرهم إذا ما فكروا في النيل منه (إذا أخذنا بالرأى القائل في علة انتقاله إلى الجنبوب) ولم يبد من السيد السنوسي الكبير من الأعمال والشعور ما يجعله عرضة للمؤاخذة بل عمل على المحافظة على إظهار الولاء للخلافة العثمانية وسلاطنتها في كل المناسبات والظروف . وإذا كان بعض المؤرخين (١) يرون أن السنوسي الكبير كان يضم شعوراً خاصاً نحو الأتراك لاغتصابهم للخلافة الاسلامية حتى أنها أصبحت بهذا الاغتصاب غير قرشية ولا عربية فإن هذا القول مبالغ فيه ومحاولة غير ناجحة لتفسير شيء غير موجود فما اغتصب الترك الخلافة بل حملوا عبئها ورفعوا لواءها ولم تثبت فكرة الاغتصاب إلا بعد ضعف العثمانيين . وليس بغريب أن تقترن دعوة السيد السنوسي الكبير بمثل هذه الأقوال إذ كثيراً ما كان موضوع الخلافة الاسلامية خصوصاً أثناء الحرب العالمية الأولى محل بحث ونقاش عند ما وجدت دول الحلفاء من المصلحة كسب شعور العالم الاسلامي إلى جانبها على أثر انضمام العثمانيين إلى الألمان والقول باغتصاب سلاطين آل عثمان للخلافة وعدم تنازل المتوكل آخر خلفاء العباسيين بمصر لهم عنها عندما غزا السلطان سليم الأول مصر واستولى عليها وأخذ معه المتوكل إلى

القسطنطينية وذلك حتى تكون الشعوب الاسلامية في حل من الوقوف إلى جانب الأتراك في نضالهم ضد الخلفاء . والواقع أن موضوع تنازل المتوكل الخليفة العباسي بالقاهرة عن الخلافة الاسلامية للسلطان سليم الأول لم ينته البحث فيه بالنفي أو الإثبات وأنه ما زال إلى يومنا هذا موضع مناقشة المؤرخين والبحاث .

وقد كان السيد السنوسي الكبير أكبر من أن يتأثر بمثل هذه الأقوال التي أخذت تنتشر في القرن التاسع عشر خصوصاً وأن بني عثمان قد احتفظوا بالخلافة الاسلامية في أيديهم مدة طويلة دون أن يفكر أحد في منازعتهم إياها وقد كانت تركيا هي القوة الاسلامية الوحيدة المستقلة التي لها من القدرة رغم ما كانت تعانيه من ضعف على حماية كافة مصالح المسلمين فلم يكن من الحكمة ولا من المصلحة الاسلامية العامة التفكير في الخروج على السيادة العثمانية وخلق مشكلة جديدة للعثمانيين الذين كانوا يعانون الكثير من أمثالها بسبب طموح بعض المغامرين ومساعدة الدول الأوروبية لهم رغبة في تحقيق بعض المآرب الاستعمارية .

وكان الزم كفيلاً بتحسين العلاقات بين العثمانيين والسيد السنوسي الكبير خصوصاً بعد أن اطمأنوا إلى حركته ولم يتمسكوا عليه بما يتعارض وسلطانهم بل وجدوا فيها كل معونة لهم . وإذا كانت البلاد قد تمتعت بشيء من الأمن وما يتبعه من رخاء نسبي وباستقرار في الحكم فالفضل في الكثير من هذا يرجع إلى دعوة السيد السنوسي الكبير وزواياه التي ساهمت إلى حد كبير في ففض الخصومات بين القبائل المتنازعة قبل أن يستفحل خطرهما فتهدد الأمن العام باضطرابات دائمة ولهذا تميزت فترة حكمهم الثانية عما كانت عليه في العهد العثماني الأول مع أن العثمانيين لم يعملوا الكثير من أجل تهيئة نظمهم الادارية وتحسينها إلا في الأعوام الأخيرة السابقة للإحتلال الإيطالي للبلاد . ويبدو أن

الأتراك وقد رأوا تضائل نفوذ الدعوة السنوسية في البلاد بفضل نشاطها ووسائلها السلمية أن من الخير العمل على كسب رئيسها وأنصارها إلى جانبهم ولهذا نرى السلطان عبد المجيد الأول يمنح « السنوسية » في سنة ١٨٥٦ عهداً « Charter » يعنى جميع أملاكها من دفع الضرائب ويسمح لرئيسها بجمع الاعشار الدينية من أتباعها وقد صدر فرمان هذه الإرادة السنية من اسطنبول وحمله إلى برقة السيد عبد الرحيم المغبوب الذى تمسكن من مقابلة السلطان عبد المجيد الاول رغم ما وجده من صعوبات فى سبيل ذلك كما كان يحدث عادة لأولئك الذين يقصدون العاصمة العثمانية بغية الحصول على مثل هذه المقابلة وقد تأكد هذا الاعفاء مرة أخرى من جانب العثمانيين فى عهد السلطان عبد العزيز شقيق السلطان السابق عند ما أحضر السيد أبو القاسم العيساوى فرماناً آخر من اسطنبول إلى والى طرابلس فيه ما يؤيد استمرار هذا الامتياز ويضيف اليه حرمة الزوايا السنوسية فى حدود الاراضى الخاصة بها .

وعلى كل فإن الأتراك وإن خامرهم الشك من جهة السيد السنوسى الكبير ودعوته إلا أنهم كانوا على بينة من أنه وأتباعه سيقفون إلى جانبهم فى أى نضال يخوضونه ضد القوى المسيحية فى أوروبا ولن يكونوا عليهم . وهذا ما حققته الأيام فى الأعوام التالية عندما غزت إيطاليا البلاد واشتبك معها العثمانيون فى حرب كان معظم اعتمادهم فيها على أهل البلاد وما ذلك إلا لتغلغل الأسس التى وضعها السنوسى الكبير فى نفوس خلفائه وأتباعه .

...

...

...

وفى اليوم السابع من شهر سبتمبر سنة ١٨٥٩ انتهت حياة السيد محمد بن على السنوسى الحافلة بالنشاط والإصلاح ودفن فى الجغبوب وما زال قبره إلى يومنا هذا مزاراً للتبرك واستلهام الصبر فى الشدائد واستذكار تاريخ حياته وهدف دعونه . وقد كان طويل الخشم صبوح الوجه فصيح اللسان قوى

الحجة في الحديث قوى الإيمان بدعوته صبوراً على تحمل المتاعب في سبيل الخير . قوى الشخصية حتى إنه اكتسب مكانة خاصة في نفوس أتباعه ومعاصريه فالتحق به الكثير من بلاد المغرب وأهلها وتركوا أوطانهم وأهلهم وتبعوه في رحلاته وتنقلاته وأجابوا مطلبه عندما بحث بهم كبشرين لدعوته إلى البلاد التي اختارها لهم ويكفي أن نعرف أن بدو بلاد العرب ولوبيا الذين عرفوا بشدة تمسكهم بالتقاليد وماتوارثوه عن آبائهم من عادات فضلاً عما كانوا يعيشون فيه من جهل عام قد قبلوا دعوته وأقبلوا عليها متدافعين دون إكراه لهم عليها واتخذوا منه مرشداً عاماً لهم في مسائلهم الدينية والزمنية . ولم يكن السيد السنوسى الكبير صاحب دعوة إصلاحية فحسب بل كان رجلاً فقيهاً محباً للعلم وأهله . وكان كذلك مؤلفاً ترك لنا الكثير من المؤلفات القيمة رغم كثرة أسفاره وتنقلاته وضيق وقته عن القيام بمثل هذا النوع من النشاط العلمى كل ذلك يتبين لنا تماماً في المكتبة العلمية التي وضع أساسها وزودها بالكتب اللازمة وألحقها بمعهد الجغبوب وفي المؤلفات العلمية التي تركها لنا والتي ومنها رسالة باسم شفاء الصدر بأرى المسائل العشر وهى في حكم رفع اليدين في الصلاة وفي القبض والاستعاذة وفي البسملة للفتحة والسورة وفي التأمين وغير ذلك وكتاب المسائل العشر المسمى بغية المقاصد في خلاصة المراصد ويبدو من مقدمة الكتاب أن السيد السنوسى الكبير قد ألفه وهو في المدينة المنورة بالأراضى المقدسة وهو يتناول مسائل فقهية قام بتوضيحها في هذه الرسالة على أثر توجيه الكثير من الأسئلة إليه بخصوصها من أهل اليمن وبلاد المغرب ويهاشم هذا الكتاب رسالة باسم السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين ورسالة رابعة باسم إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن وأخرى باسم المسلسلات العشر . وكل هذه المؤلفات مطبوعة وفي متناول طالبي البحث في الفقه الإسلامى . ولم يكن نشاطه فى التأليف قاصراً على

المسائل الفقهية وما يتصل منها بالشريعة الاسلامية بل ساهم في علم التاريخ فترك لنا كتاب الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية ، وهو مصدر له قيمته بين كتب التاريخ التي تناولت أحداث الشمال الأفريقي منذ الفتح الإسلامي ويعتبر مصدراً أساسياً لكل من يطلب استقصاء أخبار دولة الإدارة في بلاد المغرب وما تفرع منها من دويلات أخرى فضلاً عن تعرضه في أول الكتاب لفائدة علم التاريخ والانساب (١)

توفي السيد محمد بن علي السنوسي وقد ترك من بعده ابنين هما السيد محمد المهدي والسيد محمد الشريف ولصغر سنهما ترك الوصاية عليهما للسيد أحمد عبد القادر الريفي بالاشتراك مع السيد عمران بن بركة الفيتوري اللذين أحسنا القيام بهذه المهمة حتى استطاع خليفته السيد محمد المهدي الاشراف بنفسه على ما خلفه له أبوه من تركة إصلاحية مثقلة بالمشروعات العملية فكان خير خلف لخير سلف ولنا في حفيد السيد السنوسي الكبير وخليفته في زعامة الحركة السنوسية السيد محمد أدريس السنوسي ملك لوبيا المعظم ما يجعلنا نؤمل كل خير للبلاد وأهلها في عهدها الجديد .

هذا عرض سريع لحياة السيد محمد بن علي السنوسي الكبير ودعوته وأثرها في البلاد رحم الله المصلح الكبير وأسكنه فسيح جناته بقدر ما أدى للبلاد من خدمات موفقة وبقدر ما بذل من جهود إصلاحية في سبيلها كوحدة من مجموع العالم الإسلامي وبقدر ما كرس حياته من أجل نهضة شعوبه والعودة به إلى أيام السؤدد والمجد .

١ — قام بطبع جميع هذه المؤلفات السابقة الذكر على نفقته الخاصة حفيد المؤلف السيد محمد ادريس المهدي السنوسي ملك لوبيا المعظم .

المصادر

١ - المصادر العربية :

١ - الحشائشي (محمد عثمان الحشائشي) : - جلاء الكرب عن طرابلس الغرب أو د النفحات المسكية في أخبار الدولة الطرابلسية ، نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة بمكتبة بلدية الاسكندرية .

٢ - النائب (أحمد الأنصاري) : - المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب .

٣ - شكري (دكتور محمد فؤاد شكري) : - السنوسية دين ودولة .

٤ - سيرت . و . أرنولد (Sir T. W. Arnold) : - الدعوة إلى الاسلام (ترجمة دكتور حسن ابراهيم حسن ، عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى) . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة سنة ١٩٤٧ .

٥ - لوثرروب ستودارد الأمريكى (Lothrop Stoddard) : حاضر العالم الاسلامى (ترجمة عجاج نويهض وتعليقات للأخير شكيب أرسلان) .

٦ - السيد أحمد الشريف السنوسى : الأنوار القدسية فى مقدمة الطريقة السنوسية (استانبول عام ١٣٣٩ - ١٣٤٢ هـ) .

٧ - السيد محمد بن السيد على السنوسى : الدرر السنية فى أخبار السلالة الأدرسية (القاهرة ١٣٤٩) .

٨ - أحمد حسنين : - فى صحراء ليبيا .

٩ - سالم بن عامر : عدة مقالات عن السنوسى الكبير بمجلة عمر المختار التى كانت تصدر ببغازى (١٩٤٣ - ١٩٤٤) .

ب - المصادر الانجليزية :

- 1 - E. E. Evans - Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica, Oxford 1949 .
- 2 - E. E. Evans -Pritchard The Place of the Sanusiya Order in the History of Islam, «Government Press-Tripoli» .
- 3 - Major E. E. Evans - Pritchard : Biographical Notes on members of the Sanusi Family.
- 4 - Major E.E. Evans-Pritchard : The Non-Sanusia Order in Cyrenaica.
- 5 - DR. C. C. Adams : The Sanusiya Order, «Handbook on Cyrenaica, Part X, Cairo, 1944-1947».
- 6 - D. C. Cummiug O.B.E. : The Modern History of Cyrenaica, «Handbook on Cyrenaica, Part V, Cairo, 1944-1947» .
- 7 - K. D. Bell : Kufra, «Handbook on Cyrenaica, Part IX, Cairo, 1944-1947».
- 8 - Rosita Forbes : The Secret of the Shara, Cassell & Co., London.
- 9 - Hastings Encyclopaedia of Religion and Ethics, art «Sanusiya».
- 10 - The Encyclopaedia of Islam.
- 11 - The Encyclopaedia Britannica.
- 12 - T R. Threlfall, Sanussi and his Threatened Holy War, «The Ninteenth Cent. & After, March 1900».
- 13 - T. R. Wilson : The Moslem Menace, «The Ninteenth Cent. & After, Sep. 1907».

ج - المصادر الفرنسية :

- 1 - L. Rinn : Marabouts et Khouans, Alger, 1884.
- 2 - O. Depont et X. Coppolani : Les Confréries religieuses Musulmanes, Alger, 1897.
- 3 - Duveyrier, H., : La Confrérie Musulmane de Sidi Mohammed ben 'Ali es Senoûsî et son Domaine géographique en l'Année 1300 de l'Hégire — 1883 de notre ère, Paris, 1884.
- 4 - Lammens : L'Islam, Beyrouth, 2nd ed. 1941.
- 5 - Le Chatelier, A., : Les Confréries Musulmanes du Hedjaz Paris, 1887.
- 6 - G. Bonet Maury: L'Islamisme et le Christianisme et Afrique.

« نحن في طريق الوحدة »

ادريس الاول

الأسس الجغرافية والتاريخية

للوحدة اللوية *

لوبياء الدولة العربية الثامنة — الاختصاصيون يمهّدون لرجال السياسة لتقسيم لوبيا — تضارب آراء الكتّاب في الحدود بين أقاليم البلاد — رأى الاستاذ ايفر برينشرد في الحدود بين برقة وطرابلس — رأى الاستاذ كندى شو في الحدود بين برقة وطرابلس — رأى الاستاذ فشر — رأى الاستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية — الجغرافيون والرحالة الاقدمون يختلفون في تحديد أقاليم البلاد — مناقشة حجج التقسيم — الأساس الجغسي لأقاليم البلاد واحد — خضوع برقة للاغريق وطرابلس للفينيقيين لا يصلح أن يكون أساساً تاريخياً للفصل بينهما — المحاولات التي بذلت للتوحيد بين برقة وطرابلس في العهد الاغريقي الفينيقي — الفتح العربي يوحد بين أقاليم البلاد — الهجرات العائلية من طرابلس إلى برقة تدعم هذه الوحدة — علاقات طرابلس بفران منذ العهد الفينيقي توحد بينهما — الظروف الاقتصادية تحمّ وحدة البلاد — قلة السكان تستلزم الوحدة — بساطة الفروق الجغرافية بين اقسام البلاد الثلاثة بمقارنتها بما هي عليه في (ايطاليا . فرنسا . بريطانيا) المستقبل كفيل بتحقيق الوحدة .

ظهرت لوبيا الدولة العربية الثامنة كدولة مستقلة ذات سيادة للعالم في عام سنة ١٩٥١ بعد أن أعلن ذلك أدريس الأول ملك لوبيا المعظم في احتفال رسمي مشهود يوم الاثنين الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ . وإذا كانت القضية

(*) هذا الموضوع كان في أساسه محاضرة القيت في قاعة المحاضرات بإدارة المعارف بطرابلس الغرب في ربيع سنة ١٩٥٠ بمناسبة زيارة القافلة الثقافية التونسية للشطر الغربي من البلاد . وقد نهضت هذه المحاضرة مع شيء من التجويز الخفيف في مجلة الرسالة الهراء (عدد ٨٨٤ و ٨٨٦) وقد رأى المؤلف أن يضمن كتابه هذا الموضوع الهام بما أن أدخل عليه شيئاً كبيراً من التعديل ولزيادة اقتضاها روح البحث العلمي .

اللوية قد احتلت في الأعوام الأخيرة مكانة دولية هامة استرعت انظار العالم فإن عدداً كبيراً من الاخصائيين قد انصرف إلى دراسة شئونها المختلفة كل فيما اختص فيه وخرجت اليها المطابع الافرنجية بأبحاث شتى بخصوصها كان أهمها بالنسبة لموضوعنا هذا ما يتعلق بتاريخها وجغرافيتها .

على أن أهم ما يلفت النظر في هذه المؤلفات العلمية الحديثة اتجاهها خاصة في دراسة البلاد على أساس اقسامها الثلاثة وبحث كل قسم منها على أنه كل مستقل قائم بذاته وله خصائصه التي ينفرد بها وليس التخصص أو الخوف من تضخم الكتب هو الذي دفع معظمهم إلى هذا المنهج في البحث ولكن هي الروح الانفصالية والتمهيد لذلك عن طريق العلم حتى تنتشر الفكرة وتعم فتكون نواة صالحة لتسهيل تنفيذ الأغراض السياسية . وهكذا وجدنا الحقائق في بعض الكتب تلوى لياً وتطمس طمساً في سبيل الوصول إلى هذه الغاية . وهكذا وجدنا رجال السياسة قد اتخذوا من هذه الحقائق التي ليست إلا وهما جسمه البحوث وهولوا فيه عماداً لتدعيم نظريتهم الرامية لمحاولة تقسيم البلاد والوقوف دون وحدتها التامة حتى يفوز كل منهم بنصيبه من هذه الفريسة التي وضحت أهميتها للعيان بعد الحرب العالمية الثانية .

والغريب أن بعض هؤلاء الككتاب قد تضاربت آراؤهم في الحدود التي يجب أن تكون عليها أقسام البلاد لا سيما فيما بين برقة وطرابلس حتى كادت القسمة تنهياً أسبابها بعد أن عملوا لها فقامت بين بعضهم معارك علمية حادة كان أهمها ما نشرته المجلة الجغرافية للجمعية الجغرافية بلندن (١) بين الاستاذ

(١) The Royal Geographical Society :- The Geographical Journal, London, Sept., Oct. (1945), May - June (1946).

الدكتور ايفنز بريتشرد Evans pritchard الاستاذ حالياً بجامعة اكسفورد والاستاذ كندى شو Kennedy SHaw وقد كان الأول يشغل وظيفة سياسية بالادارة البريطانية الثالثة لبرقة بعد طرد الايطاليين منها وقد أمضى هناك اكثر من سنتين صرف معظمهما بين البدو خصوصاً أولئك الرحل منهم كما جاء ذكر ذلك في مقدمة كتابه « The Sanusi of Cyrenaica » أما الثانى فقد شغل هو الآخر وظيفة سياسية فى الادارة البريطانية لطرابلس الغرب فى الشئون العربية « Arab Affairs » لمدة عام واحد .

وبما يلفت النظر فى هذه المناقشة العلمية بين الاستاذين السابقى الذكر أن الاستاذ ايفنز بريتشرد يقرر فى مقالته المنشور بهذه المجلة (١) أن برقة وطرابلس قد كانتا تحت سيادة أجنبية واحدة ممثلة فى تركيا فى أول الأمر ثم ايطاليا فيما بعد ويعترف بأن الحدود بينهما طيلة هذه المدة كانت مجرد حدود إدارية فقط اقتضتها ظروف الاشراف الادارى وتسهيل مهمة القيام به . ويذهب إلى أبعد من هذا عندما يذكر الحقيقة التاريخية وهى أنه لم يكن هناك بالمرة حد ثابت قوى بين برقة وطرابلس (٢) . « There has never been a hard - fast frontier between Cyrenica and Tripolitania » وهو فى كلامه هذا لا يعنى فترة معينة بالذات بل يجعل قوله رأياً قاطعاً شاملاً . وفى الوقت الذى يقرر فيه الأستاذ ايفنز بريتشرد هذه الآراء ويسجلها فى المجلة الجغرافية العلمية ذات المكانة المألوفة نراه يعود مرة أخرى وقد أخرج كتابه « The Sanusi of Cyrenaica » فى سنة ١٩٤٩ ينقض رأيه هذا رأساً على عقب فيرى فى انحدار الصحراء إلى البحر عند خليج سرت خير فاصل لبرقة عن طرابلس ويحاول الاستناد على التاريخ لتأييد رأيه الانفصالى هذا

(١) The Geographical Journal, May-June (1946).

(٢) المصدر السابق ص ١٦٩

ويذكر أن تاريخ هذين الاقليمين فيه ما يثبت أن كلا منهما قد سار في طريقه الخاص به فبينما ارتبطت برقة بمصر الاغريقية ارتبطت طرابلس بقرطاجنة الفينيقية . وفي الوقت الذي ذهبت فيه برقة مع بزنطة كانت طرابلس من نصيب روما . ثم يحاول تدعيم رأيه في خليج سرت كمنطقة حدود بين الاقليمين باقتباس ما قاله الاستاذ ديپوا Depois في هذا الخصوص حيث يقول : « إن خليج سرت الكبير دون أى نزاع أحد الحدود المصينة من الناحية الطبيعية والجنسية التي لا توجد في أى مكان آخر من العالم » ، (١) .

وفي الوقت الذي كان فيه الاستاذ ايفنز بريتشرد بما له من سلطة إدارية في برقة يحاول استقصاء مدى تغلغل النفوذ السنوسى في طرابلس ويقوم بالجلولات لهذا الغرض كما جاء ذكر ذلك في مقاله السابق الذكر ليقرر على أساسه الحدود الغربية لبرقة نراه يدعو إلى فصل برقة عن طرابلس على أن تكون الحدود الغربية للأقليم الأول متمشية مع الخط الممتد من بويرات الحسون على البحر الأبيض إلى واحة سوكنة في الداخل بما في ذلك منطقة سرت كلها . وهو يرى في حالة تعسر قيام هذه الحدود بهذا الشكل بين برقة وطرابلس فلا أقل من قيامها لاتمام هذا الفصل متمشية مع الخط الممتد من وادى هراوة Wadi Harawa إلى واحة زلة تاركا بقية طرابلس لتقرر مصيرها الأيام ومنظمة الأمم المتحدة مع أن النفوذ السنوسى لا يقف عند هذه الحدود التي أريد رسمها ولكنه يتعدى ذلك ويشمل طرابلس كلها ولنا فيما كتبه الاستاذ ايفنز بريتشرد نفسه في كتاب The Sanusi of Cyrenaica بخصوص انتشار الطريقة السنوسية ما يؤيد قولنا هذا وما يتعارض مع ما قال به في مقاله السابق

E. E. Evans-Pritchard:— The Sanusi of Cyrenaica, P. 47— ١

(٢) راجع المصدر السابق الذكر ص ١٥ و ٢٥ و ٥٢ .

الذكر . فهو يعترف بانتشار الطريقة السنوسية في عهد السنوسى الكبير فى كل الشمال الافريقى حتى أنها شملت القبائل المتنقلة فى طرابلس كما استطاعت عن طريق تجارة القوافل الوصول إلى فزان ثم يهود ويؤكد هذا مرة أخرى ، عندما يذكر أن الطريقة السنوسية كانت هى السائدة فى الشمال الافريقى من وادى النيل إلى حدود تونس ومن البحر الأبيض إلى الصحراء الكبرى ويقرن كلامه هذا بخريطة يبين فيها توزيع الزوايا السنوسية فى الشمال الافريقى وبلاد المغرب ومنها يتضح للقارىء أن عددها فى طرابلس لا يقل عما يوجد فى غيرها إن لم يزد عليه ولم يكتف بهذا بل تدفعه حقيقة البحث إلى نشر قائمة بأسماء الزوايا السنوسية عامة ومنها يتبين لنا كذلك أنه كان منها بطرابلس ثمانية عشر زاوية وفى فزان خمسة عشر زاوية موزعة كلها على المدن والمراكز المختلفة . ولا نكتفى بهذا أيضا بل فى خريطته لطرابلس (١) التى تبين القبائل السنوسية الرئيسية بها ما يؤكد لنا قوة النفوذ السنوسى فى طرابلس ويهدم كل محاولة للتقليل من هذا النفوذ لتحقيق بعض الأغراض الخاصة . وبالنظر إلى هذه الخريطة نجد القبائل الممثلة لسكان طرابلس تمثيلا صحيحا قد احتلت مكانتها فى هذه الخريطة ولا نجد بأسا من ايراد ذكر اسمائها هنا نقلا عن هذه الخريطة فهى : المغاربة . اولاد سليمان . الجميعات . القدادفة . ورفلة . العامرة . المشاشة . اولاد بوسيف . الزنتان . الرجبان . الحراة . المقارحة . رياح الحطان . الحسون .

كل هذه الحقائق المسلم بها من الجميع تعارض ما يدعيه البعض وفى مقدمتهم الأستاذ ايفنز بريتشارد والأستاذ كندى شو اللذين أتبعا نفسيهما فى تعيين الحدود التى يجب أن تفرض على البلاد بالطرق السياسية المعقدة بين الإقليمين

ولا شك أن في نشوب هذا الخلاف بينهما ونقله إلى القراء وإعلانه للجميع بعد أن كان مجرد آراء شخصية أكبر دليل على إنعدام مثل هذه الحدود ولما اختلفا وتباينت وجهة النظر بينهما لأن هذا الخلاف قد نشأ بدون شك من محاولة خلق شيء غير طبيعي لا وجود له وكل منهما أراد أن تكون صورة هذا الكائن الصناعي حسب ما يشاء وبود لا حسب ما تشاء الطبيعة والواقع.

وأخيراً يحق لنا أن نتساءل عما إذا كان لهذه الآراء التي كشف عنها كل من الأستاذ ايفنز بريتشرد والأستاذ كندى شو فيما كتباه ونشراه من أثر في توجيه سياسة الإدارتين البريطانيتين لبرقة وطرابلس بخصوص هذا الموضوع بحكم ما كان يشغله كل منهما من منصب في هاتين الإدارتين في ذلك الوقت. لا شك أن سير الحوادث المتتابعة فيما بعد تدفع الإنسان إلى التسليم بأثر هذه الآراء ومفعولها في سياسة الإدارتين المسئولتين عن البلاد قبل إعلان استقلالها .

نعود مرة ثانية لأهم النقاط الأخرى التي استند إليها بعض الكتاب ومن بينهم الأستاذ ايفنز بريتشرد للفصل بين برقة وطرابلس وأهمها القول بالاختلاف التاريخي للأقليمين أو على حد تعبيرهم بالضبط أن طرابلس قد خضعت للفينيقيين فقرطاجة في الوقت الذي كان فيه الإغريق يحكمون برقة وأن الأولى كانت تلحق بأفريقية في الوقت الذي كانت فيه الثانية تكون ولاية رومانية أحياناً مع مصر وأحياناً مع جزيرة كريت وأن الغلبة للعنصر العربي في برقة بعكس الحال في طرابلس حيث نجد العنصر البربري يسود سكان البلاد وأن عرب برقة معظمهم من قبائل بني سليم وعرب طرابلس أغلبهم من بني هلال وأن سكان الأجزاء الشمالية من لوبيا يرجعون في أصولهم إلى سلالة البحر الأبيض أما سكان فزان فيرجعون إلى السلالة الإثيوبية .

وهكذا من الأدلة التاريخية المبعثرة التي يمكن أن يأخذ بها الإنسان إذا قرأها قراءة سريعة دون فحص أو تحليل أو دون المام بحالة البلاد من الوجهة التاريخية والجغرافية بصفة عامة .

وعلى العموم أن حجج السياسة الانفصالية وإن سلمنا بصحتها لا تصلح أن تكون تأييداً للفصل بين جزئى الأمة لأنها تمثل الحالات الشاذة التي مرت بها البلاد والتي لا يخلو منها تاريخ بلد ما . وماذا يكون الأمر إذا ثبت عكسها وأتت الأدلة بنقيضها ، فهذا الأستاذ فيشر W. B. Fisher فى كتابه « الشرق الأوسط » (١) قد خص برقة وحدها بالكلام على أنها جزء منه بعد أن تكلم عن مصر . وهو فى تحديده لمعنى الاصطلاح الجغرافى « الشرق الأوسط » فى مقدمة كتابه قد فصل بين برقة وبقية البلاد ونظر إليها على أنها جزء من مصر فألحقها بها وجعل منها حداً غربياً لإقليم الشرق الأوسط . أما ما هى الأدلة التى استند إليها فى رأيه هذا وما مدى ما تحويه من صحة فهذا ما يمكن أن نصل إليه إذا عرفنا أنه قد لاحظ أن الصحراء الغربية لمصر تمتد حتى برقة دون أى تمييز ظاهر فى الوقت الذى يرى فيه أن هناك حداً بين لوبيا الشرقية ولوبيا الغربية متمثلاً فى منطقة اجداية واستدل على ذلك فى هامش كتابه بأن القوات البريطانية فى تقدمها من مصر غرباً قد وصلت إلى منطقة اجداية حيث وقفت بها الحدود الطبيعية هناك . ثم أنه يرى أن الروابط الاجتماعية والاقتصادية التى تربط برقة بمصر أكثر مما هى عليه فيما بين برقة وطرابلس لأن ماشية برقة تجسّد أسواقها فى مصر ونادراً ما تذهب بها إلى أسواق طرابلس ثم لا ينس الأستاذ فيشر أن يذكر لنا فى تعليقاته لهذه التفرقة أن برقة يسودها الدم العربى أكثر مما هو عليه فى طرابلس حيث الغلبة للجنس الحامى والعنصر

البربرى . ولا ندرى ما علاقة هذا بتحديد البلاد التى تدخل فى اصطلاحه الجغرافى «الشرق الأوسط» . وأخيراً اتخذ إلى جانب هذه المبررات السابقة لتدعيم رأيه الجغرافى فى تحديده للشرق الأوسط تعليلاً تاريخياً آخر وهو أن معظم الغزوات التى تعرضت لها برقة قد أتت إليها من الشرق .

أما أن يختلف العلماء الجغرافيون فى تحديد معنى الاصطلاحات العالية وفى تحديد مناطق الشرق وغيره فهذا ما نسلم به لأنه شئ نسبى يختلف باختلاف الأشخاص ومواقع البلاد فما هو شرق بالنسبة للوبيا هو فى نفس الوقت غرب لغيرها وهكذا . وأما أن يتخذ الأستاذ فشر هذه التعليقات الضعيفة للبرهنة على فصل البلاد جغرافياً بين أجزائها فهذا ما يمكن الرد عليه .

من المسلم به إلى حد كبير أن طبيعة البلاد فيما بين الصحراء الغربية المصرية وبرقة ليست بظاهرة المعالم والحدود وقد سبقه إلى القول به بعض الرحالة والكتّاب الأقدمين حتى أن بعضهم وعلى رأسهم الرحالة العبدرى قد نظر إلى مدينة الاسكندرية فى رحلته المشهورة على أنها بداية لبلاد المغرب وبمراجعة ما كتبه غيره بهذا الخصوص فى بعض هواش هذا الكتاب يتضح لنا أن هذا رأى سابق قد أخذ به بعض من تعرض لوصف بلاد الشمال الافريقى . وأما كون الحدود أوضح بين برقة وطرابلس منها فيما بين برقة ومصر فهذا غير صحيح وإن استدلل الأستاذ فشر على ذلك بوقوف الجيش البریطانى فى تقدمه من مصر غرباً عند منطقة اجداية لأن ذلك التوقف لم يحدث لأن الجيش وجد عوامل جغرافية عاقت مواصلة تقدمه إلى طرابلس بل حدث ذلك لعوامل أخرى كان فى مقدمتها تلك الخطة الحربية التى رسمتها القيادة العامة وما حدث من تطور حربى فى ميدان البلقان استدعى نجدة الجيش البریطانى لحلفائه اليونان فى حربهم ضد الغزو المحورى وما ترتب على ذلك من عجز فى قوات الحلفاء فى الشرق الأوسط

وتوقف العمليات في هذه الجهة عند اجداية وسفر الجنرال ولسن قائد الهجوم البريطاني الأول في نجدة إلى بلاد اليونان . وإذا كان الجيش البريطاني في تقدمه قد وجد عوامل جغرافية وقفت به عند اجداية لكان تقهقره لم يتم بتلك الصورة السريعة وبتلك السهولة التامة لأنه كان في امكانه أن يتخذ من هذه العوامل خير معين له على صد أى هجوم مضاد يقوم به العدو ولاستطاع بهذه العوامل الجغرافية أن يصمد أمام هجوم العدو لمدة أطول حتى تصله الامدادات اللازمة ولكن رجال السياسة ونظرياتهم الخاصة هي التي دفعت إلى القول بهذه العوامل الجغرافية الفاصلة بزعمهم بين الإقليمين وزادت في تصويرها حتى تصوروا القادة العسكريون وغيرهم على أنها شيء كبير يحسب له حساب . وكم من مرة تورط العسكريون في أخطاء حربية بسبب ما يبيده رجال السياسة من آراء وهم الذين ييدهم دفة تسيير الأمور ولا يكفي أن يفتح مؤرخ أو سياسى خريطة فيحكم إذا رأى بعض الجبال أو المستنقعات بوجود فاصل جغرافي . وعلى العموم ليس هنا محل مناقشة هذه العمليات الحربية التي حدثت في لوبيا وكيف حدثت وكيف أدار دفتها القادة العسكريون على أساس ما قدمه لهم رجال السياسة المسيرون لدفة الأمور في ذلك الوقت .

وإذا كان الأستاذ فشر قد رأى في كتابه هذا أن الروابط الاجتماعية والاقتصادية بين مصر وبرقة قوية حتى إنه الحق برقة بالشرق الأوسط على أنها تكون الحدود الغربية لمصر فقد يكون الأمر كذلك ولكن هي في حد ذاتها ليست بأقوى وأمتن مما هي عليه بين برقة وبقية لوبيا . وأما أن حيوانات برقة تجد أسواقها في مصر لا في طرابلس فهذا لا يعنى الفصل بينهما لأن طرابلس كذلك تشترك مع برقة في هذه الناحية ولها من ثروتها الحيوانية الخاصة بها ما يدفعها إلى التصدير الخارجى لا الاستيراد ويزيد

فى هذا وضوحاً إذا علمنا أن معظم الحيوانات التى تصدر من برقة فى الأعوام الأخيرة كان أغلبها قد جلب من طرابلس عامة ومن منطقة سرت بالذات والزائر لهذه المنطقة فى فصل الربيع يرى أفواجا من التجار وهم يشترون الأغنام ويرحلونها إلى برقة برأ لتصديرها من هناك إلى مصر وطبيعى أن تمر هذه الأغنام الطرابلسية ببرقة وهى فى طريقها إلى مصر وطبيعى أن يحسبها الأستاذ فشر وغيره على أنها من إنتاج برقة وحدها دون محاولة التعمق فى الاستقصاء مكثفياً بالإحصائيات الرسمية والكشوف الجركية. أما مسألة السكان ومدى ما يسودهم من دم عربى أو غيره فهذه نقطة سيأتى تحليلها فيما بعد عند التعرض لبقية آراء الكتّاب . وأما القول بأن معظم هذه الغزوات التى تعرضت لها برقة قد أتت من الشرق فيكفى الرد على ذلك بأن معظم هذه الغزوات التى يعنينا قد تعرضت لها طرابلس كذلك الأمر الذى لا يستدعى هذه التفرقة بينهما . هذا إذا أغفلنا من حسابنا تلك الغزوات أو الموجات التى أتت من الغرب والتى ربطت بين الطرفين وأهمها الغزو الفاطمى .

أما الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية أستاذ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية والذى قام برحلة فى برقة فى صيف سنة ١٩٤٥ والذى كتب عن رحلته هذه فى مجلة الكاتب المصرى فقد كان مؤيداً لفكرة الفصل بين الإقليمين وذهب إلى أبعد من هذا بالدعوة إليها كما يفهم مما كتبه ويمكننا أن نرى فكرته هذه بوضوح فى الفقرتين التاليتين مما كتبه :

١ — « وفى سنة ٢٩٧م عند ما قسم دقلديانوس الامبراطورية الرومانية إلى قسميها الشرقى والغربى تذهب برقة مع مصر إلى القسم الشرقى البيزنطى وتبقى فى حكم أباطرة القسطنطينية إلى أن تدخلها جمحافل العرب الظافرة بقيادة عمرو بن العاص فى سنة ٦٤٢م، (١)

ب - وخطأ آخر شائع بين الناس ألا وهو إعتبار برقة جزءاً من طرابلس بقدر ما هي في نظرهم جزء من الصحراء اللوية وما هذا إلا نوع من الشطط الذي كانت تمليه الدعاية السياسية والظروف الاستعمارية القاسية التي ربطت حتف برقة بطرابلس أيام الحكم الإيطالي . ولكن جغرافية برقة تختلف كل الاختلاف عن جغرافية طرابلس كما أن تاريخ برقة غير تاريخ طرابلس وقبائل برقة غير قبائل طرابلس فهم أنقى عنصراً في عروبتهم من اعراب طرابلس وأشد تمسكاً ببلادهم من غيرهم ولتتهم أقرب اللهجات إلى اللغة العربية الفصحى القديمة، (١)

أما عن النقطة الأولى فيكفي الرد عليها أن نعرف أن القوائد البيزنطي بلزاريوس قد قام في عهد الامبراطور جستنيان باستعادة لوبيا وبقية الشمال الافريقي من الوندال . وقد وحد بين اقليمى برقة وطرابلس في ولاية رومانية واحدة فلم يدم ذلك التقسيم الذي وضعه دقلديانوس بين الاقليمين (٢) . ومن هذا يتضح لنا أن ذلك التقسيم كان لفترة قصيرة اقتضتها ظروف الامبراطورية لا مصلحة البلاد اللوية وأهلها اللوبيون .

وأما عن النقطة الثانية وما حوته من عناصر تصلح في رأيه أن تكون أساساً للتقسمة بين الاقليمين فقد سبق مناقشتها ومع كل فإن مثل هذه العناصر قل أن يخلو منها أى بلد آخر ولكن كيف تحقق الأستاذ من هذه الأدلة وهو في رحلته المذكورة لم يتعد بلدة اجداية الواقعة إلى الغرب من مدينة بنغازي مما يجعلنا نرجح استقاء آرائه هذه لا عن طريق المشاهدة بل عن طريق النقل من مصادر أخرى هي بعينها كانت تدعو إلى هذا الفصل وكان على الأستاذ أن يتحقق شخصياً من هذه الأدلة الجغرافية التي قال بها .

* * *

* * *

* * *

ونحن إذا نظرنا إلى خريطة لوبيا الطبيعية لا نجد من المظاهر الطبيعية كالبحار والأنهار والجبال ما يصلح لأن يكون حداً طبيعياً بين هذه الأجزاء الثلاثة . هذا الاتصال الطبيعي هو الذى جعل بعض الجغرافيين والمؤرخين القدامى يختلفون في تحديد كل إقليم ويخلطون بينه وبين الآخر . فهذا المؤرخ سالستوس (١) Salustius عندما يورخ للنزاع الذى قام بين قورينا Cyrene وقرطاجنة Carthage يقول بوجود سهل رملى على الحدود بين الاقليمين ذى سطح متشابه خال من المعالم وليس به جبل أو نهر حتى يمكن بواسطته رسم حدود هاتين المملكتين (٢) . وهذا ياقوت الحموى فى معجم البلدان عندما يتكلم عن طرابلس يقول بأنها مدينة فى آخر أرض برقة وأول أرض افريقية . وهكذا يجعل ياقوت برقة تمتد غرباً حتى مدينة طرابلس . وهذا ابن رسته فى كتابه «العلاقات النفيسة» عند كلامه عن سرت يعتبر تسورغة حد برقة الغربى (٣) . وهذا أبو الفدا فى كتابه تقويم البلدان يتخذ من قصر أحمد ميناء مسراته المعروف حداً غربياً لبرقة (٤) وبالمثل القلقشندى (٥) فى

(١) كايوس سالوستوس . مؤرخ روماني ولد سنة ٨٦ ق . م ومات فى سنة ٣٦ ق . م
ولى عضوية مجلس الشيوخ ولكنه اخرج منه لاستهتاره وعاش شبه منفي الى أن رده قيصر الى روما وولاه ولاية لوبيا وقد حكم فيها اسوأ حكم وقد جمع لنفسه ثروة طائلة عاد بها الى روما .
F.W. Beechy & H.W. Beechy: Proceedings of the expedition

to explore the Northern Coast of Africa from Tripoli Eastward,
P, P. 218, 219,

(٣) ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر) : — العلاقات النفيسة . طبعة ليدن سنة ١٨٩١ ، ص ٣٤٤ : «وأهل مدينة سرت . . . وآخر منازلهم على مرحلتين من مدينة سرت بموضع يقال له تورغة وهو آخر حد برقة» ثم يكرر هذا المعنى فى ص ٣٤٦ عند كلامه عن فزان فيقول «ومن آخر عمل برقة من الموضع الذى يقال له تورغة الى طرابلس ست مراحل» .

(٤) أبو الفدا (المؤيد أبو الفدا اسماعيل صاحب حماة توفى سنة ٧٣٢ هـ) : تقويم البلدان . طبعة الجزائر سنة ١٨٣٩ (عن ابن سعيد وقصر أحمد آخر حد افريقية من جهة الشرق وأول حد برقة . . .)

(٥) القلقشندى (أبو العباس أحمد) : — صبح الاعشى فى صناعة الانشا . طبعة دار الكتب ١٩١٥ م . ج ٥ ص ١٠٥ «ومنها قصر أحمد . . . قال ابن سعيد وهو حد افريقية من الشرق وحد برقة من الغرب . . .»

موسوعته . وهذا ليون الافريقى يصف المنطقة الممتدة من بلدة مسراته الى مدينة الاسكندرية تحت عنوان برقة (١) ويصفها على أنها منطقة واحدة متشابهة فكأنه قد جعل من مسراته حداً غربياً لها وبالمثل الرحالة الانجليزى بيتشى وزميله اللذان قاما ، حلة علمية جغرافية من مدينة طرابلس الى مدينة درنة (١٨٢١ — ١٨٢٢ م) ايام ولاية يوسف باشا القره مانلى اذ إنهما يشاركان ليون الافريقى فى هذا التحديد .

اختلف هؤلاء المؤرخون والرحالة فى تعيين الحدود بين هذين الاقليمين لأن الطبيعة وحدث بينهما وجعلت من الصعب القول بما قال به الاستاذ فشر وغيره . ونحن إذا نظرنا إلى خريطة الساحل اللوى لاحظنا خلوه من الحاجبان الفرعية والتعريجات التى تصلح أن تكون اساساً لاتخاذها نقطة للفصل بين ساحلى الاقليمين بل أن خليج سرت بشكله المقوس المستقيم يربط بين مسراته ونغازى بنهايته .

ومن المسلم به بين علماء الاجناس أن الاساس الجنسى لكل من برقة وطرابلس يقوم على سلالة البحر الأبيض المتوسط المعروفة باللويين قديماً وبالبربر عند العرب فيما بعد ولكن هؤلاء اللويين كانوا من الرحل الذين لا يستقرون فى منطقة معينة بالذات ولهذا سهل عليهم كثيراً الاندماج فيما بينهم وبمراجعة ما كتبه ديودور الصقلى عن بعض قبائلهم نجد أنه يؤيد ما جاء بنحوها فى كتاب هيرودوت (٢) بل وكثيراً ما كانت تمتد القبيلة الواحدة من

(١) ليون الافريقى هو الحسن بن محمد الوزان . ولد فى غرناطة من ابوين مغربيين مسلمين فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . اعتنق المسيحية بعد أن اسره المسيحيون والحقوه ببلاد البابا فى روما . له تأليف خاص بوصف شمال افريقية .

المنطقة التي قامت فيها مدينة قورينا إلى خليج سرت الكبير بل وأحياناً إلى خليج سرت الصغير وهو المعروف بخليج قابس حالياً . ومن هذه القبائل الواسعة الانتشار في ذلك الوقت والتي امتدت بطول ساحل البلاد قبيلة النازامونس Nasamones وقبيلة اوسكيساى Auschisae وقبيلة المارماريداى Marmaridae وقبيلة المكاي Macae^(١) . وبدراسة الخريط التي نشرها الاستاذ Oric Bates^(٢) في كتابه بخصوص توزيع اللوبيين الشرقيين وهم أولئك الذين كانوا يشغلون ما يعرف الآن ببرقه وطرابلس ، في مختلف العصور وحسب ما جاء ذكره في كتب الأقدمين يتبين لنا أنه كان هناك اختلاط كبير بينها نتج عن تغيير الكثير منها لآما كن الإقامة بمرور الزمن وتتابع الحوادث . وكان من المعتقد قديماً أن قبائل الجرمانت Garamant صاحبة الحضارة الراقية المعروفة في تاريخ ليبيا قديماً والتي كانت تسكن في إقليم فزان في العصور القديمة ترجع في أصولها إلى السلالة الاثيوبية مما يدعو إلى فصلها عن السكان الشماليين للسواحل من ناحية الجنس ولكن النتيجة الأخيرة التي وصلت إليها إحدى البعثات الإيطالية لدراسة الناحية الجيولوجية والبشرية لمنطقة فزان أثبتت عدم صحة هذا الرأي بعد زيارة وادي الاجال Wadi al - Agial بفزان وفحص مقابره العديدة وأرجعت أصولها الجنسية إلى سلالة البحر الأبيض مستدلة على ذلك بالحضارة الراقية التي كانت عليها القبائل الجرمنتية والتي لا بد انها قد وصات مع أهلها من الشمال^(٣) . وهكذا كانت وحدة الجنس في أساسها صالحة فيما بعد لأن تكون منسجمة أمام ما جد من تطور في الجغرافية البشرية لهذه البلاد وعدم اختلال التوازن الجنسي بين سكان هذه الأقاليم الثلاثة لما جد من

David Randell-Maciver: Libyan Notes, London 1901 — ١

©. Ric Bates: The Eastern Libyans, London, 1914 — ٢

D. E. L. Haynes: A short Historical and Archaeological introduction to Ancient Tripolitania, P. 16. — ٣

فتوح وغزوات كان لها أثرها الطبيعي في تكوين الشعب اللوبي بصفة عامة فيما بعد .

أما اختلاف الوضع السياسي لبرقة وطرابلس في عهد الاغريق والفينيقيين فهذا صحيح إذا أخذنا به على علاقاته دون بحث أو تحقيق ولكن إذا حللنا الأسباب التي دعت إلى هذا الفصل تبين لنا عدم صحة هذا الأساس الذي بني عليه هذا الرأي . لقد اضطّر الفينيقيون إلى هجر الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط أمام نشاط الاغريق وتحفزهم وعدوانهم البحري ولم يجد الفينيقيون طريقة للمحافظة على تجارتهم التي بها يعيشون والتي لا يمكن لها الازدهار أمام خطر التهديد الذي شنه عليهم الاغريق إلا باللجوء إلى الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط وكان حظهم أن أتوا ساحل اقليم طرابلس وشيدوا مدنهم الثلاث هناك . ولا شك أن الفينيقيين لا بد أنهم فكروا في ساحل اقليم برقة قبل وصولهم إلى الساحل الغربي بحكم قربهم إلى موطنهم الأصلي وبحكم الطريقة التي كانوا يتبعونها في اسفارهم البحرية وهي السير بمحاذاة السواحل وتجنب الايغال في الجهات البحرية الداخلية بحكم طبيعة السفن التي استعملوها في اسفارهم هذه وعدم استطاعتها مقاومة الأمواج وحتى لا يكونوا عرضة لاعتداء الغير عليهم والالتجاء إلى الشاطئ . أمام كل خطر يفاجئهم . ولكنهم رأوا في النزوح إلى ساحل برقة ما يعرضهم لخطر الاغريق مباشرة بشكل أفتطع نظراً لمواجهة برقة لبلاد اليونان مباشرة وهم الذين تركوا لهم شرقي البحر الأبيض حيث تطل فينيقيا الوطن الأصلي لهم حتى لا يواجهوهم مباشرة ولهذا اضطّر الفينيقيون إلى التخلي عن ساحل برقة ولجأوا إلى ساحل طرابلس واكتفوا به ما دام في ذلك ما يضمن لهم استمرار موردتهم التجاري دون نظر لأي اعتبار آخر ولو كان الفينيقيون من الشعوب التي

بنت أساسها الاستعماري على الإقامة والتوطن كما هي الحال عند الاغريق لاعادوا النظر في كيفية اقامتهم في الشطر الشرقي بمحاولة ضم برقة إليهم حتى يتم لهم الاستيلاء على البلاد وتأمين حدودها . وهكذا لم يكن التخلي من الفينيقيين معناه التسليم بالتقسيم ولكن الظروف الغير ملائمة لهم هي التي اجبرتهم على هذه السياسة . ومع كل هذا فقد بدأ الفينيقيون وقد اشعرتهم الحاجة الملحة بذلك إلى الزحف شرقاً بطول ساحل لوبيا وأخذوا يقتربون شيئاً فشيئاً من اقليم برقة وما اقامتهم لخطه كاراكس Carax « المكان المعروف بسلطان إلى الشرق من بلدة سرت (١) » كمرکز من المراكز التجارية على ساحل البحر الأبيض المتوسط لإدليل على هذا الاتجاه منهم . على أنه إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للفينيقيين فإن الاغريق بعد أن جاءوا إلى برقة مستوطنين قد حاولوا ضم طرابلس إلى برقة والتوحيد بينهما لأن سياسة الاغريق كانت سياسة استقرارية وسياسة الاستقرار تدفع إلى مثل هذا التفكير لضمان عناصره ولذلك فالتاريخ يحددنا بأن دور يوس Dorius أمير سبرطه قد نزل بفريق من اتباعه عند مصب وادي كعام إلى الغرب بقليل من بلدة ظليتين وهناك أسس مستعمرة اغريقية باسم سينيبس (٢) Cynips قدر لها أن تعيش فترة من الزمن كانت كافية لأن تكون نواة فيما بعد لزحف الاغريق إلى طرابلس والتوحيد بينها وبين برقة في السيادة الاغريقية ولكن قرطاجة وهي التي هجر مؤسسوها شرق البحر الأبيض أمام الخطر الاغريقي لم تقف ساكنة أمام هذا الخطر الزاحف نحوها بل عملت على طرد الإغريق من هذا الجزء والقضاء على مستعمرتهم الناشئة .

Haynes : A Short Historical and Archaeological introduction - 1
to Ancient Tripolitania, P. 20

هذه ولا شك محاولة إيجابية قام بها الإغريق للتوحيد بين الإقليمين من ناحية التبعية السياسية وإن كان النجاح لم يكن حليفاً لها فعلى العموم تصالح أن تكون نواة لحركة أقوى وأكثر وضوحاً فيما بعد . يتبين لنا ذلك عندما نرى البطالسة ملوك مصر وقد بسطوا سيادتهم على برقة أخذوا يزحزون حدودهم إلى الغرب حتى وصلوا بها إلى سرت ثم قام والى قورينا من قبلهم وهو المسمى أفلاس Ophellas بحركة جريئة كان الغرض منها ضم طرابلس إلى برقة عندما تعهد بمساعدة اجاثوكليس الاغريقى طاغية سيراكوز بصقلية فى حربه مع قرطاجة على أن تطلق يده فى لوبيا الغربية فى حالة النجاح . وبدأ فعلا افلاس Ophellas فى تنفيذ خطته وسار بجيشه عبر الساحل الطرابلسى إلى قرطاجة وإن كانت هذه المحاولة الجريئة التى قام بها إغريق برقة لضم طرابلس لم يقدر لها النجاح فى هذه المرة كذلك فإن هذا لا ينفى محاولة توحيد الإقليمين واخضاعهما لسلطة واحدة عليهما إذ أن عدم التمسك بتحقيق شروط هذه الاتفاقية وروح الخيانة بين الحليفين هى التى وقفت دون تحقيقها .

ولما فشلت محاولات التوحيد التى قام بها الاغريق واستقر كل فريق فى إقليمه رأينا المنازعات والمشاكل بدأت تقوم بين الإقليمين وكان معظمها يدور على الحدود بينهما لعدم وضوحها ووجود ما يصلح أن يكون حداً فاصلاً بين الإقليمين . وسرعان ما اتخذت هذه المنازعات شكل الحروب المنظمة والتاريخ يحدثنا بأن الحرب قامت بين قورينا وقرطاجة من أجل هذه الحدود عندما كانت قورينا تزعم المدن الخمس Pentapolis باقليم برقة وعندما كانت قرطاجة تبسط سيادتها على اقليم طرابلس . وهكذا كان فى شطر هذه البلاد فى ذلك الوقت مدعاة للحرب والمنازعات وقد روى لنا التاريخ كيف انتهت تلك الحرب بين الطرفين بقصة التحكيم وتضحية الأخوين فليانى Phileani من أهالى قرطاجة وإقامة مشهد تذكارى لها فى المكان المعروف الآن بالقوس . ولاشك أن

الرضا بهذا الحد الصناعي وكيفية الوصول إليه لم يكن كذلك إلا خوفاً من تجدد الحرب بينهما وإفناء قوتيهما وتعريضهما للفناء أمام خصم جديد أخذ يظهر للوجود متمثلاً في روما وقوتها العظيمة وإلا ما كانت هذه الحدود الصناعية تصلح أن تكون حدوداً وافية بالفرض الذي أقيمت من أجله بل هي أقرب لأن تكون حدوداً إدارية كما هو متبع في سائر الممالك الأخرى مهما صغرت مساحتها . وليس أدل على هذا القول من نشاط تجارة التهريب بين الإقليمين عندما فصلا عن بعضهما بعد هذه الاتفاقية وبعد ظهور هذا الحد الصناعي وكيف لعب مركز «كارا كس» Carax في ذلك الوقت والمعروف الآن «بسلطان» دوراً هاماً في هذه التجارة وكيف نشطت حركة التهريب بين الإقليمين خصوصاً فيما يختص بتجارة نبات السلفيم^(١) Silphium الذي كانت تلتججه برقة وتصدره للخارج وعصير العنب الذي كانت تلتججه مدن طرابلس الساحلية بكثرة . ولا شك أنه في إقامة مثل هذه الحدود الصناعية لإعادة لحركة التهريب على أشد ما يكون ودفع الناس على ارتكاب الجرائم باختراقهم للقوانين التي توضع لحماية مثل هذه الحدود الصناعية . وفي ذلك ما فيه من تدهور للقيم الأخلاقية وإتاحة الفرصة لخلق المشاكل في سبيل إرضاء نظريات لا تقوم على أساس من الصحة ولنا في الأعوام الأخيرة في عهد الإدارة البريطانية وقبل إعلان استقلال البلاد ما يثبت لنا هذه الحالة الخطيرة إذا قمنا بدراسة منظمة لما كانت عليه

١ — جاء بخصوصه في معجم الدكتور محمد شرف (معجم انجليزى عربى في العلوم الطبية والطبيعية .) المطبعة الأميرية سنة ١٩٢٨ الطبعة الثانية ص ٨٢٦ — ٨٢٧ ماأتى : — Silphium = انجدان . قجندان . عود الرقة . محروث «أ.ب» وثانفيا . والسلفيون من الفصيلة الخيمية Thapsia Silphium, Viviani وسمى كذلك Silphium لاحتوائه على سائل راينيجى اشتهر عند القدماء بنفعه لستين مرضاً باطنياً وظاهرياً (Pliny) ورسم على تقديره cytene موطنه — وسمته اليونان Silphium من Silphi اسمه الافريقى وسمته الرومان Laserpitium

الحركة التجارية بين الاقليمين فكيف يكون الحال إذا أقيمت حدود معينة يصعب تخطيها إلا بإذن خاص يخضع لمختلف الظروف والأحوال . لا شك أن الحياة الاقتصادية للبلاد ستصاب بشكل قوى يعوق تقدمها كما أعاقها بعض الشيء قديماً أيام أن كان الاغريق في برقة والقرطاجنيون في طرابلس وبعد أن أقاموا تلك الحدود الصناعية بينهما ولكن وجه الخطورة أشد في العصر الحديث لما جد من تطور كبير في وسائل الحياة المختلفة ومطالبها .

ومالنا نذهب بعيداً فلنترك العهد الاغريقي الفينيقي جانبا لنرى البلاد وقد جاءها العرب فاتحين مبشرين بالدين الاسلامي ٢٢ هـ . جاءت الجيوش العربية ففتحت برقة وتقدمت منها إلى طرابلس فاستولت عليها وفي أثناء ذلك كان بعض الجند يتوغلون جنوباً إلى « زويلة » وفزان ولم تذكر لنا المصادر التاريخية أن عمرو بن العاص قد استأذن الخليفة في فتح طرابلس وفزان بعد استيلائه على برقة ولكنها تذكر لنا وتؤكد أن عمرو بن العاص أراد أن يتابع فتوحاته غرباً بعد طرابلس بالاستيلاء على افريقية لولا معارضة الخليفة لذلك على أثر ما دار بينهما من مكاتبة في هذا الخصوص . ومعنى هذا أن عمرو ابن العاص في فتحه لطرابلس وفزان بعد الاستيلاء على برقة لم يفعل أكثر من اتمام فتح هذه البلاد التي بدت له وحدتها منذ ذلك التاريخ حتى إذا ما أتم فتحها وأراد الانتقال إلى غيرها شعر بضرورة تخطي حدود لوبيا الغربية وبالتالي ضرورة استئذان الخليفة في المدينة قبل الاقدام على هذا العمل . هكذا كان هذا التوحيد في الفتح العربي نتيجة طبيعية لوحدة البلاد التي أدركها القائد العربي منذ ذلك التاريخ ومقدمة لاحداث أخرى متتابعة ربطت بين الاقاليم الثلاثة وجعلتها أقرب ما تكون لبعضها من البلاد المجاورة لها .

على أن موجة الفتح العربي التي ربطت بين الاجزاء الثلاثة سرعان ما تلتها موجات أخرى عربية كان لها أثر كبير في تدعيم هذه الوحدة الجنسية ومع

ما لاقليم فزان من موقع جانبي بالنسبة لموجات القبائل العربية وهي في طريقها الى الغرب إلا أن الملاحظ أن الدم العربي يسود القبائل الفزانية بل ويسود في كثير من واحاتها النسب النبوى الشريف ولاشك أن هذا الأثر لم يصل إلى ميزان مباشرة إلا عن طريق برقة وطرابلس كبقية المؤثرات السابقة التي أتت من الشمال ومن أظهرها وصول المسيحية الى فزان في العهد الرومانى .

وكان من أهم الموجات العربية التي أثرت في لوبيا هجرة بنى هلال وبنى سليم وقد أراد بعض الكتاب أن يتخذوا من استيطان معظم قبائل بنى سليم في برقة وغالبية بنى هلال في طرابلس وتونس (١) مدعاة لاثبات اختلاف التكوين القبلى لكل من الاقليمين ولكن فاتهم أن هذه القبائل جميعها عربية وإن اختلفت في التسمية ولهذا يستبعد اختلاف تأثيرها خصوصاً وأنها تتحد في الأصل انقبلى وظروف مجيئها الى البلاد اذ المعروف أن بنى سليم وبنى هلال يتحدثون في الأصل بانتماثلهم إلى مضر من بادية نجد ولو كان بنو سليم من عرب شمالى الجزيرة وبنو هلال من عرب الجنوب لكان من الممكن التماس الاسباب لهذا الزعم ولكنهم جميعاً من أصل واحد وموطن واحد . وطبيعى جداً أن يكون في برقة شيء من الوضوح في الدم العربى بحكم موقعها بالنسبة للجيشوش الغازية والقبائل الوافدة ولكن ليس معنى هذا أن نهول في هذا الأثر حتى تكون هناك فجوة بين سكان البلاد اذ أن هذه الجيشوش الغازية والقبائل الوافدة قد وجدت أمامها في برقة سكاناً أصليين والتاريخ لم يذكر لنا انقراضهم إلا اذا كان من طبيعة العرب الفاتحين المبشرين بالدين الاسلامى هو القضاء على فايصادفهم من شعوب وهذا ما لم يحدث وما يتنافى ومهمة التبشير بالدين الاسلامى الجديد .

وعلى العموم اذا كان هناك ما جعل طرابلس تحتفظ ببقية من العنصر البربرى بين سكانها حتى يومنا هذا فليس معنى ذلك استغلال قيام هذه البقية لابقاع الفرقة بين اقاليم البلاد وأظهار الوحدة بينها على أنها شيء محال اذ قل أن يخلو أى قطر فى العالم من مثل هذه الحالة وغيرها ولنا فى مصر أسوة حسنة اذا درسنا جغرافيتها الجسدية فديرية الشرقية فيها تمثل الباب الشرقى لها كما تقوم بهذه المهمة منطقة برقة لبقية اجزاء البلاد وعن طريق هذا الباب الشرقى دخلت الجيوش مصر فاتحة غازية مرة بعد أخرى من أيام الهكوس حتى الفتح العثمانى على يد السلطان سليم الأول ومن هذا الباب أيضا دخل عمرو بن العاص بجيشه كما تابعت من بعده الجيوش العربية والقبائل العربية الزاحفة فى طريقها إلى الشمال الافريقى ولهذا كان من الطبيعى أن نجد الدم العربى هناك أكثر بكثير من بقية الاجزاء المصرية الأخرى ولكن مع هذا لم يقل أحد بالحقاق شبه جزيرة سيناء مثلاً أو مديرية الشرقية بشبه جزيرة بلاد العرب بناء على ما بينهما من تقارب فى التكوين الجسمى .

على أن هذه الموجات العربية التى أتت من الشرق وربطت بين اجزاء البلاد سرعان ما تبعتها موجات أخرى وفدت من الاتجاه الغربى وكانت فى اتجاهها هذا بمثابة رد فعل للتوسع العربى وانتشار عنصره فى الشمال الافريقى ومنه إلى الاندلس وكانت هذه الموجات الوافدة من الغرب أكبر عامل فى زيادة هذه الرابطة الدموية وليس أدل على هذا من ظهور مدينة بنغازى للوجود مرة أخرى بعد أن اختفت كمدينة قائمة بذاتها على أثر الفتح العربى واختفاء المجتمع الاغريقى الرومانى أمام العرب الزاحفين وظلت كذلك مهجورة حتى القرن الخامس عشر الميلادى عندما عادت إليها الحياة من جديد بوفود الجماعات إليها من مهاجرى وتجار مدن الساحل الطرابلسى وكان من بينهم اولئك الذين اتوا من مدينة مسراته وقد تزايد عددهم على مر الأيام

حتى أصبحنا في يومنا هذا نرى فيها أحياء مأهولة ممثلة للقرى المسراتية في موطنها الأصلي الذي نزحت منه وأصبح في مدينة بنغازى شوارع تحمل اسماء قرى معروفة في مدينة مسراته فهذا شارع « قزير » وذلك شارع قصر أحمد وهكذا . وكلها اسماء لقرى مازالت قائمة عامرة بأهلها في مسراته قد نزح بعض أفرادها إلى بنغازى حاملين معهم طابعهم الخاص فأحيوا مدينة برنيق من جديد تحت اسم بنغازى حتى أصبح من المعروف بين سكان البادية أن كلمة « مسراتى » معناها ذلك الذى يسكن مدينة بنغازى .

وهذه مدينة درنة ثانية مدن برقة أهمية وقد كان حظها أحسن حالا من شقيقتها بنغازى بعد مجيء العرب اذ أنها لم تندثر كما حدث لبنغازى بل ظلت محتفظة بالحياة فيها طيلة الفترة العربية ولكن حياتها جددت كذلك على أثر هجرة الكثير إليها من تجار ومستوطنى مسراته وغيرها كما حدث تماماً لبنغازى فى القرن الخامس عشر الميلادى . واذا عرفنا أن أهلها الحاليين ينقسمون إلى « تواجير » نسبة إلى بلدة تاجوراء الواقعة الى الشرق من مدينة طرابلس وإلى مساراته نسبة الى مسراته وإلى ظليتين نسبة إلى بلدة ظليتين وإلى قول أوغلية نسبة إلى ابناء الفرق الانكشارية ادركنا النسبة العالية التى ساهمت بها بعض مدن الساحل الطرابلسى فى تكوين سكان مدينة درنة وازدهار حياتها الاجتماعية . وبهذا الشكل فيما يختص ببقية مدن برقة كتوكره والمرج وطبرق وغيرها ومازال هؤلاء النازحون على اتصال وثيق بأهلهم وذويهم فى المدن الطرابلسية والعكس بالعكس .

ولم يقتصر هذا التبادل على سكان المدن وحدها بل تعدى ذلك إلى سكان البادية والقبائل المنتشرة وفى وجود قبيلة اولاد الشيخ فى برقة وانتشار افرادها فى طول البلاد وعرضها مظهر آخر لهذا التبادل بين الشطرين .

هذه بحالة تاريخية خاطفة ترينا مدى ما كان من ارتباط تاريخي بين برقة وطرابلس وتفنند زعم القائلين بالفصل بينهما على أساس تاريخي غير صحيح . أما فيما يتعلق بتلك العلاقات التاريخية بين طرابلس وفزان فيمكن أن نعرف أن الفينيقيين قد أتوا إلى ساحل طرابلس وأقاموا المدن الثلاث به . ولم يكن قيام هذه المدن واستمرارها قد أتى عفواً بل إن العوامل الجغرافية قد لعبت دوراً هاماً في المساعدة على قيامها لدرجة تجعلنا نعتقد أن قيام هذه المدن كان لابد أن يحدث سواء أتى الفينيقيون إلى طرابلس أم لم يأتوا لأن عوامل نشأتها متوفرة بل هي كانت موجودة بالفعل كنواة مهيأة للتطور قبل مجيء الفينيقيين وإن شئت الظروف أن تظهر للوجود كمدن قائمة معروفة على أيديهم . هذه العوامل الجغرافية التي ساعدت على قيام هذه المدن كان أهمها الطرق التجارية التي ربطت هذه الأماكن الساحلية بأقليم فزان ومنه إلى إقليم السودان جنوباً . فصبراته مثلاً تقوم في نهاية طريق تجاري إلى الجنوب يمر بواحة « غدامس » ومدينة « أوياء » التي حلت محلها الآن مدينة طرابلس تقوم عند نهاية طريق تجاري قديم إلى الجنوب يمر إما بطريق ترهونة وإما بطريق غريان . وكذلك بالمثل مدينة « لبدية » . ولقد كانت هذه الطرق التجارية خير رابط بين فزان وطرابلس وموحد بين هذين الأقليمين منذ العصور القديمة وإذا كانت تجارة القوافل قد قلت أهميتها في الأعوام الأخيرة فما ذلك إلا لتغلغل الاستعمار الأوربي وفصله بين فزان والسودان وفي فصل فزان عن طرابلس القضاء النهائي على بقايا هذه التجارة وهدم ركن هام في حياة البلاد الاقتصادية وإن كانت قيمته الاقتصادية قد تدهورت في الأجيال الأخيرة .

أما محاولة الفرنسيين لبتزه من لوبيا والحاقه ببقية مستعمراتهم الأفريقية فإنها محاولة لا تستند إلى أساس صحيح إذ أن الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال « لوكسير » قد دخلت فزان للتحرير كما دخلت جنود الحلفاء فرنسا نفسها بعد

انهيارها أمام الغزو الاجنبي ولاشك أن الجنود الفرنسية في تقدمها من تشاد نحو فزان قد استفادت الكثير من المساعدات القيمة التي قدمها لها في ذلك الوقت المجاهد الوطني أحمد بك سفير الناصر .

على أن هذه الصلة المتينة التي ربطت بين اقليمى طرابلس وفزان وإن كان الفينيقيون قد أدركوها منذ القديم إلا أنهم لم يدركوها وحدهم أو بمعنى أصح إذا كان الفينيقيون هم أول من أظهرها بشكل واضح فإن الرومان كذلك قد ساروا على منوالهم في هذه الناحية فبعد أن بسطوا سيادتهم على طرابلس اقتنعوا بصعوبة بقائهم في هذا الاقليم ما لم يتم استيلاؤهم على فزان ولذلك رأينا القائد كورنيليوس بالبوس Cornelius Balbus في بداية عهد حكم اغسطس Augustus يتولى مهمة القيام بقيادة حملة هامة لاختضاع فزان في سنة ٢٠ ق . م وكما كانت فرحة أهالي روما عظيمة عندما عاد اليهم بالبوس Balbus منتصراً بعد أن وصل الى مدينة جرمة Germa عاصمة فزان ليضمّنوا بقاءهم في طرابلس كما حدث في عهد الامبراطور تيريوس Tiberius عندما ذهب القائد فاليريوس فستس Valerius Festus على رأس حملة حربية بدأت مسيرها من مدينة لبدّة إلى « بونجيم » فواحة هون ففزان . ولم يتوان الرومان عن ارسال الحملات الى فزان حتى ضمنوا خضوعه لهم فامضوا على بقائهم في طرابلس من الخطر الجنوبي كما اتخذوا منه قاعدة للوصول الى أواسط افريقية .

.

وإذا استعرضنا حالة لوبيا من الوجهة الاقتصادية نجد البلاد كثيراً ما تصاب بأعوام الجفاف من سنة لأخرى فتعترض الحياة فيها للجحاعة كما تتعرض ثروتها الحيوانية للهلاك ولكن الملاحظ أيضاً أن سنوات الجفاف اذا حلت فهي في الغالب لا تشمل كل البلاد بشقيها الشرقي والغربي . فمثلاً إذا قلت الأمطار في طرابلس كان مستواها فوق المتوسط أو متوسطاً في برقة والعكس بالعكس وبمراجعة المجمعات التاريخية التي أصيبت بها البلاد نجد أنها قلما كانت تعم البلاد

بأجمعها وهذا ما يخفف من حدة الازمة التي تنشأ عن قيسام أى مجاعة ويجعل البلاد تمر منها بسلام إلى حد كبير كما حدث ذلك فى سنة ١٩٣٦ م المعروفة « بعام بنغازى » عند أهالى إقليم طرابلس لاعتمادهم الكبير على مراعى برقة فى إنقاذ حيواناتهم من الهلاك بعد أن أصيبت البلاد بجفاف قل على أثره العشب اللازم للرعى . وإذا كان فى استطاعة رجال الحكومة فى ذلك الوقت التغلب على ما أصيبت به البلاد من مجاعة لانعدام المحصول الزراعى باستيراد الكثير من الدقيق والمواد الغذائية من الخارج لتزويد الشعب بالقوت الضرورى فإنه كان من الصعب عليهم القيسام بمثل هذا العمل نحو ثروتهم الحيوانية ولم يكن أمامهم إلا ترحيل هذه الحيوانات على دفعات إلى برقة حيث كان العشب كافياً لانقاذ ثروة البلاد الحيوانية وتعويض أهل طرابلس بعض الخسارة التى نزلت بهم . وهذا ما حدث كذلك فى عام ١٩٤٦ م عندما اعتمد أهالى إقليم طرابلس إلى حد كبير على شعير برقة وهذا أيضاً ما حدث لبرقة فى سنة ١٩٥٠ بصورة مصغرة على أثر سوء موسم الأمطار فى ذلك العام حيث نشرت جريدة السندى جبلى (١) الصادرة بطرابلس الغرب أن قبائل برقة التى على حدودها الغربية قد أخذت تنتقل بحيواناتها إلى إقليم طرابلس لسوء موسم الأمطار فى برقة وكما حدث كذلك فى عام ١٩٥٢ من قلة فى محصول الشعير على أثر تأخر فصل سقوط الأمطار وضياح الفرصة على الأهالى فى برقة . وبعد هذا كله يأتى إلينا الاستاذ كندى شو Kennedy Shaw فى مناقشته لمسألة الحدود بين برقة وطرابلس مع الاستاذ ايفنز بريتشرد وقد شعر بأهمية هذا الاتصال حفظاً للثروة الحيوانية للاقليمين فيقول : إذا تم فصل طرابلس عن برقة بقرار من منظمة الأمم المتحدة فإنه ليس من الصعب عمل الاتفاقيات اللازمة بخصوص

مناطق الرعى للقبائل السنوسية في منطقة سرت (١). وما أغنى البلاد عن مثل هذه الاتفاقيات والوسائل الصناعية المقيمة وترك الأمور تجري بطبيعتها كما هي دون أى تدخل يعمل على تعقيدها وخلق المشاكل لسكان تلك النواحي .

وبدراسة الجغرافية الاقتصادية أيضاً للأقاليم الثلاثة نجد تكاملاً عجيباً فهذا إقليم فزان يعتمد إلى حد كبير على شعير لإقليم طرابلس كما أن موانئ طرابلس هي المنفذ الطبيعي لامتداد أهالي فزان بما يحتاجون إليه وتصدير ما تنتجه بلادهم أو يجلبونه من السودان بعكس ما لو اتجه أهالي فزان بتجارتهن إلى موانئ تونس أو الجزائر كما حدث بعد طرد الإيطاليين من لوبيا وخضوع فزان للإدارة الفرنسية . وهذا الانتاج المحلي لكل من طرابلس وبرقة يجد له سوقاً متبادلة تخفف من ارتفاع أسعار الحركة التجارية وارهاق السكان إذا ما استوردوا هذه الأشياء من الخارج . والبلاد في مجموعها كوحدة اقتصادية يمكنها أن تكفي نفسها إلى حد كبير مع الاستغناء عن كثير من الأشياء من الخارج يمكن أن تتبادلها فيما بينها . ولا عبء بما كانت تطلبه البلاد من معونة خارجية في العهد الإيطالي إذ أن معظمها قد صرف في تحقيق وسائل المجهود الحربي الذي كرس له إيطاليا حياتها في البلاد واتخذت منها قاعدة لتهديد غيرها . ثم أن تلك المعونة الخارجية كان لابد منها حتى تستطيع البلاد الوقوف من جديد بعد ما حل بها من إنهاك عام بسبب الحروب والهجرة الخارجية ولنا في هذه الإحصائية البسيطة ما يرينا مدى ما انتاب البلاد من نقص في ثروتها الحيوانية وما حل بها من خسارة بدل أن تخطو خطوات موفقة إلى الأمام بتزايد عدد حيواناتها فيكون ذلك خير سند لمالية البلاد كما أن الإحصائية ترينا المدى الذي يمكن أن تصل إليه ثروة لوبيا مع شيء من العناية والمجهود الصحيح المنظم حتى تفوق ما كانت عليه الحال في العهد العثماني المعروف بإهماله وقلة عنايته .

الإقليم	السنة	غنم وماعز	ماشية	جمل	حصان
(١) برقة	١٩١٠	١٢٥٩٣٠٠	٢٣٦٠٠	٨٣٠٠٠	٢٧٠٠٠
	١٩٣٣	١٢٣٠٠٠	٨٧٠٠	٨٦٠٠	١٠٠٠
(٢) طرابلس	١٩٠٢	١٠٧٠٠٠	١٩٨٠٠٠	٣٠٠٠٠	٥٠٠٠
	١٩٢٠	٩٤٥٠٠٠	٤٩٠٠٠	٤٨٠٠٠	٨٠٠٠

لا شك أن هذه العوامل الجغرافية قد بينت لنا مدى ضرورة هذه الوحدة كما إننا إذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا العصور الذهبية لتاريخ البلاد قد تمثلت لنا عندما كانت موحدة أو أقرب إلى الوحدة ونرى ذلك بوضوح واضحة في العهد القره مانلي ولولا وحدة البلاد واستغلال مرافقها مجتمعة ما استطاع أحمد باشا القره مانلي أن يؤسس دولة كان لها من القوة ما أروع الدول في حوض البحر الأبيض المتوسط وما استطاع إبنائه من بعده أن يسيروا على هذه السياسة ويرفعوا شأن ليبيا .

• • • • •

ولا شك أن البلاد بأجزائها الثلاثة تعاني أزمة خطيرة بسبب قلة السكان وهذه القلة لا تسمح بهذا التقسيم بل تنادي بضرورة التكتل والجمع بين هذه القلة المشطوبة ونحن نعرف من أبسط دروس التربية الوطنية التي تعلمناها في المدارس أن من شروط قيام أى دولة وفرة السكان بشكل كاف حتى يمكن

E.E. Evans-Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica, P. 17

(١)

Department of Agriculture : Survey of land Resources in

(٢)

Tripolitania P. 26-27.

الحصول منهم على الدخل الذى يكفيها ويمكنها من إدارة شئون الاهالى وحتى يمكن اختيار من يصلح لإدارة شئونها إذ كلما كثر العدد زادت صلاحية الاختيار وقلت مصاريف إدارة هذه الدولة والعكس بالعكس .

وإذا كانت هناك بعض الفروق الجغرافية البسيطة بين أجزاء البلاد الثلاثة أو موقف قصير فى الحوادث التاريخية الشاملة لهذه الأقاليم الثلاثة فهذا شئ لا بد منه ولا يخلو منه أى بلد آخر بل إن هذا الاختلاف البسيط ضرورى لحياة البلاد وإن لم يوجد لعمل الأهالى على إيجاده لكي يضمّنوا بقاء بلادهم وحيويتها . على أن هذه الفروق الجغرافية البسيطة بينها مهما عظمت فلن تبلغ ما نراه من فروق جغرافية واضحة بين شمالى إيطاليا وجنوبها من حيث الأساس الجئسى وظروف الحياة والعادات وأنواع الحرف والمناخ وطبيعة التربة إلى آخره . ويكفى أن نعرف أن الإيطاليين أنفسهم يشعرون بذلك ويتحدثون به فيما بينهم بل ويتحدثون به لغيرهم من الشعوب . وكذلك الحال إذا درسنا الجغرافية العامة لفرنسا فهى فى جنوبها تختلف عن شمالها الغربى وتختلف عن شرقها من حيث الأساس الجئسى للسكان وميزاتهم ومن حيث الأقاليم المناخية والنباتية وعمل السكان هناك . فبينما نجد الجزء الجنوبى من فرنسا ينتمى سكانه إلى جنس البحر الأبيض ويتمتع أيضاً بمناخ إقليم البحر الأبيض ونباته نجد سكان الجزء الشمالى الغربى ينتمون إلى الجنس الشمالى ذى القامة الطويلة ويتمتعون بمناخ إقليم شمال غربى أوروبا ونباته . وكذلك نجد السكان فى الجزء الشرقى ينتمون إلى الجنس الألبى ويتمتعون بمناخ ونبات إقليم وسط أوروبا . أما بريطانيا فيكفى أن نعرف أنها تضم إنجلترا واسكتلندا وويلز وهى وحدات قائمة بذاتها لها شخصيتها الخاصة بها ومع كل هذا لم ينكر أحد وحدة هذه البلاد مع أن الفروق الجغرافية التى تسودها كفيلا تتميز بها والقضاء على وحدتها . فهذه ويلز بموقعها الجغرافى المنعزل وطبيعة سطحها الجبلى وسكانها الذين يمثلون

أقدم الأجناس التي نزحت إلى الجزر البريطانية في السابق وعقيدتهم الدينية وشهرتهم بالمحافظة عليها ولغتهم الخاصة بهم التي دفعت الحكومة البريطانية إلى تدريسها في مدارس ويلز وتخصيص برنامج خاص للإذاعة بها. وهذه اسكتلندا بموقعها الشمالى ويميزاتها الجغرافية الخاصة وتاريخها القومى الذى يشعر به كل فرد من أبنائها رغم اندماجها فى التاج البريطانى وما حادث سرقة كنيسة وستمنستر الذى قام به بعض الشباب الجامعى من اسكتلندا إلا مظهر حى لبقاء القومية الاسكتلندية فى نفوس الشعب إلى يومنا هذا.

أين كل هذا مما نراه من وحدة المجلس والنسب واللغة والدين والعادات والتقاليد والآمال التي تربط لوبيا بأجزائها الثلاثة . لا شك أن كل هذه العوامل الجغرافية والتاريخية ستعمل على وحدة البلاد وتدعيمها وإذا كان المستر أدريان بيلت مندوب الأمم المتحدة فى لوبيا قد أدرك ضرورة هذه الوحدة للبلاد عندما قال : « إن على ليبيا، إذا أرادت أن تعيش كدولة مستقلة حل مشكلتين أساسيتين : الأولى سياسية والثانية اقتصادية، أما الأولى فتتلخص فى وجوب تعزيز الوحدة الليبية لأن الرغبة فى تحقيق هذه الوحدة ليست أمراً كافياً فى حد ذاته ، بل لابد من تضافر جميع الجهود لجعلها حقيقة سياسية صحيحة ، فقد تودى النزعات الشخصية فى الولايات الثلاث إلى إحداث اختلاف فى الرأى يضع الوحدة الليبية أمام تجربة قاسية... » (١) فللسياسة أن تقسم البلاد كما تشاء إلا أن مثل هذا التقسيم لن يمحو الروابط بين أجزاء البلاد وكما أن تقسيم بولندا أكثر من مرة لم ينجح إلى الآن فكذلك لن ينجح تقسيم لوبيا .

١ — ليبيا « من منشورات المكتب العربى ، ادارة الانباء والنشر ، الامم

المصادر

- 1 - E. E. Evans-Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica, "London 1949".
- 2 - W. B. Fisher : The Middle East, "London 1950".
- 3 - Handbook on Cyrenaica "by several authors, Cairo, 1944-1947".
- 4 - D.E.L. Haynes : A short Historical and Archaeological Introduction to Ancient Tripolitania, "Tripoli 1947".
- 5 - The Royal Geographical Society : The Geographical Journal, "Sept., Oct., 1945, May-June 1946".

هذا الى جانب بعض المصادر الأخرى التي ورد ذكرها في هامش الكتاب .

الحل

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره

ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »

« قرآن كريم »

لوبياء والسيادة البحرية

أهمية حوض البحر الأبيض المتوسط . مكانة لوبيا فيه . صحراء لوبيا تمثل نوعاً من حضاراته المتعددة . موانئ لوبيا أقرب المنافذ لحاصلات وسط أفريقية — استقلال الفينيقيين لموانئ لوبيا الغربية واستفادة اللوبيين من فنهم البحري — اتصال لوبيا بالآغريق وانتقال القرصنة إليها — النشاط البحري للموانئ اللوبية في عهد الرومان — ظهور العرب وصمودة امتلاكهم على الشمال الأفريقي . التفوق البحري للعرب الفاتحين — مساهمة الموانئ اللوبية في النشاط البحري للعرب — اعتذار الشمال الأفريقي من القرصنة — أهالى شمال أفريقية يدفعون الى احترام القرصنة للدفاع عن أسواقهم التجارية ولحماية المسلمين اللاجئين من أسبانيا — مجيء العثمانيين الى الشمال الأفريقي — مساهمة موانئ لوبيا في النشاط البحري للعثمانيين — البحرية اللوبية في العهد القرمانلى — اصطدام البحرية اللوبية ببحرية الولايات المتحدة الأمريكية في عهد يوسف باشا — حادث السفينة فيلادلفيا — الحرب بين لوبيا والولايات المتحدة الأمريكية — موقف بريطانيا من البحرية اللوبية بعد الانتصار الأمريكى — الدول الأوروبية تتفق في مؤتمر اكس لاشابل على مقاومة البحرية الغربية — عودة العثمانيين الى لوبيا وزوال استقلالها ومظهره البحري — تنافس الدول على استغلال موقع لوبيا البحري في العصر الحاضر .

إذا أمعنا النظر فى مصور جغرافى لحوض البحر الأبيض المتوسط وجدنا من الممكن تقسيمه إلى عدة أحواض تتفاوت فى الاتساع باختلاف تباعد الحدود التى تحدد كل حوض منها أو تقاربها من بعضها . على أن أظهر هذه الأحواض الفرعية أو أهمها بالنسبة لموقعه من حوض البحر الأبيض المتوسط عامة هو ذلك الحوض الذى يمكن تحديده شرقاً بشبه جزيرة المورة من بلاد اليونان وجزيرة كريت والرأس البارز من شبه جزيرة برقة والذى يقع فى

طرفه الشرقى ميناء طبرق الحصين. أما من جهة الغرب فيمكن كذلك تحديده بالطرف الجنوبي الغربى لشبه جزيرة إيطاليا وجزيرة صقلية التى تكون مضيقاً يتحكم فى مدخله الغربى بالاشتراك مع رأس بون فى تونس . هذا الحوض الفرعى الأوسط بموقعه الجغرافى يتحكم فى طرق المواصلات البحرية بين نهائى البحر الأبيض المتوسط حيث مضيق جبل طارق فى الغرب وحيث نجد فى الشرق مضيق الدردنيل ومضيق البسفور وبرزخ السويس فيما سبق وقد حلت محل الأخير الآن قناة السويس . وقد لعب حوض البحر الأبيض المتوسط وما زال يلعب دوراً هاماً فى العلاقات العالمية بحكم موقعه بين ثلاث قارات كبرى هامة وبحكم كثرة موانئه الصالحة للملاحة وهدوء مياهه بالنسبة للبحار الأخرى ولأهمية الشعوب الواقعة على سواحله فهو موطن لأهم الحضارات القديمة ومنه خرجت إلى العالم الجديد وعلى صفحات مياهه تصارعت القوى بغية الغلبة والانتصار وما من أمة نهضت أو كان لها بال إلا وصالت فيه وجالت أو كانت على الأقل على اتصال به من بعيد أو قريب وما من أمة بعيدة عنه إلا حاولت الوصول إلى شواطئه مثل إيران قديماً وروسيا حديثاً .

وإذا كانت هذه النظرة العامة قد أبانت لنا أهمية حوض البحر الأبيض المتوسط ومركزه الممتاز فى العالم الدولى فلا شك أن هذه الأهمية وهذا الامتياز يكون أكثر ما يكون بالنسبة لأجزائه الوسطى أو ما يمكن أن نسميه بالحوض الأوسط فهو أشبه بالجذع فى جسم الإنسان يربط بين طرفيه . ولوليا بموقعها الجغرافى وبساحلها البحرى الذى يمتد مسافة ١٩٠٠ كيلوا متراً تقريباً قد تحكمت فى جزع حوض البحر الأبيض المتوسط من الجنوب الأمر الذى أتاح لها أن تلعب دوراً هاماً فى تاريخه فى مختلف العصور . فهى بلا شك قد كانت على اتصال بالحضارات القديمة التى نشأت على سواحله وهى أيضاً قد ساهمت فى الكثير من النشاط الذى سادته سواء أرادت أم لم ترد لأن موقعها الجغرافى وساحلها

البحرى الطويل قد حتم عليها القيام بهذا الدور .

أما لماذا لم يظهر لنا كل هذا بوضوح فى العصر الحاضر كما ظهر لنا بالنسبة لبقية البلاد الأخرى المطلّة عليه فإن ذلك يرجع فى الغالب إلى الظروف السياسية التى احاطت بالبلاد فى العهد الأخير وانعزالها عن ميدان النشاط العلمى ولا نصرف البحوث والعلماء إلى ميادين أخرى فى البلاد المجاورة لم ينتهوا منها بعد ولا بد من بعض الوقت حتى يتهيأ للبلاد من بعض ابنائها والمولعين بالبحث المزيد من يتفرغ للقيام بهذه المهمة فى هذا الميدان البكر .

قد يقال أن طبيعة البلاد الصحراوية الغالبة عليها قد قللت من قيمة البلاد وأهمية الدور الذى قامت به فى حضارة البحر الأبيض المتوسط ولكن كثيراً من هذا القول مبالغ فيه وإن ظهر لأول وهلة للباحث المدقق أنه على جانب كبير من الصحة . وإذا كان من المسلم به أن للعوامل الجغرافية أثراً كبيراً فى نشأة الحضارات وتكسيّفها بطابع خاص كما هى الحال فى مصر حيث نجد نهر النيل بمياهه المتدفقة الدعامّة الأولى لنشأة الحضارة المصرية وتطورها وكما هى الحال فى بلاد اليونان حيث الجزر والبحار الداخلية الهادئة قد كان لها الفضل الأكبر فى نشأة الحضارة الإغريقية وصبغها بالطابع البحرى الخاص وكما هى الحال فى إيطاليا حيث امتداد الجبال والسهول بشكل معين قد كان له الفضل الأكبر فى قيام الحضارة الرومانية واقترانها بمد الطرق بنوع معروف وبالمثل فى بقية البلاد الأخرى التى قدر لها أن تكون موطناً لحضارة زاهرة فإن لوبيا كذلك بصحرائها قد انفردت دون غيرها فى حوض البحر الأبيض المتوسط بهذا العامل الجغرافى مما جعلها صاحبة حياة من نوع خاص لا تنشأ إلا فى الصحارى سرعان ما تتخذ لها طابعاً معيناً وتوضع لها الأسس والقواعد المرعية حتى تأخذ فى التطور حسب الظروف والأحوال ويساعدها على هذا التطور ما اتصفت به حياة الصحراء من بساطة وقلة تعقيد . والزائر للصحارى حيث

مضارب البدو يجد نوعاً من المعيشة قد يعجب لها كل العجب ويجد حياة منظمة لها أسس ومقاييس كانت الصحراء هي العامل الأكبر في تحديد معالمها ورسم خططها ويصعب على الزائر جداً أن يخلق لنفسه حياة تختلف عن هذه الحياة التي يشاهدها وإن استعان على ذلك بجهوده الخاصة ولكن عليه في نهاية الأمر أن يسير مع خطوطها العامة .

إذا فللصحراء حياة لها مظاهرها العامة ولها أسسها الخاصة التي تنفرد بها وتقوم عليها مما يحتم علينا اعتبارها مظهراً آخر للحضارة التي تخيلنا معناها في ادمقتنا وقصرناها على بعض البلاد دون غيرها أو بتعبير أدق على التفاعل الذي تحدثه العوامل الجغرافية الأخرى كالأنهار والبحار والجبال التي لعبت دوراً كبيراً في نشأة الحضارة الانسانية وتطورها في بعض البلاد الأخرى . والصحراء كما نعلم عامل جغرافي آخر لا يقل أهمية عن هذه العوامل السابقة الذكر في تشكيل الحياة وطبعها بطابع خاص ولهذا لا بد من اعتبارها كذلك والاعتراف بتأثيرها في الحياة وما يترتب على هذا التأثير من نتائج خاصة على أنها نوع من الحضارة كبقية العوامل الجغرافية الأخرى وتأثيراتها .

هذا إذا سلمنا بالطابع الصحراوي العام الذي بسببه يحاول الكثير من البعثات اغفال الدور الذي لعبته لوبيبا في حياة البحر الأبيض المتوسط أو التقليل من قيمته والمرور عليه مر الكرام إذا اقتضت الحال . ولكن الواقع أن البلاد ليست كلها صحراء بل فيها من الأماكن والمساحات ما يساعد على قيام حياة مدعمة لها أسسها وأهدافها الخاصة التي لا تقل عن مثيلاتها في بعض البلاد الأخرى ومن حسن حظ البلاد ولكي يساهم أهلها بدور فعال في حياة البحر الأبيض المتوسط نجد معظم هذه الأماكن السابقة الذكر قريبة من الساحل البحري وبعضها ملاصق له مشرف عليه . وبدراسة شبه جزيرة برقة والشريط الساحلي لطرابلس ووحدات الجنوب يتأكد لنا هذا القول ويزداد

يقينا إذا علمنا أنها تشغل مساحات واسعة لا بأس بها وإن كانت قليلة بالنسبة لمساحة البلاد بأجمعها .

وهكذا قدر لحوض البحر الأبيض المتوسط أن تتكاتف كل العوامل الجغرافية من أنهار ووديان وسهول وجبال وجزر وبحار وصحار في نشأة حضاراته وتتابعها وتنوعها بتنوع هذه العوامل الجغرافية الفعالة .

...

...

...

ولا شك أن أهم عامل في هذه الغلبة الصحراوية التي بسببها أهمل البحوث أمر الاهتمام بدور لوبيا في حوض البحر قد نشأ من هذه الفجوة البحرية الكبيرة في ساحلها والتي تعرف باسم «خليج سرت» والتي جعلت من لوبيا تتخذ موقعا جنوبيا بالنسبة لبقية بلاد الشمال الأفريقي إذ قللت من المساحة التي تتعرض لأعاصير الرياح المسكية الجنوبية الغربية الممطرة مع تقصير فصل أمطارها في الوقت الذي ظلت فيه مساحات واسعة عرضة للرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة معظم شهور السنة في بعضها وهي الجهات القريبة من الساحل المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط في حين بقيت الأجزاء الداخلية بمساحاتها الواسعة عرضة لهذه الرياح الجافة طيلة شهور السنة .

حقيقة أن هذه الفجوة الكبيرة في ساحلها الشمالى قد جنبت على البلاد من هذه الناحية المناخية ولكنها في نفس الوقت عوضتها من ناحية أخرى إذ جعلتها أكثر اتصالا بحوض البحر الأبيض المتوسط في ميدان خاص سادت فيه لوبيا غيرها من البلاد المجاورة التي يمكنها أن تزاحمها فهي بهذا التجويف البحري قد أصبحت موانئها أقرب المنافذ لحاصلات أواسط أفريقية دون بقية الموانئ الأخرى الواقعة على الساحل الأفريقي الشمالى وبذلك قصرت طرق الوصول إلى تجارة أواسط أفريقية في مواطنها الأصلية فتم الاقتصاد في الزمن وهو عامل هام بالنسبة لقيام التجارة ورواج أسواقها .

وقد تنبه الفينيقيون في العصور القديمة لهذه الميزة ففكروا في استغلالها وقد أحسنوا ذلك بتأسيس المحطات التجارية على الساحل اللوبي وسرعان ما نمت هذه المحطات واتخذ بعضها شكل المدن وما نشأة المدن الثلاث هـ أويا . لبدة . صبراتة ، وتطورها فيما بعد إلاثمة هذا العامل الجغرافي وتفكير الفينيقيين في استغلاله . وهكذا كانت لوبيا من بين البلاد الأولى التي اتصلت بالفينيقيين أساتذة البحرية ومعلمي الإغريق فيما بعد . وكان هذا الاتصال في أساسه تجارياً يقوم على ما امتاز به الساحل اللوبي من موقع خاص بالنسبة لبقية البلاد الأخرى وكان لا بد أن يكون هناك تعاون بين الفينيقيين واللوبيين بحكم تبادل المصلحة التجارية وكان لا بد كذلك أن ينشأ من هذا التعاون استفادة اللوبيين من فن الملاحة الذي أتى به الفينيقيون إلى الساحل اللوبي وقد ساعد اللوبيين في ذلك استعدادهم الخاص الذي اكتسبوه بأسفارهم عبر الصحراء الكبرى إلى أواسط أفريقية حيث موطن الثروة المشدودة . والسفر في الصحارى قريب الشبه بالسفر في البحار من حيث الجراحة والإقدام والاستعداد الفنى وإن اختلف ميدان السفر وتنوعت وسائله . فللصحراء وسيلة حيوانية هي الجمال وهو سفينتها وللبحار أخشاب أحكم تركيبها حتى غدت أيضاً سفينتها . وهكذا كانت روح المخاطرة والجراحة وتحمل متاعب الأسفار التي اكتسبها اللوبيون القدماء برحلاتهم جنوباً خير معين لهم على تهيئتهم للاتصال بالفينيقيين والاستفادة منهم وبالتالي على لعب دور كبير بالنسبة لعالم ذلك الوقت في حياة البحر الأبيض المتوسط والزمن كفيل بكشف هذا الدور ومدى أهميته بعد أن تبينت خطوطه الأولى.

ثم ظهر الإغريق على مسرح حوض البحر الأبيض المتوسط كما ظهر الفينيقيون من قبلهم ولكن ظهور الإغريق في هذه المرة يختلف تمام الاختلاف في جوهره عن ظهور الفينيقيين وإن اتخذ مظهره البحري . ظهر الفينيقيون فكانوا رسل أمن وسلام لأن المصلحة التجارية اقتضت منهم ذلك

مراعاة للفوائد التي يجنونها من النشاط التجاري الذي يستهدف للخسارة والضياع اذا ما تعرض حوض البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة ومسالمة المائية بصفة خاصة لأي اضطراب أو اعتداء . ولكن الإغريق وقد قست عليهم الطبيعة في بلادهم الأصلية الجميلة الفقيرة وبعد أن استنفدوا وسائل مقاومتها بالهجرة إلى الخارج والانخراط في سلك الجيوش المرتزقة احترق بعضهم للصوصية البحرية وكان لهم في جزرهم البحرية وبحارهم الهادئة خير مدرسة لتخريج نوع ممتاز في هذا المضمار وقد تلقنوا مبادئ فن البحرية على أساتذتها الفينيقيين . وهكذا كان الإغريق أول من احترق القرصنة وأول من وضع لها الأساس متخذين من النشاط التجاري لسفن الفينيقيين وبقية دول البحر الأبيض هدفاً لغاراتهم ومورداً للغنائم . ومن الإغريق انتقلت هذه الحرفة إلى بقية الشعوب الأخرى التي احترقتها فيما بعد إما مضطرة بدفع رد الاساءة بمثلها وإما باستمرارها بعد أن كانت لغرض الدفاع في أول الأمر واتخذت منها مورداً للرزق لبعض أفرادها الذين وجدوا فيها ميداناً لإظهار البطولة والجرأة إلى جانب ما تعود به عليهم من غنائم هي خير معين لهم على الحياة .

وكان لا بد أن يتصل اللوبيون بالإغريق كما اتصلوا بالفينيقيين من قبلهم بحكم الارتباط بالبحر الأبيض المتوسط وإن اختلفت طريقة الاتصال فالجزء الشرقي من لوبيا والمعروف ببرقة لا يبعد كثيراً عن بلاد الإغريق الأصلية الموطن الأصلي لهذه القرصنة البحرية وكان في طبيعة الساحل اللوبي في هذا الجزء من حيث التعرج وقيام بعض الموانئ خير مساعد على هذا الاتصال . فكان هذا الاتصال وكانت هجرة جماعات من الإغريق إلى الجبل الأخضر واستيطانها فيه وكان لها في أخشاب غاباته خير مساعد على قيام صناعة السفن والدخول بها في ميدان القرصنة وتحويل موانئها إلى أوكار لها . كل ذلك على أنه ميدان من ميادين الرزق المباح اتيانها للحياة والتي رسمها الإغريق لأنفسهم

وهكذا عرفت القرصنة البحرية قديماً طريقها إلى ساحل لوبيا كما عرفت طريقها أيضاً إلى البلاد الأخرى التي قدر لها أن تتصل بالاغريق في العصور القديمة وإن كان الغير قد نقلها إليها واقتصر أمر الاحتراف بها على غير أهلها الأصليين بصفة عامة وإن اشتركوا فيها بحكم الحياة الجديدة وملاساتها الخاصة والاعتراف بهذه الوسيلة على أنها إحدى وسائل كسب العيش في ذلك العصر القديم .

ثم جاء الرومان وأصبحت لوبيا حلقة في سلسلة العالم الروماني واصطبغت بالحضارة الرومانية كغيرها من البلاد الأخرى وسرعان ما أصبحت مشغلة بدورها كبقية المشاعل التي اضاءت حوض البحر الأبيض المتوسط في ذلك الوقت فكان لها في لبدّة وبقية المدن الساحلية الأخرى ما مكناها من ذلك الدور على أحسن ما يكون بفضل نشاط أهلها وحيويتهم الأمر الذي ساعد البلاد على انجاب شخصيات كان لها دور كبير في هذا المضمار ويكفي أن نذكر على سبيل المثال الامبراطور سبتيميوس سيفيروس Septimius severus ابن مدينة لبدّة وامبراطور الدولة الرومانية فيما بعد والمؤسس لأسرة تناوب أفرادها من بعده عرش روما بعد أن مكّن بجهوده الشخصية من سيادتها على حوض البحر الأبيض المتوسط وما ورائه إلى الجزر البريطانية .

وكانت موانئ لوبيا كغيرها من موانئ الامبراطورية الرومانية في ذلك الوقت في حركة مستمرة تقصدها السفن محملة بالبضائع وتقلع منها بحاصلات البلاد وما أضيف إليها من ثروة وسط افريقية . وكانت لبدّة في هذه الناحية قد ضربت بسهم وافر وأصبح منار مينائها هدف ربانة السفن ومعينا لهم على السفر يسترشدون به في وسط البحر إذا التبس عليهم الأمر . وإذا كان الضعف قد انتاب أحياناً هذه السيادة في فترات متقطعة من العهد الروماني فإن ذلك كان لضعف عام أصاب الامبراطورية الرومانية لم تسلم منه روما نفسها وهي المحرك الأول لهذه الامبراطورية في ذلك العهد . على أن هذا الضعف سرعان

ما زال وعادت الموانى اللوبية إلى نشاطها البحرى التجارى المجهود عندما تجددت دماء الامبراطورية بظهور القسطنطينية كعاصمة للدولة الرومانية الشرقية لاسيما فى عهد الامبراطور جستينيان . وهكذا نجح الرومان الى حد كبير فى تتبع النشاط الفينيقي فى لوبيا وما محاولاتهم المتعددة للوصول الى وسط افريقية وإعداد الحملات الحربية لتحقيق هذا الغرض إلا مظهر واضح لهذا التتبع وإن لم ينجحوا نهائيا لاصطباغ هذه المحاولات بصبغة السيادة وفرض السيطرة على الجهات الداخلية الأمر الذى لم يتعمده الاهالى من قبل ولم يأت به الفينيقيون فى السابق .

.

ثم ظهر العرب على مسرح السياسة العالمية فى القرن السابع الميلادى بظهور الاسلام وأخذت طرقهم تدق معالم امبراطوريتين متداعيتين احدهما قد تمثلت فيها القوة البرية بجلاء وهى الامبراطورية الفارسية والاخرى وهى الامبراطورية الرومانية الشرقية وقد ملكت من القوة البحرية ما ساعدها على الاحتفاظ بسيادتها على الممالك الواقعة فيما وراء البحار وما جعل العرب يسمون البحر الابيض المتوسط فى ذلك الوقت ببحر الروم . وإذا كان العرب قد استطاعوا القضاء على الامبراطورية الفارسية بسرعة خارقة فى عهد خلافة عمر بن الخطاب حتى إنه لم ينته عهد الخلفاء الراشدين إلا وكانت الجيوش العربية قد تعدتها إلى الشرق منها فإنهم قد وجدوا مقاومة كبيرة وصعوبات متعددة فى سبيل الاستيلاء على الشمال الافريقى بعد أن تم لهم الاستيلاء على بلاد الشام ومصر . وكان هذا التطويل الذى انتاب المجهود الحربى للعرب فى الشمال الافريقى ماثار بحث وتعليل وقد حاول المؤرخون ارجاعه الى عدة أسباب وجيهة يمكن للعقل أن يسلم بها ولكن دون أن يقتنع تماما . قالوا مثلاً أن العرب قد وجدوا فى هذا الميدان الافريقى شعباً عنيداً مستميتاً فى الدفاع

عن بلاده ضد الاجنبى الغاصب وأنه بطبيعته لا يرضخ لآى قوة كانت أمامه ولكن من منا يستطيع تجريد الشعب الفارسى من هذه الصفة والتاريخ فى مراحلہ القديمة والحديثة يذكر لنا جهاده ومدى تغلغل روح المقاومة فى نفوس بنيہ وكيف كان مصير من حاول قهره أو المس من حريته. قالوا أيضا أن طبيعة بلاد الشمال الافريقى بجبالها ووديانها وصحاريها كانت خير معين للبربر على نضالهم ضد العرب الفاتحين ولذا لم يستطيع العرب التغلب عليهم والاستيلاء على بلادهم ولكن أيضا من منا يجهل طبيعة بلاد فارس فإن كانت المسألة مسألة جبال ووديان وصحار فايران أعلى جبالا وأعرق وديانا وأقى صحارى بالمقارنة بالشريط الساحلى للشمال الافريقى الذى سارت فيه الجيوش العربية الفاتحة . قالوا ايضا أن الجنود الذين قابلهم العرب فى شمالى افريقية كانوا كثيرى العدد ولكن أيضا من منا يستطيع التقليل من كثرة جند الفرس وجحافلهم المتلاحقة فى ذلك العهد .

الحقيقة التى لا غبار عليها أن كل التعليقات السابقة وجهة ويمكن للعقل أن يسلم بها لولا هذه المقارنة ومع هذا فالإنسان لا يمكن أن يقلل من قيمتها ولكن أيضا لا يسلم بأن تكون كافية لتعليل ما عاناه العرب من مصاعب فى فتح بلاد الشمال الافريقى الأمر الذى ترتب عليه تخصيص زمن أطول بالنسبة لبقية الأقطار الأخرى التى فتحها العرب . أما السبب الرئيسى الذى يجب أن يكون فى مقدمة الأسباب والممهد للتعليقات الأخرى إذا أردنا أن نلحقها به فهو أن العرب كانوا فى نشأتهم الأولى أمة برية لم يمارسوا البحر بل جهلوا معاملہ فلما تقابلوا مع غيرهم كانت لهم الغلبة والانتصار فى الفن الحربى الذى عرفوه فأتقنوه وهذا ما رأيناه فى مملكة فارس وبلاد الشام الملاصقة ومصر المجاورة . أما القتال فى الشمال الافريقى فيستدعى أمره سلاحاً آخر لم يكن العرب قد اهتموا إليه حتى ذلك الوقت بحكم نشأتهم البرية وهو السلاح البحرى وإعداد

التموات البحرية . كان العرب في حربهم في شمال أفريقيا كلما أخضعوا جزءاً من البلاد أتى المدد من البحر إلى عدوهم وقد حملته السفن وقطع خط الرجعة على جيوشهم المتقدمة وعزلهم عن مؤخرة جيوشهم حيث الامدادات اللازمة فسرعان ما تحل بهم الهزيمة أمام أى هجوم مضاد أو ثورة محلية وكانت الامبراطورية الرومانية الشرقية قد عرفت كيف تستغل هذا التفوق البحرى في السلاح بعد أن ضاع منها الشام ومصر فكان لها النصر في الجولات الأولى قبل اهتمام العرب إلى معرفة القتال البحرى ووسائله . والزائر لمدينة درنة الواقعة في الشطر الشرقى من البلاد تلفت نظره قبور أولئك الشهداء من العرب الأوائل الفاتحين الذين حاولوا التمهق بعد أن حلت بهم الهزيمة ولكن اسطول العدو البحرى قطع عليهم خط الرجعة وأنزل بهم الهلاك فكان مصيرهم الاستشهاد كما استشهد غيرهم في أماكن أخرى .

جهل العرب في نشأتهم الأولى البحر فعادوه وتجنبوا ركوبه فكانت المعركة في غير صالحهم ولكن من حسن حظ العرب أن جهلهم هذا لم يدم طويلاً إذ أنهم سرعان ما تنبهوا إلى خطأ فكرتهم الأولى فلم ينته عهد خليفتهم الثالث عثمان بن عفان حتى كان للعرب اسطول بحرى قوى استطاعوا به الوقوف في الميدان والحق الهزيمة بالعدو وإحراز النصر تلو النصر وهكذا وضعوا لانفسهم أساس السيادة البحرية العربية في حوض بحر الروم وكانت موقعة ذات السوارى ، التى اشتقت اسمها من كثرة سوارى السفن المشتركة فيها اللبنة الأولى في الانتصارات البحرية التى أحرزها العرب فيما بعد وسرعان ما تبعها مهاجمة العرب لجزيرة قبرص وجزيره رودس بقواتهم البحرية .

كانت هذه الانتصارات البحرية للعرب في بداية عهدهم بالبحر خير مشجع لهم فاندفعوا في هذا التيار وأنشأوا دور الصناعة للسفن في موانئ الشام ومصر وكانوا كلما أتموا فتح جزء من بلاد الشمال الافريق عززوا ذلك بأسطولهم

وأسرعوا في تشييد دور الصناعة لسفنهم وقد لعب ميناء طرابلس وبقية موانئ الساحل الأفريقي الذي تم الاستيلاء عليها في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان دوراً هاماً في تكوين الأسطول البحري العربي وتزويده بالملاجئ الآمين والزاد إذا احتاج بما عجل بأمر الاستيلاء على الشمال الأفريقي ولم يأت أواخر القرن الأول الهجري حتى رأينا الجنود العربية في عهد خلافة الوليد بن عبد الملك تركب البحر وتغزو شبه جزيرة إيبيريا بقوة بحرية منظمة محكمة دلت على براعة فائقة في هذا المضمار ساهم في تكوينها وتسييرها كل بلاد الشمال الأفريقي بعد أن تم دخولها في الدين الإسلامي .

ومنذ ذلك التاريخ أخذ ولاية الشمال الأفريقي يحافظون على أن يكون لهم أسطول بحري قوى للدفاع عن الساحل ضد أي هجوم مضاد يقوم به العدو وليصلهم بالبلاد التي فتحوها ولاستخدامه من جديد في الاستيلاء على جزر البحر الأبيض المتوسط حتى إذا ما أقام الأغالبة دولتهم في تونس انصرفوا إلى بناء أسطول بحري قوى للقيام بفتح جزيرة صقلية والغازة على بقية جزر البحر الأبيض المتوسط وقد ساهمت طرابلس نفسها في هذه الغازات إذ كانت بمثابة إحدى المحطات التي تقوم منها وتلجأ إليها سفن الأغالبة . وكثيراً ما تعرضت جزيرة مالطة بالذات لغارات سفن الأغالبة التي اتخذت لها من طرابلس قاعدة لقربها كما حدث في سنة ٢٥٥ هـ عندما هاجمها أبو الغرانيق محمد بن أحمد ابن الأغلب .

ولما أعلن الخلفاء الفاطميون الحرب البحرية على الدولة الأموية في الأندلس كانت طرابلس قد اشتركت كبقية موانئ الدولة الفاطمية في إعداد السفن اللازمة لتكوين الأسطول الفاطمي لهذه الحرب . وهكذا كان دورها في بقية النشاط البحري الذي قامت به الدويلات الإسلامية للشمال الأفريقي بحكم تبعيتها والانخراط في سلك العالم الإسلامي .

وجدير بنا أن نذكر أن هذه القوة البحرية الاسلامية للشمال الافريقى لم تكن عاملا من عوامل الازعاج واثارة الرعب والفوضى فى مياه البحر الأبيض المتوسط او ما يذهب إليه الكثير من الكتاب من فهم معنى كلمة « القرصنة » التى حاولوا الصاقها بشعوب شمالى افريقية وفى مقدمتهم أهالى لوبيا. ويؤيد هذا القول ما كانت عليه العلاقات الودية بين ولاية الساحل الافريقى وحكام المدن التجارية من الساحل الأوروبى المسيحى المقابل اذا استعرضنا المعاهدات التى عقدت بين الطرفين فى ذلك الوقت والتى تم الاتفاق فيها على القضاء على القرصنة وتشجيع التجارة المتبادلة بقدر المستطاع (١). فهذه بيزا Pisa وجنوا Genoa واراجون Aragon والبندقية Venice كل منها قد عقد معاهدة تجارية مع ولاية افريقية وكانت كلها تعمل على تجديدها عند انتهاء اجلها لأن التجارة الافريقية كانت شيئا هاما جداً بالنسبة لشعوب أوروبا خصوصاً لأهالى هذه المدن الذين احترفوها وبنوا عليها معيشتهم ويؤيد هذا القول قيام الشركات التجارية المنظمة بتجاريتها الخاصة وفنادقها فى كل من موانئ طرابلس وتونس وبجاية وسلا بل ذهبت العلاقة التجارية بأهالى جنوا إلى أبعد من هذا الحد وهو القيام بالدفاع عن مدينة Ceuta فى شمال افريقية ضد الصليبيين من المسيحيين ابان الحروب الصليبية وما كان لأهل جنوا أن يفعلوا ذلك مالم يتأكدوا من الروح الطيبة لمسلى شمال افريقية نحوهم . وهكذا كان للتجارة وتبادلها الأثر الفعال فى تخفيف وطأة العداوة الدينية بين أهالى شمال افريقية وشعوب جنوبى أوروبا المسيحيين بل ذهب التسامح بالمسلمين وتأكيدهم للنوايا الطيبة نحو المسيحيين إلى السماح لهم بحرية التجمد واقامة الكنائس الخاصة بهم دون أى إزعاج ويؤكد ذلك ما رواه الرحالة البكرى فى وصفه لمدينة اجدايا فى لوبيا فى القرن الحادى عشر الميلادى أذيقول « وأهلها ذو يسار اكثرهم

اقباط . . . (١) وبالمثل عند كلامه عن مدينة طرابلس الغرب فيقول . . .
وطرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود وحوطها اقباط في ذى البربر
كلامهم بالقبطية . . . بل نحن نقرأ عن اسقفية فاس المسيحية حتى القرن
الثالث عشر الميلادي وهناك ما يؤكد لنا العلاقات الطيبة القائمة انذاك بين
ولاية تونس ومراكش من جهة والبابا من جهة اخرى . (٢) بل ان كثيراً من
المسيحيين قد انخرطوا في الجيوش الافريقية وكانوا كذلك يتولون المناصب
المدنية العالية . وخلاصة القول أن علاقة ولاية الشمال الافريقي مع
الممالك الأروبية خلال معظم الفترة فيما بين القرن الحادي عشر والقرن
الخامس عشر كانت طيبة للغاية تمودها الحكمة ويدبرها العقل وتسيرها حاجة
أهالى الشمال الافريقي للكثير من الصناعات الأوربية واحتياج الشعوب
الأوربية المسيحية للمواد الخام التي تصدرها موانئ الساحل الافريقي وفي مقدمتها
طرابلس بعد أن تأتي بها من وسط افريقية .

لهذا كانت القرصنة كما يفهمها بعض الكتاب وكما يريدون الصاقها بمسلمي
الشمال الافريقي أمراً ممنوعاً في كل المعاهدات التجارية التي عقدها ولاية هذا
الجزء من العالم الاسلامي . ومع قيام هذه المعاهدات وسريان مفعولها فان
الاستاذ لين بول في كتابه عن قرصنة المغرب يؤكد لنا بأن القرصنة لم
تنقطع بتاتاً وإن ارتكبتها كان من الجانب المسيحي (٣) ويوضح لنا ذلك بما كان يقوم
به أهالى اليونان وسردينيا وما لطة وجنوا نفسها من محاولة التحرر من تنفيذ
ارتباطات الاتفاقيات التي نصت على مقاومة القرصنة بل يذهب الاستاذ
لين بول في كتابه الى أبعد من هذا ويذكر لنا أنه من بين المسيحيين انفسهم كان

(١) — البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . ص ٥ (طبعة الجزائر سنة ١٨٥٧ م)

2 — Lane-Poole: The Barbary Corsairs, P.T. 22

3 — " " " " " " P.T. 24

القراصنة الرئيسيون في البحر الأبيض المتوسط حتى القرن الرابع عشر الميلادي وقد احترفوا التعامل بكثرة في البضائع المسروقة والعبيد. (١) هذا قليل من كثير يدعم براءة الشمال الافريقي من تهمة القرصنة لأنها حرفة غريبة عنه بحكم نشأتها وبحكم تعاليم دينه وقد سبق أن عرفنا كيف أنها كانت للاغريق فهم أول من احترفها وعندهم انتقلت إلى غيرهم حيث وجدت الترحيب والتشجيع بالاحتراف بها وليس أدل على هذا القول من أن فرسان الاستبارية Hospitallers الذين بدأت نشأتهم الأولى في بيت المقدس كظهر للحركة الدينية الصليبية والذين انتقلوا إلى جزيرة رودس يعد أن طردهم العثمانيون في سنة ١٤٠٣م من مدينة أزمير قد أسرعوا في تحصين جزيرتهم الجديدة واتخذوا منها وسيلة لتهديد التجارة فيما بين مدينة الاسكندرية ومدينة القسطنطينية ثم سرعان ما وسعوا ميدان نشاطهم القرصني فشمولوا جميع السفن المارة بمياه جزيرتهم دون تمييز حتى أصبحوا القراصنة المسيحيين للشرق مستغلين أخشاب غابات قرمانيا Caramania في آسيا الصغرى لتزويدهم بالسفن وشعوب السواحل المجاورة لمدهم بالعبيد المأسورين لتسييرها . وقد عاناه جميع السفن باختلاف أنواعها وفي مقدمتها المسيحية الكثير من اعتداءاتهم حتى أن جمهورية البندقية قد نظرت بعين الارتياح في سنة ١٨٤٠م عندما أرسل سلطان العثمانيين محمد الثاني قوة كبيرة لتأديبهم والحد من نشاطهم القرصني الذي أساء إلى تجارة البحر الأبيض كما أساء إلى تعاليم الدين المسيحي لأنهم لم يفرقوا بين السفن وتبعيتها وفي ذلك من معنى اللصوصية ما يدفع إلى وصفهم بالقرصنة دون تردد .

هكذا ظلت القرصنة غريبة عن أهالي شمالي افريقية ومن بينهم اللوبيون

1 — Lane-Poole: The Barbary Corsairs, P.T. 25, up to the fourteenth Century the Christians were the chief pirates of the Mediterranean, and dealt largely in stolen goods and slaves.,

وظل الولاة يدفعون شرها عن بلادهم بكل ما أوتوا من وسائل إلى أن أجبروا عليها إجباراً بحكم الظروف والأحوال التي جدت فلم يجدوا مناصاً من المساهمة في ميدانها ومع هذا فقد زاولوها بشكل خاص وفي حدود معينة الأمر الذي لا نستطيع معه إن نلصقها بهم .

وكانت أول هذه العوامل التي أجبرتهم على مزاوله «القرصنة» هي الرغبة في الدفاع عن سفنهم التجارية بعد أن فشلت كل الطرق الأخرى المشروعة في تحقيق هذا الدفاع كعقد المعاهدات وتحسين العلاقات وتفويت الاعتداء أكثر من مرة ولكن النفس اللثيمة لا يزيد بها الإحسان إلا غياً فركبت روعسها ورأت في هذا التسامح ضعفاً وأسرفت في عملها ولم تعرف له حدوداً عندئذ وجد المغاربة أن خير وسيلة لحماية تجارتهم ومصالحهم البحرية إلى جانب المحافظة على كرامتهم وكرامة الشعوب التي يحكمونها هي رد الاساءة بمثلها . بل رد الصفة بأقوى منها وعندئذ فقط بدأنا نسمع باعتداء المغاربة على السفن المسيحية ولكنه كان اعتداء من النوع المشروع ومن النوع الشريف الذي يحدد معالم خطوطه حتى لا يؤخذ صاحبه عليه إذا وجه الغير إليه الملام أو عرضه للحساب وكان هذا السلوك الإيجابي لا بد منه في الوقت الذي أخذ فيه النشاط التجاري في حوض البحر الأبيض المتوسط في الازدياد بعد القرن الرابع عشر وبدأ العدو يشعر بالغلبة عليه في هذا الميدان أمام المسلمين . وإذا كان الاستاذ بوفيل (١)

E. W. Bovill Caravans of the old Sahara, an introduction to the history of the Western Sudan, P. 123:—

"If Christians seem more often to have been the victims than the authors of piracy, it is because their Coasts were less easily defended, because their trade was greater and therefore more vulnerable and because their history is better than that of the Arabs."

Bovill قد حاول في كتابه تعليل هذه الغلبة بأسباب تراعت له حصرها في أمر صعوبة الدفاع عن سواحل المسيحيين وكثرة تجارتهم بالنسبة لتجارة المسلمين الأمر الذي عرضها أكثر للتعدي فضلا عن أن تاريخ المسيحيين أحسن من تاريخ العرب فإن تعليله هذا هزيل وقوله ضعيف مردود عليه إذ فيه تعد على الحقائق ومغالطة صريحة مكشوفة. أما القول بصعوبة الدفاع عن السواحل المسيحية فهذا ربما نسلم به ولكن من منا يستطيع تسهيل هذه المهمة بالنسبة لسواحل الشمال الأفريقي عامة وساحل لوبيا خاصة وهي الطويلة بامتدادها المكشوف في أكثر جهاتها بعكس الحال في السواحل الجنوبية لأوربا حيث سلاسل الجبال المشرقة على السواحل وحيث الجزر البحرية القريبة الأمر الذي يساعد أكثر على تسهيل الدفاع وسهولة التنقل في أمن وسلام. وإذا كانت تجارة المسيحيين كذلك أكثر من تجارة المسلمين فهذا شيء مسلم به أيضاً ولكنه شيء نسبي يتمشى مع عدد دول كل من الجانبين وللتجارة المسيحية في كثرة دولها وتعدد شعوبها ما يساعد على كثرتها وبالتالي أمر الدفاع عنها أمام البحرية الإسلامية ذات الموارد المحدودة والشعوب القليلة بالنسبة لأعدائها. أما أن تاريخ المسيحيين أحسن من تاريخ العرب فهذا هو التجني بعينه والمغالطة الصريحة المفضوحة إن دلت على شيء فإنما تدل على التعصب الأعمى والجهل بالحقائق المسلم بها من الجميع وعلى رأسهم مؤرخو الإفرنج (١)

ثم جد عامل ثان كان له أكبر الأثر في نفوس المسلمين عامة ومسلمي

١ — ليس هناك أحسن من الرد على هذا القول من ذكر بعض الفقرات من كتاب «العرب» للدكتور فيليب حتى «بيروت ١٩٤٦» حيث يقول «وليس من شعب آخر قام في القرون الوسطى مما قام به العرب في سبيل تقدم البشرية (ونحن هنا لانطلق كلمة =

الشمال الافريقي خاصة وكان أكبر مشجع للمغاربة على مزاوله القرصنة بشكل واضح . هذا العامل الجديد هو طرد المسلمين من الاندلس على يد الاسبان وما اقترن به هذا الحادث من أهوال ومصائب انزلها المسيحيون بالمسلمين المسلمين دون مراعاة لما قاموا به في ميدان الحضارة في الوقت الذي كانت فيه شعوب أوروبا تعيش في دياجير الظلام والوحشية وفي الوقت الذي كانت فيه اشعة الحضارة قد أخذت لها من قرطبة وغرناطة واشبيلية وبقية بلاد الاندلس مصاييح لاضاءة الطريق أمام هؤلاء القوم وتعريفهم بالحياة على أصولها . وباليات الاسبان وقف عملهم عند حد اخراج المسلمين من شبه جزيرتهم ومحاولة طمس معالم حضارتهم هناك وانزال العذاب الأليم بمن بقي من المسلمين مغلوباً على أمره وما محاكم التفتيش التي يذكرها لنا التاريخ إلا صورة مصغرة لما عانوه ولكن نشوة النصر دفعت بالاسبان الى تتبع المسلمين وقد لجأوا الى الشمال الافريقي فحاولوا بالاشتراك مع اخوانهم من سكان جنوبي أوروبا أن يجربوا طريقته هذه الجديدة في إبادة الشعوب في البلاد المقابلة لهم والتي لا يفصلهم عنها إلا البحر الابيض المتوسط . وكان من الصعب على المسلمين وقد اضطروا إلى ترك بلادهم فجأة دون سابق انذار وبطريقة وحشية أن ينسوا وطهم الأول بعد أن اقاموا فيه ما يقرب من سبعة قرون وبعد أن

== عرب على أبناء الجزيرة العربية فحسب بل على سائر الشعوب التي اتخذت العربية لساناً)
 فيما كان فلاسفة العرب مكين على دراسة تأليف ارسطو كان شرلمان ورجال بطائنه يحاولون اتقان كتابة اسمائهم وبينما كان علماء العرب في قرطبة يترددون على خزائن كتبها السبع عشرة (ومنها خزائن حوت ٤٠٠٠٠٠ مجلد ويعودون إلى بيوتهم فينعمون بالاستحمام في حمامات بلغت الغاية في النظافة والاناقة كان الاساتذة والتلامذة في جامعة اكسفورد يستنكرون الاستحمام ويحسبونه من ملذات العيش الشهوانية التي يجب الترفع عنها ص ٩ .

شيدوا حضارة مدعمة تركوا معالمها بعد اليأس من انقاذها. وكانت الطريقة التي تمت بها عملية جلاء المسلمين عن اسبانيا كفيلة بتمزيق العائلات وتشقيت أفرادها بل ترك عدد كبير منها في حالة تنتظر الانقاذ السريع ومد يد المعونة العاجلة ولهذا وبعد أن وجد اللاجئين ما يؤمنهم على حياتهم في الشمال الافريقي اخذوا يعدون العدة للتسلل ليلا وكما واتهم الفرصة إلى وطنهم الأول لانقاذ من تبقى من أفرادهم بسفن احسنوا اعدادها لهذا الغرض. ومن هنا جاءت البذرة الأولى للقرصنة اذ أن كثيراً ما كانت روح الانتقام وهم المعتقدى عليهم ما تدفعهم إلى إتيان أعمال انتقامية وهم في الطريق وقد نظر الخير إلى هذه الأعمال على أنها قرصنة بحرية مع أنهم أرباب منها لأنهم لم يهملوا أكثر مما يجب أن يعمل به أى شخص آخر في مكانهم. كانت مقابلة المسلمين الفارين وقد قل عددهم للأسبان من جديد في ميدان القتال المفتوح أمراً غير ممكن ولكنهم بهذه الطريقة وبواسطة سفنهم الناشئة ومعرفتهم للشواطئ الاسبانية استطاعوا أن يجدوا فرصة لرد بعض ما لحق بهم من هوان على يد الاسبان (١). وأمام هذه الكارثة التي حلت بالمسلمين في الاندلس والتي بدأ شبحها يلاحق اخوانهم في الشمال الافريقي لم يجد ولاية بلاد المغرب وعلى رأسهم بنو حفص الذين أحسنوا معاملة من أقام عندهم من المسيحيين بدأ من ضرورة المساهمة في الدفاع عن هؤلاء اللاجئين بحكم العاطفة الإنسانية أولاً وبحكم ما يرتبطون به معهم من رابطة دينية دفعت الخير إلى محاولة تحطيمها في تحطيم كيان وطنهم وما شيدوه من حضارة. وكان على هؤلاء الولاية

[— Lane-Poole, Tho Barbary Corsairs, P. 8:—

"No sooner were the banished Moors fairly settled in their new seats than they did what anybody in their place would have done. They carried the war into their oppressor's country."

أيضاً أن يجاروا الشعور العام لشعوبهم بالوقوف إلى جانب اللاجئين . لهذا
ثارت نائرة البلاد الجنوبية لأوربا وحلت نقمة أهلها على هؤلاء الولاة
وشعوبهم لأنهم حموا هؤلاء اللاجئين وأنزلوهم بديارهم وهادأوا من
روعهم وحاولوا تعويضهم ما فقدوه من أمن وطمأنينة فناصربوهم العداء
وشملوهم بالعدوان ونسوا أن أهالي شمالي افريقية لم يعملوا أكثر مما يحتمه
عليهم الضمير الإنساني وهم المعروفون بحسن الضيافة وكرم الملاقاة وإغاثة
الملهوف لا مع المسلمين فقط بل مع غيرهم كما تشهد بذلك حوادث التاريخ
ومعاملتهم الحسنة لمن أقام معهم من المسيحيين كما سبق تبينه .

وهكذا نشأت العداوة بين بلاد الشمال الافريقي وبلاد جنوبي أوربا
بصورة عامة إلى جانب ما سببه العامل الأول من استعداد لنشأة هذه العداوة .
وكان من الطبيعي والبحر هو الفاصل بينهما أن يكون هذا البحر مسرحاً للحرب
فأخذ كل منهما يعد العدة للقتال ويتفنن في وسائله ويتحين فرصه وكان من
الطبيعي أيضاً أن يقترن هذا القتال بأعمال قد تبدو غير انسانية إذا نظرنا إليها
دون فحص وتدقيق ودون فهم لأسبابها ومدابساتها . وإذا كان المفارقة قد
ارتكبوا في هذا القتال من الأعمال ما لا يرضاه الإنسان فقد ارتكب أعداؤهم
أضغاف أضعافه وما من ساحل حلوا به أو ميناء احتلوه إلا كان عرضة لمثل
هذه الأعمال . بل هناك ما يؤكد لنا أن أهالي شمالي افريقية كانوا أخف وطأة
في هذه الناحية بدليل ما يذكره لنا الأستاذ Lane-Poole من أن كثيراً من
العبيد الذين كان المسلمون يأسرونهم في غزواتهم لجزر البحر الأبيض المتوسط
والسواحل الجنوبية الأوربية يرفضون تحرير أنفسهم من طريق المكاتبه
ويفضلون حياة الأسر في شمالي افريقية على العودة إلى بلادهم الأصلية حيث
تنتظرهم الفاقة والمعاملة السيئة القاسية من الحكام (١)

وكان أكبر مشجع للأوربيين في سلوكهم العدواني ما كانوا يشعرون به من حمية في اسبانيا وقد ظهرت كدولة للوجود في ذلك الوقت ونما عودها وتطور شأنها بطرد العرب من الاندلس وبالاكتشافات البحرية وتأسيس الامبراطورية في العالم الجديد وبالسيادة البحرية في غربي حوض البحر الأبيض المتوسط .

وبينما كان الصراع حامياً بين دول جنوبي أوروبا من ناحية وبلاد الشمال الافريقي من ناحية اخرى إذ يعامل جديد ثالث يعمل على تقوية هذا الصراع ويكسب القرصنة البحرية طابعاً خاصاً ذلك هو التوسع العثماني في شرقي البحر الأبيض المتوسط واستيلاء الأتراك على القسطنطينية . أحدثت هذه الظروف الجديدة شيئاً من التوازن بين القوتين المسيحية والاسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط بعد أن كادت الاولى تنجح في بسط سيادتها البحرية . وكانت طرابلس المدينة التي قدر لها أن تخضع لفترة قصيرة للسيادة الاسبانية البحرية في أول الأمر سرعان ما تنازل عنها الأسبان لفرسان القديس يوحنا في جزيرة مالطة .

وإذا كان بعض أهالي مدينة طرابلس الغرب الذين فروا من تعسف الأسبان والتجأوا إلى ناحية تاجوراء في شرقي هذه المدينة قد أرسلوا وفداً للخلافة العثمانية لطلب النجدة وانتشالهم من الحكم الاسباني فإن مجيء الأتراك إلى الساحل اللوبي كان لا بد منه لتدعيم حركة نضالهم مع الأعداء في البحر الأبيض المتوسط (٢) من أجل السيادة عليه وانتزاعها من الأسبان وقد نجحوا في مشروعهم هذا بل نجحوا في جعل موانئ لوبيا وفي مقدمتها طرابلس قاعدة لأعمالهم الحربية البحرية ضد سواحل جنوبي أوروبا لاسيما شبه الجزيرة الإيطالية وما يحيط بها من جزر . وكان جل نشاط الولاة الأتراك الذين تعينوا في أوائل

الحكم العثماني مقصوراً على هذه الناحية وعلى رأسهم درغوت باشا الذي خلد اسمه بين أسماء الشهداء بأعماله البحرية واستشهاده في الهجوم على جزيرة مالطة. وقد رد للساحل اللوبي أمنه وانزل الرعب في قلوب من حاولوا الاعتماد عليه أكثر من مرة.

وهكذا كان على بلاد الشمال الافريق ومن بينها لوبيا أن تقف إلى جوار الأتراك في نضالهم مع الأسباب الذين سبق لهم أن أرادوا تحطيم الشمال الافريق بسبب العقيدة الاسلامية وقد رأى المغاربة في العثمانيين خير غوث لهم فضلا عن تقبلهم الغوث عن رضا بسبب هذه العقيدة التي تقرب بين الطرفين. واستمدت البحرية العثمانية المحيطة من الحماسة التي قابلهم بها المغاربة في هذا الميدان الجديد حماسة واندفاعا مما اظهرها ق صورة الشدة والعنف واستطاعت بذلك أن ترصد قراصنة المسيحيين في اعشاشهم وتشل حركاتهم لمدة طويلة.

وخلاصة القول أن هذا النشاط البحري الذي سماه الغير « قرصنة » ماهو إلا نوع من الحرب الدينية من ناحية ودفاع عن الأوطان من ناحية أخرى. هو نوع من الجهاد وقد فرضه الاسلام على أهله وأعتبر شهيداً من مات في سبيل الذود عن العالم الاسلامي بل كان المسلمون يرون الهجوم فرضاً كلما خافوا عدواً على ثغورهم ولم يفعل اللوبيون أكثر مما فعله سكان جنوبي أوروبا إذ قد عانت السواحل اللوبية الكثير من غاراتهم وهكذا نهض اللوبيون وجمعوا موانئهم أو كارا للقرصنة تمحين الفرص المناسبة للايقاع بفريستها. ولو كان الغرض من هذه الاغارات القرصنة كما يقول الأوروبيون شملت السفن التجارية الاسلامية أيضاً ولكن الواقع أنها اقتصرت على السفن المسيحية دون غيرها لأن الجهاد كان الغرض الرئيسي لها (١) بعكس ما نلاحظه اذا درسنا نشاط

البحرية للطرف الآخر إذ أننا نجدها لا تميز بين السفن التي تكون هدفا لهجومها وفي نشاط بحرية قرصان الاستتارية مثلا ما ثبتت لنا ذلك وهم الذين بنوا نظام هيئتهم على اهداف دينية مسيحية ونصبوا من انفسهم حماة للدين المسيحي واتباعه . بل كان الأوربيون عامة يهاجمون بعضهم بعضا دون تمييز في ذلك بين دين أو جنس بل إن كثيرا من الدول المسيحية قد حالفت الدول الاسلامية على بنى جنسها ولنا في التحالف الذى قام بين العثمانيين والفرنسيين ما يؤيد هذا بل نحن إذا راجعنا تاريخ الانجليز أنفسهم في ذلك الوقت لظهروا لنا قرصنة أو ما يشبه القرصنة وتاريخ كبار الملاحين الانجليز كما رواه لنا « فروود » Froude يثبت لنا أن القرصنة كانت الأساس الأول لنشأة البحرية الانجليزية فيما بعد (١).

...

...

...

هذه هي أهم العوامل التي جاءت بالقرصنة إلى الشمال الأفريقي ودفعت بأهلها إلى مزاولتها مرغمين وإذا كان البحارة الذين تولوا مهمة تسيير السفن من العبيد الذين سبق اسرهم من الشواطئ المسيحية يلقون بعض العذاب والشدة وهم يدفعون السفن اللوية بسواعدهم وصدورهم بل وبكل عضو فيهم فإنهم قد تعودوا مثل هذه المعاملة في السابق قبل أن يأتوا إلى طرابلس إذ كان اخوانهم المسيحيون يستخدمونهم في السابق بهذا الشكل دون أى فرق في المعاملة. وكانت ترسانة طرابلس لا تكف عن العمل ليل نهار لتزويد الاسطول بأكبر عدد من السفن وكان يقوم أيضا بصناعتها عمال مسيحيون أو من أصل مسيحي انخرطوا في سلك البحرية اللوية كل ذلك في مقابل أجور يومية منتظمة مع صرف مقدار معين من الخبز اليومي اسوة بنظام الجندية في عسكر البلاد ونحو ذلك أيضا نظام

الجندية البحرية في العصر الحديث .

وهكذا كانت هذه السفن تبني بواسطة صنّاع مسيحيين أو من أصل مسيحي ويدير دفتها بحارة مسيحيون أو من أصل مسيحي ويتولى أمر قيادتها في الغالب من كان في الأصل مسيحياً لتهاجم بلاد المسيحيين وتغزو سواحلهم وتعود بالمسيحيين لتمثيل هذا الدور من جديد . وهكذا على مر السنين وبعد هذا كله تنسب القرصنة إلى بلاد الشمال الأفريقي وتمتلكم عنها على أنها خاصية من خواصه الخاصة به !!

وكانت السفن التي استخدمها اللربيون في هذا النشاط البحري المعروف عامة عند مسلمي الشمال الأفريقي تعتمد في تسييرها على المجاديف قبل كل شيء ولها من شكلها الطويل الضيق ما يساعدها على شق أمواج البحر وسرعة الاندفاع إذا ما حُرّكت مجاديفها في الماء وقد امتازت بصفة خاصة عن السفن المسيحية بالخفة في كل شيء فكان ذلك مما ساعدها على سرعة مطاردة سفن الاعداء أو الهروب منها إذا غلبت على أمرها أو تراءى لأصحابها الاختفاء . وكان يقوم بمهمة التجديف الشاقة الأسرى العبيد إذا توفر منهم العدد الذي يسمح بهذا العمل أما إذا قل عددهم واصيبت الملاحاة بازمة فيهم فإن صاحب السفينة كان يلجأ إلى تأجير نفر من أهل البلاد انفسهم في مقابل عشر دوكات « عملة جمهورية البندقية » لكل فرد عن الرحلة البحرية الواحدة سواء اغنمت السفينة في رحلتها هذه أم لم تغنم . وكان أيضاً في استطاعة صاحب كل سفينة وهو المعروف بالريس « Rais » أن يقوم ببناء سفينته التي يملكها على حسابه الخاص وتزويدها بكل ما تحتاج إليه في هذا الخصوص ولكن إذا عجزت موارده الخاصة عن القيام بهذه المهمة لجأ إلى ما يساعده على اتمام مشروعه هذا في مقابل اقتسام الغنائم التي يفوز بها بقدر ما يقدمه من مساعده . وكان هناك نظام معين لتوزيع هذه الغنائم البحرية أخذت قواعده العامة من تعاليم الدين الاسلامي

الحنيف . وكان نصيب الحكومة من هذه الغنائم هو الخمس ويؤخذ أولا قبل توزيع الأنصبة الأخرى بل كان على كل سفينة عند عودتها إلى الميناء بعد جولتها البحرية الطافرة الا تحرك شيئا من حمولتها إلا في حضور من يمثل السلطة القائمة لعمل جرد عام بغنائمها واستلام كل ما غنمته من ذخائر وأسلحة ولا يترك لها شيء من هذه الأسلحة إلا القدر الذى يكفل لصاحبها مهمة الدفاع عنها فى رحلته القادمة . ويقدر ما تبديه هذه السفن من نشاط كان يزداد الدخول العام للحكومة والافراد الذين اتخذوا من البحر ميدانا أساسيا لارزاقهم ، وكان لبحارة هذه السفن لباس خاص بهم يساعد على العمل فى البحر يتمثل فى ذلك النعل الذى يشبه القارب تماما وذلك السروال الفضفاض الذى تشده منطقة حول الوسط وقد علقت فيها الخناجر والأسلحة الضرورية وإلى أعلى منه ما يعرف بالصديرى وعلى الرأس عمامة كبيرة تزين تلك اللحية المستديرة وذلك الشارب المعتنى به .

وكانت أكبر صعوبة صادفها اللوبيون فى بناء سفنهم البحرية هى الحصول على الاخشاب والمواد الحديدية اللازمة لذلك ، لفقر البلاد فيها أو انعدامها منها تقريبا . وقد اهتمت البلاد المعادية إلى ما تشعر به لوبيا من احتياج فى هذه المواد . ولكن مع كل هذا استطاعت لوبيا أن تحصل على ما تحتاج إليه منها بشتى الطرق غير ناظرة إلى فداحة الثمن ما دامت الغنائم البحرية تعوض ما تدفعه فى ثمنها . وعن طريق البنادقة كانت لوبيا تحصل على بعض هذه المواد اللازمة لها إذ كانوا يقومون بمهمة تهريب هذه المواد إلى ميناء طرابلس رغم أوامر البابا التى لا تجيز ذلك حتى اضطر دوق البندقية كانديانو الرابع تحت الحاح البابا إلى اصدار أمر بمنع سفن البندقية من شحن اخشاب الى طرابلس يستفيد منها اللوبيون فى صناعة سفنهم ولكن الاثمان المغربية التى كان يدفعها اللوبيون فى مقابل الحصول على مثل هذه المواد ومهارة البنادقة فى تارة التهريب

« الكنترباندو » شجعت المغامرين وطالبي الربح الوفير منهم على اختراق هذا الحظر وتوريد الاخشاب وما يلزم من حديد . واستطاع اللوبيون أيضاً الحصول على الاخشاب من غابات الاناضول وبلاد الشام وبلاد المغرب بحكم انخراطهم في الامبراطورية العثمانية الاسلامية وتعاون أهلها في النشاط البحري لمقابلة العدو المشترك . وهكذا استطاع أهل لوبيا التغلب على أزمة عدم توفر المواد اللازمة لبناء سفنهم وهى شىء هام جداً بالنسبة لنشاطهم البحري ولولا هذا التعاون الاسلامى المشترك لوقفت البحرية اللوبية موقف العجز أمام حصار العدو وارتفاع اثمان هذه المواد عن طريق البنادقة الأمر الذى كاد يصيب السيادة البحرية اللوبية فى الصميم ويقضى عليها .

وسرعان ما شعر القراصنة أن استخدام السفن ذات المجاديف فيه من التعب ما يرهقهم ويفوت عليهم الكثير من أغراضهم إذ أن استعمال المجاديف لتسيير السفن يحتاج إلى عدد كبير من الاشخاص الذين هم بدورهم يحتاجون إلى كميات من الزاد والامتعة يمكن استغلال امكنتها فى حمل ما يحصلون عليه من غنائم وبالتالى يمكنهم تطويل رحلاتهم إلى مدة كافية تساعدهم على الفوز بأكثر ما يمكن الحصول عليه وبقدر ما تسمح سفنهم بحمله . ثم أن الرجال القائمين بمهمة التجديف كثيراً ما كانوا يصابون بالتعب فتكل سواعدهم عن العمل وقد يعرضهم هذا لخطر الهجوم المفاجئ للعدو وقد يفوت عليهم اقتناص غنيمة هامة يعجزون عن اللحاق بها وقد يؤخر عودتهم ويفوت عليهم القيام بأكثر من رحلة واحدة فأعملوا التفكير للتخلص من كل هذه العوائق وهداهم تفكيرهم إلى الاعتماد على الاشرعة فى تسيير سفنهم بدل المجاديف وقد شجعهم مالا قوه من نجاح باتباع هذه الطريقة على تغيير نظام بناء سفنهم وسرعان ما أخذت السفن ذات الاشرعة المتعددة تحل محل سفن المجاديف ابتداء من القرن السابع عشر وبفضل هذا التقدم العملى فى فن الملاحة

أصبح خطرهم الآن أشد وأوسع مجالا ولم يعد محدوداً بحدود البحر الأبيض المتوسط فهبروا مضيق جبل طارق واندفعوا في المحيط الأطلسي شمالاً وجنوباً وبدأنا نسمع عن غارات السفن الإسلامية على جزائر ماديرا Madeira بل وصل نشاط السفن اللوبية شمالاً حتى سواحل اسكندينا فييه والجزر البريطانية وجزيرة ايسلندة الأمر الذي ترتب عليه فيما بعد اتساع الميـدان واستنزاف نشاط القوة البحرية اللوبية والاكتثار من الاعداء وتقوية جبهتهم أمام هذا الخطر المشترك مما عاد بالضرر على البلاد فيما بعد . ولكن نشوة الانتصارات المتتالية ووفرة الارباح الطائلة من الغنائم المتنوعة لم تترك لهم مجالا للتفكير في النتائج الخطيرة لهذا النشاط البحري .

وكانت البلاد المعادية تحاول الرد على مثل هذه الأعمال بالمثل إذا ساعدتها الفرص كما أنها تحاول التغلب على ما ينزل بها من خسارة بأحكام تسليح سفنها واجتناب المياه البحرية المعروفة بكثرة تردد السفن اللوبية عليها وبالسير بمحاذاة الشواطئ وتجنب الايغال في الداخل حتى تكون أقل عرضة للخطر وحتى يسهل أمر نجدها إذا تعرضت لأي سوء يمكن دفعه في الحال . وكانت السفن في العادة تعمل على تجنب خطر القرصنة بالسفر في مجموعات متلاحقة يحمي بعضها بعضاً والويل كل الويل للسفينة الى تعجز عن متابعة زميلاتها في السير أو تضل الطريق في رحلتها لسبب ما فإن الاسر المصير النهائي لها ولهذا لا نعجب كثيراً إذا عرفنا أن الأوربيين كانوا يودعون سفنهم عند الرحيل بعبارة خاصة حملت في طياتها كل هذه المعاني ودلت على ما كان للسفن اللوبية من سطوة في نفوسهم . هذه العبارة التي قالها الاف الآلاف من المودعين على مر السنين والتي سجلت في حروفها وتركيبها الخاص مجد البحرية اللوبية في ذلك الوقت والتي ملأت اصدائها ذلك الفراغ الواسع من الغلاف الجوي فوق مياه البحر الأبيض المتوسط بعد أن اختلطت بالاثـر ورنـت في آذان آلاف

الآلاف من المسافرين تلك العبارة هي « وقا كم الله من سفن الطرابلسيين » (١) وهذا ايضاً ما دعا الرحالة العياشي عند مروره بطرابلس يوم الاربعاء ١٧ رجب سنة ١٠٧٦ هـ في طريقه إلى الأراضى المقدسة من أن يسجل في اخبار رحلته الثالثة للحج ما يأتي « ولأمر هذه المدينة نكاية في العدو دمرهم الله وله مراكب قل نظيرها معدة للجهاد في البحر قل ما تسافر وترجع بغير غنيمة وقل ما اسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد فجزاهم الله خيراً واعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين أجمعين » (٢).

ولكن هذا المجد البحري الذي نالته البلاد لم يكن من غير مقابل فألى جانب ما كلف أهلها من مجهود كبير وتضحية باهظة ونشاط متنوع فوق طاقتها أحياناً جعلها هدفاً لهجمات الأعداء كلها وانتهت فرصة الشعور بالقوة وكلها جد من العوامل ما ساعدتهم على تحقيق امنيتهم في تلك الفترات الضعيفة التي كانت تمر بها البلاد من وقت لآخر والتاريخ يذكر لنا كيف تعرضت مدينة طرابلس لحكم الأسبان الذين اسلموها بدورهم إلى فرسان مالطة إلى أن جاء الاتراك واستخلصوها منهم ويذكر لنا أيضاً كيف تحالفت بعض القوى المسيحية للاستيلاء عليها من جديد (٣) كما يذكر لنا كذلك كيف قامت بعض الأساطيل المعادية بضرب مدينة طرابلس نفسها ومحاولة تحطيم حصونها وقلاعها المتينة كما حدث ذلك في سنة ١٦٧٥ عندما هاجم البحارة اللوبيون سفناً

١ — Micacchi R. La Tripolitania sotto la dominazione dei
Caramanli.

(٢) رحلة العياشي ج ١ ، ص ٦٠

(٣) بيمو : — المجلد في تاريخ لوبيا ص ٨١

للانجليز وغنموا منها ثلاثاً مما أثار غضب البحرية الانجليزية فلم تجد ما يخفف عنها وطأة ألم هذا العمل إلا القيام بغارة حربية على ميناء طرابلس واحراق الوحدات اللوبية الراسية فيه بعد أن قذفت المدينة بمدافعها وكان قائد هذه الحملة الانجليزية السير جون مار بورو Sir John Marborough يساعد اللفتنانت شوفل Lieutenant Shovel وما زالت البحرية الانجليزية تذكر هذا الحادث في سجل تاريخها حتى يومنا هذا . ولكن كان في قوة عزيمة ابناء البلاد واستماتهم في الدفاع عنها وقوة حصون الميناء وسلامة قلاعها وأحكام تسليحها بنظام حربي فني ما كفل لها رد غائلة هذا العدو المغير وغيره في هذه المرة وفي كثير من المرات الأخرى .

والملاحظ أن أثر النشاط للبحرية اللوبية في حياة البلاد لم يقف عند الناحية الدينية والاقتصادية والجنسية بل تغلغل في جميع النواحي حتى أصبحنا نرى أثر ذلك واضحاً في الأدب الشعبي متمثلاً في القصص المتواترة وليس أدل على ذلك من قصة « عسيلة » تلك الفتاة الجميلة المسلمة التي اغتصبها قراصنة الروم وحملوها معهم وكيف استنجدت هذه الفتاة بالولى الصالح عبد السلام الاسمر الفيتورى ببلدة ظليتن وكيف استجاب هذا الولى لاستغايتها وعمل على نجدها وانقاذها من العدو لما له من كرامات وجاه رباني وما زالت حلقات الاذكار في البلاد تترنم بانشودة عسيلة هذه ومطلعها :-

عسيلة يا عسيلة — ما دونك من رقرق مالح

والى ما يفزعش لعسيلة — مهوش ولى صالح

وليس بالغريب أن يصطبغ الأدب الشعبي بحوادث القرصنة وأن يحاول البعض اظهار كرامة الاولياء باثبات بعض الأعمال البحرية الخارقة اليهم خصوصاً فيما يتعلق بالولى الصالح عبد السلام الاسمر الذى عاش في القرن العاشر الهجرى ذلك القرن الذى ازدهر فيه النشاط البحرى للبلاد على أيدي درغوت باشا وأعوانه وخلفائه من بعده .

كان الدور الذى قامت به البحرية اللوبية منذ الفتح الاسلامى حتى بداية القرن الثامن عشر جزءاً من نشاط عام للإمبراطورية الاسلامية فى هذا الميدان ولكن منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادى بدأ هذا الدور يتخذ طابعاً خاصاً ظهرت فيه شخصية لوبيا كوحدة قائمة بذاتها على أتم ما يكون والفضل فى هذا يرجع إلى قيام الدولة القره مانلية التى وضع أساسها أحمد باشا الكبير عام ١٧١١م (١) وكان لاتجاه أحمد باشا إلى الميدان البحرى وتجديد ما كان للوبيين من نشاط فيه أثر كبير فى تدعيم بناء دولته الفتية إذ عرف بذلكه كيف يستغل ما لموقع البلاد من أهمية خاصة فى حوض البحر الأبيض المتوسط فاتجه إليه للاستفادة من موارده بالمساهمة فيما دار على مياهه من نضال بين القوى المسيحية والاسلامية فبدأ بتجديد الأسطول وحسنه وأضاف إليه عدداً كبيراً من السفن الأخرى الحديثة أعاد بها ما كان لساحل لوبيا من أهمية وشهرة أيام درغوت باشا وأعوانه بإعلان الجهاد على السفن الأوربية واستطاع بجارته أن ينزلوا بها الكثير من الخسارة وأن يهودوا مرتلين أناشيد النصر محملين بالغنائم والأسلاب حتى إذا ما أفرغوا حمولتهم على الشاطئ وغمروا أسواق البلاد بالعبيد والسلع ألقوا بسفنهم ليهودوا بها محملة من جديد وهكذا كان النصر يتبع النصر حتى ألقى السفن اللوبية الرعب فى قلوب الأوربيين وقد نجح الأسطول فى هذه المهمة وأجبر السفن الأوربية على الهروب من ملاقاته وهو يتحسسها ويلحق بها الهزيمة إذا ما ظفر بها . ولم تكن هذه السياسة البحرية التى وضع أساسها قاهرة على عهده بل امتدت إلى عهد بنيه من بعده فهذا خليفته محمد باشا قد وجه عنايته الكبرى إلى البحر فأكثر من بناء السفن وتابع الإغارة على السواحل الجنوبية لأوروبا وسفن الأعداء أينما وجدت وأقلق ذلك الدول البحرية فأسرعت إلى عقد المعاهدات مع حكومة لوبيا حتى تأمن على تجارتها نظير دفع

(١) لوبيا فى العهد القره مانلى . موضوع دراسة خاصة للمؤلف سينشره فى القريب العاجل .

سنوية معينة وكانت إنجلترا أسرع هذه الدول إلى عقدها في سنة ١٧٥١ م. وإذا كان عقد مثل هذه المعاهدات يعطينا فكرة صادقة عن مدى تطور القوة البحرية اللوبية ومركزها في البحر الأبيض المتوسط فإنه كذلك يرينا مدى ما وصلت إليه ولاية لوبيا من استقلال ومظهر للسيادة الخارجية إذ أن هذه المعاهدة التي عقدت بين لوبيا وإنجلترا قد عقدت دون علم السلطان بها وقد نصت على عدة شروط كان من بينها منح السفن الانجليزية حق المتاجرة مع موانئ لوبيا وأن تثبت هذه السفن جنسيتها الانجليزية بأوراق رسمية إذا أوقفها إحدى المراكب اللوبية في عرض البحر وأن ترخص حكومة البلاد بزيارة قنصل إنجلترا لجميع الموانئ دون تقييد وألا تساعد حكومة لوبيا اسطول تونس أو اسطول الجزائر إذا اشتبكنا في حرب مع السفن الانجليزية. وترينا هذه الشروط ما كانت تتبعه سفن لوبيا مع سفن البلاد المعادية من احتياطات ومعاملة خاصة عملت حكومة إنجلترا على التخلص منها نظير دفع هذه السنوية. على أننا إذا أمعنا النظر في هذه الشروط وجدناها تحمل في طياتها عوامل اضعاف البحرية اللوبية بإيقاع الفرقة بينها وبين بلاد المغرب الأخرى. ثم جاء من بعده ابنه على باشا فسار أيضاً على نسق هذه السياسة البحرية وتوسع في سياسة عقد المعاهدات الدولية وتجديد القديم منها بخصوص فرض السنوية المالية في مقابل عدم اعتداء البحرية اللوبية وقد شملت دولاً كثيرة بعد أن اقتصر في عهد والده على بريطانيا وكان أهم هذه الانفاقيات ما عقده مع جمهورية البندقية سنة ١٧٦٥ بإبطال الأعمال العدائية بين البلدين وتشجيع التجارة.

واستمر كذلك هذا النشاط البحري بشكل أوسع في عهد ولاية يوسف باشا القره مانلى وبلغت البحرية اللوبية في عهده من القوة ما جعلها تفرض

الاتاوات والهدايا السنوية على معظم الدول البحرية ولم يقتصر نشاطها على البلاد القريبة بل امتد إلى البعيدة منها مثل ايرانده وايسلنده والسويد إذ أنها لم تسلم بدورها من هذه الغزوات وإذا كان اللفتنان كولو نيل جور دن كاسيرلى Lieut-Colonel Gordon Casserly قد علل سلامة السفن النمساوية والروسية من البحرية اللوبية بقرعها من تركيا التي تخشى بأسهما فإن هذا على كل حال ما يؤيد براءة النشاط البحري من النهب والسلب في العهد القره مانلى وإلا لما فرقت البحرية اللوبية بين ما يصادفها من سفن بحرية سواء أكانت معادية أم صديقة مسيحية أو اسلامية . وكان على الأسرة القره مانلية أن تمد يد المعونة للدولة العلية في جهادها المستمر ضد الأوربيين وقد ارتبط أفرادها بها دينياً فضلاً عن الاعتراف بسيادتها التي مهما تضاعفت لا يمكن اغفالها أو التخلي عنها إذا ادلهمت الاخطار . والخلاصة فإنه حكم عام دون عمل أى اعتبار للمخالفات المحدودة لم تهجم سفن القره مانليين إلا سفن الدول التي لم تكن قد ارتبطت بمعاهدات معهم كما يذكر لنا ذلك الأستاذ جونستون في كتابه الخاص عن تاريخ استعمار افريقية «١» وإذا حدث أن هاجمت السفن القره مانليه سفينة من السفن الحليفة فإن ذلك في الغالب لما تحمله من بضائع يملكها أعداؤهم .

وكانت حالة الدول الأوربية في ذلك الوقت خير مشجع للقره مانليين وغيرهم على التمدد في هذا النشاط البحري فهي في نزاع مستمر فيما بينها من أجل التوسع الاستعماري فضلاً عن أن معظمها كان يعاني حالة داخلية مضطربة هي الثورة بعينها أو ما يقرب منها بعد قيام الثورة الفرنسية وما خلفته من مبادئ وتعاليم تتعارض ونظم الحكم السائدة في ذلك الوقت . كل ذلك صرف

جهود الحكومات الأوربية الى الميدان الداخلى قبل أن تتجه الى القضاء على الخطر الخارجى الذى تعودته من قبل ولهذا لم تتحد قواتها أمام خطر القراصنة وإن أجمعت كلها على ضرورة مقاومة القرصنة والقضاء عليها ووضع حد لها باتخاذ إجراء حازم ولكن أى هذه الدول كان يملك الشجاعة الكافية ويجرب حظه فى هذا الميدان؟ كان حالها جميعا أشبه بحالة الفيران التى أجمعت على التخلص من عدوها القط بعد أن قاست الويل منه بتعليق الجرس فى عنقه « belling the cat » ولكن من منها يجرؤ على القيام بهذه العملية؟ وكان حكام الشمال الافريقى ومن بينهم باشاوات لوبيا يعرفون هذه الحقيقة ويضحكون من غضب الدول الأوربية الأجوف وتهديداتهم الفارغة وقد تمكنت هذه الحالة فى نفوسهم على مر الايام وشجعتها على المغالاة فى طلباتهم فى مقابل حماية السفن الأوربية من الاعتداء وكان لهم فى حروب نابليون التى شغلت أوربا فى ذلك الوقت مدة طويلة والى الهت الشعوب الأوربية بهذا العدو المشترك ما شجعهم على التمدادى فى هذه السياسة الى أن جد من الاحداث ما كان له دور كبير فى الحد من السيادة البحرية اللوبية والقضاء عليها فيما بعد. وكان رئيس البحرية اللوبية فى العهد القره مانلى يتمتع بمكانة عظيمة أهله فى كثير من الاحيان إلى مصاهرة الاسرة الحاكمة كما حدث فى عهد ولاية على باشا القره مانلى عندما زوج صغرى كريماته الثلاث من رئيس بحريته (١) وكما حدث أيضاً فيما بعد فى عهد يوسف باشا (٢) عندما زوج ابنته من مصطفى قورجى الذى كان يشغل وظيفة قيادة الاسطول البحرى والذى استطاع أن يجمع ثروة كبيرة خصص بعضاً منها فى بناء جامعها الذى يحمل اسمه الى الآن

1 - Richard Tully : Narrative of a ten years residence at Tripoli in Africa, P. 30.

Encyclopaedia of Islam, vol. Iv, article (Tripoli).

والذى تم تشييده فى (١٢٤٩ هـ - ١٨٢٣ - ١٨٣٤ م) كل هذا يوضح لنا أهمية البحرية اللوبية فى ذلك العهد وعلو مرتبة رئيسها .

كان ظهور الأسطول البحرى للبلاد فى البحر كافيا لانزال الرعب فى قلوب الأعداء وتوليتهم الادبار بل كان شبحه كافيا فى كثير من الحالات لانزال هذا الرعب ولنا فى قصة القصاع المشهورة (١) ما يؤيد لنا ذلك اذ حدث أن تعرضت مدينة طرابلس لهجوم بحرى من احدى الدول المعادية فاستشار يوسف باشا وزيره الحاج محمد بيت المال فى هذه الازمة للتخلص منها ولما كان الاسطول البحرى غائبا عن البلاد لقيامه باحدى جولاته فقد اهدى الوزير إلى حيلة طريفة كان فى تنفيذها ما حقق الغرض المطلوب . أشار الوزير على الباشا باعداد عدد كبير من القصاع مع ربط كل اثنين منها مع بعضهما ووضع مصابيح فيها مع اضافتها ليلا بعد وضع هذه القصاع فى البحر الى الشرق من مدينة طرابلس عند المنطقة المعروفة برأس الهنشير وما كاد العدو يصل ليلا بسفنه إلى ميناء طرابلس ويرى هذه الأضواء المتعددة فى البحر وقد اخذت الامواج تداعبها حتى ظن أن أسطول الباشا قد عاد من إحدى غزواته الموفقة فلم يجرؤ على تنفيذ غرضه وفضل الهروب على منازلة هذه القوة البحرية وهكذا كان فى هذه الحيلة الماهرة وفى ما للبحرية اللوبية من سمعة قوية مافوت على العدو غرضه فى هذه المرة .

وكان انزل السفن الجديدة إلى البحر فى العهد القره مانلى يتم وسط احتفال عام تنظمه وتشرف عليه الحكومة وتدعو إليه عليه القوم ومن ترى ضرورة

١ — هذه القصة منقولة عن السيد على القره مانلى وقد أكد صحتها بورودها فى إحدى الوثائق التاريخية التى اعارها المرحوم اسماعيل كمال وقت ان كان مشرفا لدار الوثائق الى الاستاذ مكاكى الايطالى للاستعانة بها فى تأليف كتابه عن القره مانليين ولكن السيد على القره مانلى يؤكد لنا بأن هذه الوثيقة لم ترجع الى دار الوثائق كما أن الاستاذ مكاكى لم ينشرها فى كتابه الذى افقه عن القره مانليين

حضوره ويتم انزال السفينة وفق مراسيم خاصة وقد جاء وصف احدى الحفلات التى تقام لمثل هذا الغرض فى احدى الرسائل التى احتفظت بها عائلة ريتشارد تولى Richard Tully القنصل البريطانى فى بلاط على باشا القره مانلى فهى تقول بأن المسيحيين قد دعوا بالأمس (أى ١٩ ديسمبر سنة ١٧٨٤ لأن الخطاب مؤرخ فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٧٨٤) لحضور الاحتفال بانزال إحدى سفن الباشا إلى البحر وهى فرصة نادرة قل أن تسمح بها الظروف فى كثير من الأحيان ثم تقول الرسالة أنه فى اللحظة التى تم فيها انزال السفينة من الترساة إلى البحر كان هناك عبد اسود قد اقتيد وسم فى مقدمة السفينة حتى يكون ذلك فالأحسن للسفينة وهى فى طريقها إلى البحر وقد تم انزال السفينة بين مظاهر الفرح والسرور وتعانق الافراد واحتشدوا حتى عجز الوزير الأول «مصطفى» عن رؤية عملية تسمير ذلك العبد السيئ الطالع ولكن ربما كان ذلك لكثرة الازدحام أو لانشغاله بشىء آخر وقت اتمام هذه العملية . كما جرى بخروف أبيض اللون يفوق فى بياضه الثلج وقد زين بالزهور وحمل الى ظهر السفينة . وفى اللحظة التى بدأت فيها السفينة تنزل الماء تم نحره وقدم قربانا لله تفاؤلا بالمستقبل الزاهر للسفينة . تم كل ذلك وسط تحية الاعلام والمدافع على الشاطئ ومن طرف جميع السفن المختلفة الراسية فى الميناء .

ولا يفوتنا فى هذه المناسبة أن نذكر فضل المخلصين من رجال يوسف باشا البحر بين الذين وقفوا بجانبه وعملوا فى الميدان البحرى وفى مقدمتهم الرئيس مراد Murat Rais الاسكتلندى الأصل والذى كان يسمى باسم بطرس ليزلى Peter Lyslee وقت إن كان يعمل كببحار فى احدى السفن الانجليزية التى اعتادت التردد على ميناء طرابلس من وقت لآخر لشئون تجارية وقد قدر له أن يتهم

بنهب بعض ما كانت تحمله تلك السفينة فدفعه الخوف على نفسه من العقاب الصارم إلى الالتجاء إلى الباشا والاحتماء بقلعته وبالتالي إلى اعتناق الدين الاسلامى وسرعان ما عرف يوسف باشا موهبة البحرية فقدرها وعمل على استغلالها لمصلحة اسطوله البحرى واسند إليه مهمة قيادة احدى السفن البحرية من الاسطول اللوى وسرعان ما أخذ يترقى فى هذا الميدان إلى أن بلغ أرقى الرتب وأشتهر باسمه كقرصان ماهر استطاع أن يعود بالكثير من الغنائم فى رحلاته المتعددة الموفقة وقد تعلمذ على يديه الكثير من البحارة المهرة فى اسطول يوسف باشا وكان من بين تلاميذه الرئيس الشيللى Rais Shelly اللوى الأصل والذى كان من بين القراصنة المشهورين فى حوض البحر الأبيض المتوسط وفى القصة التى يذكرها لنا الرحالة بلاكييرى Blaquiére فى رسالته الخامسة من الرسائل التى بعث بها من طرابلس الى لندن فى ذلك الوقت ما يبين لنا شجاعة هذا الرئيس وإلى أى حد ذهبت به المخامرة البحرية .

كان الرئيس الشيللى Rais Shelly يقوم باحدى جولاته البحرية الموفقة عندما صادفته احدى السفن النمساوية الكبيرة وهى فى طريقها من ميناء أزمير إلى جزيرة مالطة وقد استأجرها بعض التجار البريطانيين . ولما كانت هذه السفينة النمساوية متقنة التسليح وت فوق سفينة الرئيس الشيللى فى هذه الناحية وجد من الضرورى أن يلجأ إلى الحيلة لتحقيق بغيته وهى الاستيلاء عليها كغنيمة فنادى على السفينة النمساوية واخبر ربانها بعبارات ودية بأنه قد فقد قاربه اثناء احدى العواصف الهوائية القوية ولذلك أصبح فى حاجة ملحة لقارب آخر بدل القارب المفقود وطلب منه اعارته قارب من عنده . لم يتطرق الشك إلى الربان النمساوى فى هذه السفينة الطرابلسية فدعا ريسها إلى ظهر سفينته وتلطف معه وأظهر له كل الاستعداد لمدة بما يحتاج إليه . ولكن الرئيس الشيللى الحذر كان قد استعد لما نوى القيام به فاصطحب معه عدداً من اتباعه المسلحين

وأخذ يتظاهر بالود والصداقة مع الربان النمساوى وهو يتمشى على ظهر السفينة ويختبر القوارب مظهر أعجابه بكل شئ يراه وأخيرا وبعد أن فحص جيدا القوارب الموجودة على ظهر السفينة التفت إلى ربانها قائلا « أنى أجد القوارب لا تنفى بالغرض الذى اقصده ولكن السفينة تحقق ذلك وهى ستذهب معى الى طرابلس » ولم يستطع الربان النمساوى ابداء أى مقاومة لفوات الوقت واستطاع الرئيس الشيللى بذلك أن يقود السفينة الى طرابلس حيث صودرت حمولتها . ويعلق الرحالة بلا كويرى « Blaquiére » على هذه القصة التى دلت على روح المغامرة وجرأة البحارة اللوبيين فى ذلك الوقت حتى أنها أصبحت أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة وحتى أصبح أمر ذكرها لا يصدقه العقل فيقول « إن القصة صحيحة بكل تأكيد ... (١) »

...

...

...

وإذا كانت البحرية اللوبية فى العهد القره مانلى بصفة عامة قد بلغت من القوة ما مكنها من اثبات وجودها فى حوض البحر الأبيض المتوسط بل وجعل كلمتها هى الأولى فى كثير من الحوادث فإنها فى عهد يوسف باشا بصفة خاصة كان لها شأن آخر اذ قدر للبلاط فى عهده أن تبلغ فى هذه الناحية أقصى ما يمكن الوصول إليه وكان لذلك أثره القوى فى حياة البلاط وانتعاشها فى الداخل والخارج إلا أن العوامل الهدامة سرعان ما تضافرت فى العمل على هدم ما شيده الاسبقون كما تضافر الاعداء وكثر عددهم وأخذوا فى مهاجمة يوسف باشا وسياسته فى أواخر أيامه وهكذا قدر للبلاط فى عهده ايضا أن ترى بداية تحطيم مجدها البحرى العظيم وقد سبق لنا أن ذكرنا أن التمداد فى هذا

الدشاط البحري والتوسع في ميدانه كان من العوامل التي أدت فيما بعد إلى التمهيد للقضاء على البحرية اللوبية بسبب تكاثر الاعداء واستنزاف الجهود وشاء القدر أن يكون ذلك في أواخر عهد الدولة القره مانلية وفي عهد يوسف باشا بالذات وعلى يد دولة ناشئة حديثة العهد لم تكن قد لعبت في الميدان الدولي دوراً بارزاً بل كانت تعتبر حتى ذلك الوقت من الدول الثانوية . تلك الدولة هي دولة الولايات المتحدة الأمريكية المتحفزة التي اصطدمت بدورها كما اصطدم غيرها بالبحرية اللوبية والتي حان دورها لتقوم بعملية « تجريس القط Belling The Cat » بعد أن أخذ الخوف والهلع ببقية الفيران مأخذه . وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد عانت الكثير من سطوة رجال البحرية المغربية ورضخت في كثير من الاحوال للشروط التي فرضها على سفنها حكام الشمال الافريقي ومن بينهم أفراد الاسرة القره مانلية فإنها لم تفعل ذلك يأساً منها بل كانت تسير الوقت والعرف السائد حتى يشتد ساعدها . وقد كانت بعد نضالها المرحل الطويل العهد مع بريطانيا حديثة العهد بالاستقلال ومشاكله وما يستلزمه . كان عليها أن تهتم أولاً وقبل كل شيء بوضع الاسس الصحيحة لدستورها الذي ستسير بمقتضاه والذي توفر به حياة سعيدة لآبناء ولاياتها المتعددة . وكان عليها أن تعمل على حل مشاكلها الاقتصادية التي سببتها لها حرب الاستقلال . وكان عليها أيضاً أن تهتم بأمر جيشها وبحريتها حتى تجرؤ على الوقوف مع غيرها في هذا المضمار إذا دعت الضرورة وما أكثر الضرورات أمام كل دولة تمر في مثل هذا الدور !!

ولكن الولايات المتحدة الأمريكية وهذه حالها استطاعت بفضل عزيمة أبنائها وحكمة رؤسائها المسيرين لدفة أمورها أن تخطو خطوات سريعة موفقه في تقوية نفسها وقد عرف الرئيس جفرسن أثناء ولايته لرئاسة الجمهورية للمرة الثانية كيف يستغل الظروف لمصلحة وطنه فوقف

موقف الحياء من الصراع الهائل الذى قام بين بريطانيا العظمى وفرنسا فى ذلك الوقت إبان حروب نابليون فكان فى هذا الحياء احتفاظ بالقوة الناشئة لليوم الموعود .

وهكذا أيضاً قدر لدولة لوبيا وقد تدهور حالها فى آخر العهد القره مانلى أن تكون الخصم لدولة الولايات المتحدة المتحفزة وهكذا كانت المقابلة بين دولة قد شاخت ولعب الضعف بأسسها ودولة فتية متحفزة لأبنائها طموح ورغبة فى المجد بعد أن عانوا الكثير من الذل والهوان بحكم تبعيتهم للغير . ويشاء الطالع الحسن للبحرية الأمريكية الناشئة أن تجرب حظها مع بحرية لوبيا الآخذة فى التدهور فكان ذلك خير حافز لها على تقوية نفسها إذ كانت الهزيمة لها هنا تجربة جديدة والنصر الذى تحرز به خير مدعم لقوتها . ولو قدر للبحرية الأمريكية فى أول نشأتها أن تصطدم بالقوة البحرية اللوبية إبان عنفوانها قبل أن يتدهور حالها فى آخر عهد يوسف باشا لكان حالها غير هذا الحال ولتغير مجرى تاريخها ولكن هذا ما حدث وكان .

دفعت الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من مليون دولار اسباني «١» إلى جانب ما كانت تقدمه من هدايا فى مختلف المناسبات ومن سنوات كبيرة معينة فى سبيل حماية مرفئها من تعدى البحرية المغربية وكان الشعب الأمريكى يغضب لهذا الدفع ويطالب الكونجرس Congress بضرورة الإسراع فى بناء الأسطول البحرى اللازم حتى يمكن للدولة الناشئة أن تحافظ على كرامتها أمام الأعداء وكانت أخبار هذه المطالبة تصل بدون شك إلى حكام الشمال الأفريق فينزعجون لها ويتخوفون منها بعد أن استمر أوا السفن الأمريكية بغنائمها ورأى يوسف باشا أن يستعجل الفرصة قبل فواتها بظهور البحرية الأمريكية

بعد تقويتها وشجعه على هذا ما كان يهانيه من أزمة مالية وطالب باتاوة سنوية من الولايات المتحدة الأمريكية كما كانت تدفع له إنجلترا وفرنسا واسبانيا «١». ونادى يوسف باشا القنصل الأمريكي وتحدث معه بخصوص ضرورة تقديم سنوية أمريكية كسببية الدول التي يهملها حماية مصالحها البحرية وكما تفعل دولته مع تونس والجزائر وقد أبلغ القنصل الأمريكي نبأ مقابلته مع الباشا لدولته وذكر لها التفاصيل وكان في رد يوسف باشا على الرسالة التي تلقاها من رئيس الجمهورية الأمريكية بهذا الخصوص ما يبين لنا الخطوط العامة للسياسة البحرية التي انتوى السير عليها مع السفن الأمريكية إذا لم يجب إلى طلبه إذ جاء في رسالته ما يأتي «ويمكننا أن نسأل أن تعبيرا تك هذه يجب أن تتبعها الأعمال لا الكلام الأجوف ولهذا يجب أن تسعوا لا قناعنا بطريقة حسنة للتنفيذ... أما إذا كان الأمر مجرد كلام يعنى التملق دون التحقيق فكل منا سيعمل حسب ما يقتنع به (٢)» وكان خطاب رئيس الجمهورية الأمريكية ليوسف باشا قد حوى الكثير من كلمات الود والتقرب.

ويبدو أن يوسف باشا كان عند كلمته التي قالها في خطابه الشبيه بالانذار الموجه إلى رئيس الجمهورية الأمريكية إذ سرعان ما أعلن الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية يوم ١٤ ماير سنة ١٨٠١ (٣) بعد أن فشلت وسائل التفاوض بخصوص المبلغ الذي يجب دفعه إذ أصر يوسف باشا على ضرورة دفع مبلغ ٤٠٠.٠٠٠ قرش في الوقت الذي أظهر فيه الأمريكيون استعدادهم لدفع مبلغ ١٢٠.٠٠٠ قرش لا غير (٤). وأنزل القنصل الأمريكي في طرابلس علم بلاده

1 — Lane-Poole: The Barbary Corsairs,, P. 275.

2 — » » » » » P. 275.

3 — » » » » » P. 276.

4 — The Sunday Ghibli, Sunday August 29, 1948, No. 95, Printed and published by the Government Press, British Military Administration, Tripolitania”.

في الوقت الذي كان الشعب الامريكى يتظاهر في عاصمة بلاده مطالباً باتخاذ الاجراءات الحربية الحاسمة دون دفع أى « سنت » كجزية مفروضة وكانت هناك عبارة واحدة تجرى على السنة الجميع في ذلك الوقت وهى « الاف الالاف للدفاع ولا سنتا واحداً للجزية Millions for defence, but not one cent for

tribute « ١ »

عند ذلك لم تجد الولايات المتحدة الامريكية أمام هذا الخطر الذى يتهدها وأمام تيار الشعور الجارف لانبائها إلا أن تتخذ خطوة عملية لايقاف مثل هذا التهديد وكان عليها أن تستعد لذلك العمل الايجابى بتقوية أسطولها البحرى وفى نفس الوقت لجأت إلى المفاوضة بطريقة أخرى كسبا الوقت حتى تتهيأ فرصة للعمل الايجابى فسعت إلى فتح باب المفاوضات مع الباشا فى سبيل الوصول الى التقليل من المبلغ الذى أصر عليه فى مقابل ارضائه وقد قام بهذه المهمة ولیم ايتون William Eaton الذى تم تعيينه كقنصل للولايات المتحدة الامريكية لدى بلاط باى تونس واعطيت له التعليمات اللازمة فى هذا الخصوص للاتصال بتمنصل لوييا فى تونس حال وصوله والتفاهم معه على الطريقة المثلى للقضاء على سوء التفاهم الناشئ بين البلدين وما يترتب عليه من نتائج خطيرة .

وكان ولیم ايتون William Eaton هذا قد بدأ حياته العملية كمدرس ثم التحق بالجيش وترقى فيه الى أن وصل الى رتبة اليوزباشى Captain واشترك فى محاربة الهنود الحمر فى جورجيا Georgia وفى أوهيو Ohio ثم سرعان ما غير مجرى تاريخ حياته عندما بلغ الثالثة والثلاثين من عمره اذ ترك حياة الجندي وهام بحياة السفر والتجوال وكانت بلاد المغرب فى ذلك الوقت قد احتلت المكانة الأولى من تفكيره لانشغال الرأى العام بأخبارها وتفاصيل التقارير التى

كانت تأتي بخصوص الهجوم المستمر على السفن الأمريكية من طرف القراصنة المغاربة وكان القلق ينتابه لما يسمع وتدفعه غريزة حب الاستطلاع الى معرفة مدى الصحة في القصص التي يسمعا حول الاسرى من البحارة المسيحيين وطريقة معاملتهم ولذلك التحق بالبحرية الأمريكية وجرب حظه من جديد وأبحر الى الشمال الأفريقي على ظهر سفينة حربية . وكثيرا ما كان يمضي الوقت على ظهر السفينة متطلعا إلى الأفق والمنظار المكبر في يديه باحثا عن أى سفينة مغربية ربما تحاول الهجوم على سفينته ولكن دون جدوى لأن القراصنة المغاربة في ذلك الوقت كانوا يعرفون كيف يصطادون فريستهم ويتجنبون خطر مثل هذه السفينة الحربية وغيرها . ولهذا واصلت السفينة الحربية سيرها على خطها المرسوم والعلم الأمريكي ذو النجوم والأشرطة يرفرف عليها وهي تحاذي الساحل الأفريقي حتى ميناء تونس وهناك انتابته الدهشة لما رأى من عالم جديد يختلف عما تعودته وعاودته حياة الدرس والتدريس من جديد فانصرف بعض الوقت الى دراسة اطلال قرطاجة وتطبيق مآراه على ما كان قد تعلمه في دروسه التاريخية . وفي تونس تشرف ولیم ایتون William Eaton بمقابلة « البای » وشعر بضيق لما وجده من معاملة خاصة اثناء القيام بهذه الزيارة مما أثار في نفسه عوامل الحقد والكراهية للمغاربة إذ أنه فسر هذه المعاملة بأنها موجهة في حد ذاتها إلى جمهوريته الناشئة التي أقي لتمثيلها . وفي تونس ايضا التحق به قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في مدينة الجزائر بأمر من حكومته بقصد التوجه سويا إلى يوسف باشا بطرابلس لمحاولة التفاهم معه من جديد بخصوص العلاقات بين البلدين ولكن كل ذلك دون جدوى لأن يوسف باشا أصر على حتمه في طلب أى شرط يراه في مقابل حماية السفن الأمريكية من الاعتداء عليها من بحريته وانتهت المفاوضات بالفشل وعاد كل من القنصلين الى مكان عمله ولكن ولیم ایتون كان اثناء اقامته القصيرة بطرابلس قد استطاع

عن طريق أحد الأشخاص الاتصال بشخص كان له دور كبير فيما جد من تطور في العلاقات اللوبية الأمريكية . ذلك الشخص هو « سيدى أحمد بك » شقيق يوسف باشا والوريث الشرعى لعرش ولاية لوبيا بحكم سنه . واستطاع وليم ايتون بعد أن عرف قصة اغتصاب العرش منه أن يحرك مافى نفسه من شجون بهذا الخصوص وأن يمنية بالعودة إلى عرشه اذا سمحت الظروف المقبلة للقيام بعمل حاسم ضد يوسف باشا .

وعندما عاد وليم ايتون الى تونس بدأ يتعلم اللغة العربية حتى اذا أتت الفرصة وجد نفسه على أتم استعداد وكانت العلاقات بين البلدين قد ازدادت سوءا وواصلت البحرية اللوبية هجومها على السفن الأمريكية دون توقف وعبثا حاول الأمريكيون تهديد الباشا بضرب مدينته اذ أنه لم يحرك ساكنا متمداً على قوة حصونه واستعداد قلاع المدينة لمثل هذه الطوارئ . كان يعتقد أن التهديدات الأمريكية ماهى إلا مجرد كلمات جوفاء لا معنى لها كثيرا مانعود مثلها في السابق . عندئذ رأت الولايات المتحدة الأمريكية أن تخطو خطوة عملية بعد أن استعدت لذلك فأعدت ثلاث حملات حربية كان أولها بقيادة دالى Dale ولكن مسيرها لم يتم لأن اعلان الحرب الهجومية لم يكن من صلاحية رئيس الجمهورية بل من اختصاص الكونجرس Congress حسب ما نص عليه الدستور الأمريكى . أما الحملة الثانية فقد خانها الحظ وهى فى الطريق فعاد افرادها دون أن يحققوا الغرض من ارسالها . وفى سنة ١٨٠٣ م وصلت الحملة الثالثة إلى جبل طارق تحت قيادة كومودر ادوارد بربل Commodore Edward Preble وكان هدفها ميناء طرابلس بالذات وفى الطريق أراد قائد الحملة أن يختبر قوته قبل اللقاء المقبل فكان لهذه الحملة شأن أن مع سلطان مراکش إذ استطاع أن يهدده ويحبره على تجديد الاتفاقية التى أمر بها أبوه من قبله سنة ١٧٨٦ واتخذ معه موقفاً ايجابياً الأمر الذى دفع السلطان إلى التصريح بأن

« صداقته لأمريكا ستظل دائمة الى الابد . » وما وصل بربل Preble الى هذه النتيجة إلا بفضل ما معه من قوة استطاع بعدها أن يطمئن إلى نتيجة أعماله المقبلة وأن يخفف من هول ما هو مقبل عليه من عمل جدى لا يعلم مداه . ولم يخاطر بربل Preble بكل قوته البحرية بالهجوم على ميناء طرابلس بل اقتصر على ارسال وحدتين من سفنه وهما السفينة U.S.S. Philadilphia والسفينة فاكسن Vixen وكانت الأولى مسلحة بست وثلاثين مدفعا يتولى قيادتها وليم بينبردج William Bainbridge وهو بحار جرىء التحق بسلك البحرية منذ حداثة سنه عندما كان فى الرابعة عشر من عمره . وعند ما نظمت الولايات المتحدة الناشئة بحريتها سنة ١٧٩٨ رقى إلى رتبة كابتن وكان عليه أن يقوم بمهمة الهجوم على ميناء طرابلس ولكن هذه المهمة ليست بالسهلة على « فيلادلفيا » خصوصا وأن مدافعها كانت من النوع الخفيف ومدى مرماها كان محدوداً بالنسبة لتلك المدافع المنصوبة على القلاع الساحلية والاسوار الحائطية للقلعة الكبيرة وكان جهل قائدها بعمق مياه الميناء إلى جانب ما يوجد فيها من صخور قد زاد فى صعوبة مهمتها وأبّت الرياح إلا أن تشتبك فى خلق المصاعب أمام بينبردج Bainbridge وسفينته اذ هبت بعض الرياح الشديدة التى دفعت السفينة الى الشرق من ميناء طرابلس وتقابل قائدها اثناء محاولة الرجوع الى ميناء طرابلس مع قارب خفيف من البحرية اللويية فانصرف الى مطاردته واثناء هذه المطاردة استطاع القارب أن يلجأ الى الميناء وساعده على ذلك معرفة قائده للهرات المائية التى يمكن أن يسلكها فى طريقه الى الداخل وكان فى فرار هذا القارب ما أطمع بينبردج Bainbridge فى مواصلة مطاردته ومحاولة اللحاق به دون عمل أى حساب لحالة الميناء وما فيه من صخور وأما كن ضحكة لا يتناسب عمقها مع حجم سفينته وهكذا وجد القائد نفسه فى موقف لا يحسد عليه عندما جنحت سفينته وتوقفت عن العمل بسبب الاستمرار فى مطاردة هذا القارب الذى نجا

بمهاره ريسه . وعيشاً حاول بينبردج Bainbridge بمساعدة بحارته زحزحة « فيلادلفيا » من مكانها فى الوقت الذى بدأت فيه قوارب اللويين تمكث علىها وتهاجمها وفى الوقت الذى كانت فيه مدافعها تتبادل الطلقات مع مدافع القلعة دون جدوى لقصر مدى مرماها . وخر بعض بحارتها صرعى على ظهرها وأخيراً اضطر القائد إلى التسليم بعد التشاور مع بقية زملائه وبعد اغراق المخازن بالمياه وخرق قاع السفينة .

وهكذا كان مصير هذه المحاولة الامريكية الأولى من نوعها مع البحرية اللوية أيام آبائنا . عندما كان العرب شعباً قوياً ١ ، (١) كما قال العواشى El-Ouachy ذلك الرجل المسن للزائر الامريكى المستر تشارلز ولنجتون فورلنج Charles Wellington Furlong عند زيارته لمدينة طرابلس سنة ١٩٠٤ لمحاولة تحديد موقع حطام هذه السفينة السيئة الطالع بالاستعانة بمعلومات هذا الشيخ من أهالى المدينة .

كان لهذا الفشل الذى منيت به البحرية الامريكية اثره الفعال فى زيادة الروح المعنوية لحكومة لوييا وشعبها بعد أن كاد اليأس يتطرق الى مقدره بحرية البلاد ولأول مرة فى تاريخ البلاد تقع سفينة حربية امريكية فى الأسر وهى التى جاءت لتخويف من اسرها وأظهر ما لحكومتها من سطوة بعد أن تأبت عن دفع ما طلب منها من اتاوة وقد افتخر يوسف باشا بهذا الحادث وما ترتب عليه من نتائج واعتبره انتصاراً له ضد اعدائه وفكر فى استغلال هذه السفينة فعمل على تعويمها . ويقول لنا الاستاذ لين پول فى كتابه السابق الذكر أنه فى ظرف اسبوع واحد تم للبحارة اللويين تحقيق هذا العمل وقد ساعدتهم الرياح كما استعانوا بالجزر البحرى الغير عادى فى ذلك الوقت وعملوا على إصلاح ما بها من خرق وتم سحبها الى الميناء وقدر لقائدها بينبردج Bainbridge وهو

اسير القلعة المطلة على البحر أن يرى سفينته وقد رست في المكان الذي كان يجب عليه أن يرسى فيها فيه . وبدأت افواج الشعب من عرب الدواخل والقرى المجاورة تفد على الميناء لمشاهدة مصير هذه السفينة التي حاولت المس من كرامة بحريتهم بالاعتماد على مينائهم وقلعها وكانوا كثيراً ما يستأجرون القوارب الصغيرة لعمل جولات بحرية استطلاعية حولها وقد رفع عليها علم البلاد الاسلامي ذو النجمة والهلل بعد أن كان يرفرف عليها العلم الأمريكي واستخدمت الحكومة ما تبقى من مدافعها على ظهرها في اطلاق النار اعلاناً بقدم شهر رمضان ونهايته وبداية ايام عيد الفطر وقد تصادف ان كان اسرها في ذلك الوقت . والخلاصة أن أسر هذه السفينة ترك أثراً قوياً في نفوس الشعب عامة والحكومة خاصة بدرجة لا يمكن تبينها ويكفي أن نعرف أن يوسف باشا كان يسخر من وزيره الحاج محمد بيت المال ويشد في سخريته كلها نبيه إلى ضرورة محاولة الأمريكيين انقاذ هذه السفينة والاستعداد لمواجهة مثل هذه المحاولة أو غيرها .

وكان لهذا الحادث أيضاً صدها في بقية الشعوب الأوربية وإن كانت في ذلك الوقت في شغل شاغل عنه بحروب نابليون واطارها إلا أنها رأت فيه انذاراً قوياً لكل الحكومات المسيحية التي ترفض الخضوع لطلبات حكام الشمال الافريقي بصفة عامة ويوسف باشا بصفة خاصة . وكان أيضاً لهذا الحادث أثره الفعال في كل بلاد المغرب اذ قابله الاهالي بفرح واستبشروا به وتناقلوه على اللسان مما شجعهم وبعث فيهم الأمل قوياً بعدما شاهدوه من عمل القائد الأمريكي بربل Preble مع سلطان مراکش قبل هذا الحادث مباشرة كما سبق بيانه .

أما واشنطنون العاصمة الأمريكية وشعبها الناشئ . فقد تلقت خبر هذه السفينة بحزن شديد واكتسحتهم موجة من الغضب وطالب الشعب بعمل

حاسم لرد هذا العار الذى لحقهم وكان هذا الشعور أقوى ما يكون لدى رجال البحرية الأمريكية انفسهم . أما القائد العام بربل Preble الذى وكل إليه أمر هذه الحملة وتنظيمها والذى كلف بينبرج للقيام بالهجوم على ميناء طرابلس فقد وصل إليه خبر هذا الحادث وهو فى طريقه الى طرابلس من بارجة بريطانية تقابل معها عند صقلية وكان حادث السفينة « فيلادلفيا » بالنسبة له ضربة قوية فهو إلى جانب ما رأى فيه من عار للبحرية الأمريكية التى يتولى أمر قيادتها فى هذه المهمة قد سبب له خسارة كبيرة يصعب عليه تعويضها إذ كانت هذه السفينة تمثل أكثر من ثلث قوته المحاربة كما أن كثرة عدد بحارتها المأسورين إلى جانب قائدها قد أعطى يوسف باشا فرصة ذهبية يستطيع بها المساومة فى المفاوضات المقبلة واملأ الشروط التى يرغبها .

فكر بربل Preble فيما حل به من هزيمة بحرية وصمم على القيام بعمل حازم يرد إليه على الأقل كرامة بحريته المخدوشة ورأى أن يكون ذلك بتحطيم السفينة المأسورة بعد أن رأى من الصعب عليه استعادتها حتى لا تستفيد منها البحرية اللوية فيما بعد ووقع اختياره على الضابط الشاب ستيفن ديكاتور Lieutenant Stephen Decatur الذى كان يقوم بقيادة السفينة Intrepid للقيام بهذه المهمة على أن تقوم السفينة سيرن Siren بقيادة اللفتنانت تشارلز ستورت Lieutenant Charles Stewart بحراسة هذه السفينة اثناء القيام بهذه العملية وتغطية انسحابها ومساعدتها إذا تكاثرت عليها قوارب العدو . واستعد ستيفن ديكاتور لتنفيذ ما كلف به خير استعداد باختيار الرجال الشجعان والمواد الضرورية لمثل هذا العمل . وابتحرت السفينة Intrepid من سيراكوزة فى اليوم الثالث من شهر فبراير سنة ١٨٠٤ فى طريقها إلى طرابلس وكان لهذه السفينة نفسها تاريخ وعلاقة قديمة بالبحرية اللوية فهيكلاها الاصل كان لسفينة حربية فرنسية أسرها الانجليز فى ساحل مصر إبان غزو نابليون لها وقدمتها البحرية الانجليزية هدية الى بحرية يوسف باشا ثم استطاع هذا الضابط الأمريكى ديكاتور Decatur أن

بأسرها وهي في طريقها الى القسطنطينية محملة بهدية من الجوارى للوزير الأكبر وهكذا آلت ملكيتها للبحرية الامريكية وأن تقوم بهذه المهمة .

وشاءت الظروف أن تهب ريح قوية دفعت بالسفينة الى الشرق من ميناء طرابلس هذه المرة كذلك حتى اوصلتها الى خليج سرت . ولكن قائدها استطاع أن يتغلب على هذه العاصفة وأن يعود إلى ميناء طرابلس حيث ظهرت له المدينة في اليوم السادس عشر من شهر فبراير سنة ١٨٠٤ واستطاع ديكاتور بالطريقة التي وضعها أن يخفي حقيقة السفينة سيرن Siren باخفاء بحارتها واطهار القليل منهم على ظهرها حتى لا تثير كثرتهم شكوك رجال البحرية اللوية وأمن في هذه التغطية بالباس البحارة ملابس الماطيين حتى ظهرت السفينة كأنها سفينة مالطية تجارية تجاهد لدخول الميناء . وعندما اقبل الليل قام الضابط الامريكي ديكاتور Decatur بمعاونة بعض رجاله بهجوم خاطف على السفينة « فيلادلفيا » الراسية في الميناء واشعلوا النيران فيها ونجحوا في الانسحاب سالمين بعد اتمام مهمتهم هذه وعندما تنبه الحراس من البحرية اللوية على صوت الانفجارات وأضواء اللهب حاولوا عبثاً اللحاق بالاعداء لما أصابهم من ذعر ولأخذهم على غرة وقد ساعد على احتراق « فيلادلفيا » ما استعمل في احراقها من مواد ملتهبة وما كان قد تبقى في مخازنها من بارود وقد ظلت تحترق لمدة ثلاثة ايام تحولت خلالها سماء المدينة إلى لون نحاسي من شدة اللهب واستمرار اندفاعها حتى أن الكثير من سكان الجهات الداخلية استطاعوا رؤية هذه النيران على مسافة بعيدة بلغت جبل غريان وجبال ترهونه .

أما لماذا لم يحاول الامريكيون انقاذ سفينتهم بدل حرقها بهذا الشكل فهذا مشار سؤال واستفهام ونقطة تصلح للمناقشة والتحليل لرجال الحرب غير أن الذي يمكننا أن نقوله أن الأوامر الصادرة للضابط البحري الذي قام بهذه المهمة كان تنفيذها بهذا الشكل . ويبدو أن القائد الأعلى بربل Preble الذي

اختار ديكاتور Decatur للقيام بهذه المهمة قد تأكد لديه صعوبة استعادة هذه السفينة من العدو وهي راسية في مينائه وتحت حماية بطارياته الحربية. وإذا كان الأمر كذلك فلا أقل عليه من حرقها حتى لا يستفيد منها العدو وحتى لا يكون بقاءها عاراً للبحرية الأمريكية يتبين لنا ذلك من موجة الفرح والسرور التي شملت الرجال الذين قاموا بهذه المهمة ونجاحهم فيها والتي عمت كذلك بلاد الولايات المتحدة الأمريكية حتى أن الكونجرس Congress لم يتوان في اظهار رضائه عن هذا العمل فنهح ديكاتور Decatur سيف الشرف ورفاه الى رتبة كابتن .

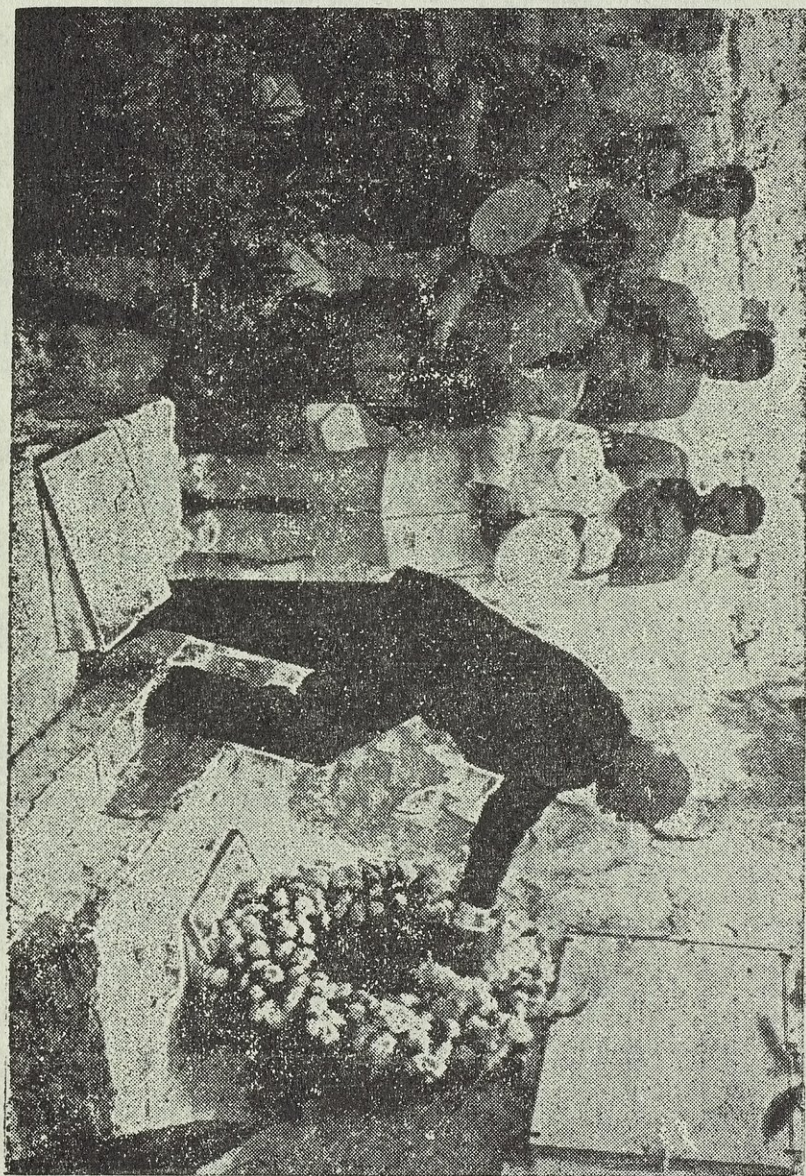
أما في بقية الدول الأوروبية فكان لحادث حرق السفينة « فيلادلفيا » بعد أسرها رد فعل قوى نظر إليه الجميع على أنه مظهر من مظاهر التحدى الذى يمكن أن تقفه الدول فى المستقبل . وإذا كان نلسون Nelson القائد البحرى الانجليزى المعروف صاحب موقعة أبى قير البحرية فى مصر وموقعة الطرف الأغر وهو الخبير بمثل هذه الأعمال وأهميتها قد قال عنه « أنه اشجع واجراً عمل فى العصر (١) » ، فان هذا القول على كل حال يعطينا من جهة أخرى المدى الذى كان ينظر به الأوروبيون نحو بحرية لوبيا فى ذلك الوقت الى حد كبير .

وعلى العموم كان فى هذه الخطة التى وضع اساسها القائد بربل Preble والتى نجح فى تنفيذها ضابطه الشاب ديكاتور Decatur بصحبة رجاله ما عكر على اللوبيين فرحهم بأسر هذه السفينة الحربية الأمريكية وجعلهم يفكرون جيداً فى هذا التحدى الظاهر وبحسبون للمستقبل حسابه وسرعان ما تحقق ظنهم إذ دفع هذا النجاح الذى احرزه الأمريكىون القائد الأمريكى Preble إلى الحمىء الى ميناء طرابلس فى الخامس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٨٠٤ فى حملة بحرية قوية قوامها خمس عشرة قطعة وقام بخمس هجمات متتاليات على المدينة

بشكل عنيف ولكن المدينة استطاعت أن تقاوم هذا الهجوم بقلاعها وحصونها وعزيمة رجالها رغم ما أصابها من ضرر بليغ .

عند ذلك لم يجد الطرفان بداً من عقد الهدنة وعاد كل منهما يستعد من جديد للملاقاة مرة أخرى . واعفى القائد بر بل Preble من وظيفته لما لحقه من تعب مرهق وكافاته حكومته على أعماله البحرية المجيدة ضد البحرية اللويبة بتقديم المدالية الذهبية إليه كما أن مجلس الكونجرس Congress قد عبر له عن شكره له ولرجال الشجعان الذين تعاونوا معه لما قاموا به أعمال مجيدة .

وفي سنة ١٨٠٥ تجدد الهجوم الأمريكى مرة أخرى على لوبيا ولكنه في هذه المرة اتخذ شكل الهجوم البحرى والغزو البرى . أما الغزو البرى فكان بمثابة تلك الحملة البرية التى نظمها وقادها الكابتن ولیم ایتون William Eaton الذى سبق ذكره كقنصل للولايات المتحدة الأمريكية فى تونس وذكر ما قام به من دور فى هذا النزاع قبل استفحاله وكيف فشل فى تسويته وقد استطاع الاتصال هذه المرة كذلك « بسيدى احمد بك » شقيق يوسف باشا فى الاسكندرية واستغل ما كان يضره من عداوة لأخيه بسبب اغتصاب العرش منه وأعد بالاشتراك معه حملة برية هجومية على الحدود الشرقية للوبيا ورغم ما عاناه ايتون من مصاعب فى اعداد حملته هذه وتسييرها فإنه استطاع بالتعاون مع البحرية الأمريكية أن يكون فى التاريخ المحدد عند مدينة درنة . وهكذا تعرضت هذه المدينة لهجومين فى وقت واحد وقد قام أهلها بدفاع مجيد ضد هذا الاعتداء وزادهم فى هذا ما شعروا به من استياء من « سيدى احمد بك » لاستعانتهم « بالكفار » ضد أخيه إلا أن هذا الدفاع لم يكن منظماً ولم يكن على مقدرة لصرفه فى اتجاهين مختلفين فاكتمست السفن الحربية بقيادة Lieutenant O'Bannon of the Marines نقط دفاعهم بعد أن توقف الجيش البرى عن العمل لنقص فى امتداداته وذخيرته الحربية المطلوبة ولهذا لم



يكن انتصار الأمريكيين حاسماً فتهباً الجو لفتح المفاوضات بين الطرفين في ٤ يونيو سنة ١٨٠٥ خصوصاً وأن قوات الباشا قد أخذت في الوصول الى منطقة درنة لنجدة أهلها . وتم امضاء المعاهدة بين الطرفين وقد نصت فيما نصت عليه من شروط اعفاء دولة الولايات المتحدة الأمريكية من دفع أى سنوية في المستقبل مع عدم التعرض لسفنها البحرية وتم اطلاق سراح بينبردج وزملائه البحارة الذين أسروا مع سفيتهم «فيلا دلفيا» في مقابل دفع مبلغ ستين ألف دولار للباشا.

هكذا قدر للولايات المتحدة الأمريكية أن تنجح فيما فشل فيه غيرها على مر السنين وكان لنجاحها هذا أثر كبير في تطور بحريتها الناشئة فيما بعد حتى أصبح لها شأن آخر ولا نغالى إذا قلنا أن هذا النجاح هو الحجر الأساسى الذى بنت عليه البحرية الأمريكية سمعتها والذى سار بها إلى الأمام وما زال هناك بين الأناشيد التى يتغنى بها رجال البحرية الأمريكية نشيد خاص يتناول أعمال بحريتهم هذه ويمجدها ويفخر بها وما زال الأسطول البحرى للولايات المتحدة الأمريكية يضم مدمرتين باسم بينبردج Bainbridge وباسم ديكاتور Decatur تخليداً لذكرى هذين الضابطين وأعمالهما ضد البحرية اللوية وما زال كذلك من ضمن الأعياد المرمية عند شعب الولايات المتحدة اليوم الموافق للثلاثين من شهر مايو وهو العيد المعروف بعيد التزيين Decoration day لتزيين قبور رجال خدمتهم بالزهور ومنذ ثلاثة أعوام فقط وافق مجلس الكونجرس Congress الأمريكى على تخصيص ذلك اليوم التذكارى كيوم للصلاة العامة من أجل دوام السلام العام فى كافة أنحاء العالم . ويعتبر الأمريكيون هذا اليوم من العطلات الرسمية التى تعطى فيها الأعمال فى الولايات المتحدة الأمريكية . وفى الصورة المقابلة يرى المستر فيلارد Mr. Villard الوزير المفوض للولايات المتحدة الأمريكية فى لوبيا وهو يضع أكليلا من الزهور على قبور البحارة الخمسة الذين فقدوا

في الحرب بين بلاده ولوبيا وقد اهتمت القنصلية الأمريكية بمدينة طرابلس إلى كشف قبورهم في عام سنة ١٩٤٩ . كما أن وحدات من الأسطول الأمريكي السادس وصلت في اليوم الثاني من شهر يوليو سنة ١٩٥٠ إلى ميناء مدينة درنة حيث أقام البحارة الأمريكيون في يوم الاثنين الموافق ٤ يوليو وهو يوم ذكرى عيد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية لوحة تذكارية عند القلعة الكائنة داخل سور المدينة من الناحية الجنوبية والتي تعرف الآن باسم الحصار، أو كما يسميها البعض «بالقلعة الأمريكية» إحياء لذكرى جنود أمريكا الذين وقعوا عند هذه القلعة .

وخلاصة القول أنه إلى جانب النتائج الأدبية التي تحصلت عليها الولايات المتحدة الأمريكية من انتصارها على البحرية اللوبية فإن نزاعها مع لوبيا كان أقوى عامل في تمكين بحريتها فيما بعد .

أما لماذا لم تحاول الولايات المتحدة الأمريكية احتلال لوبيا في ذلك الوقت وهي المنتصرة فهذا أيضاً محل سؤال واستفهام وإن كان هناك ما يبدو أن الأمريكيين قد خطرت ببالهم هذه الفكرة واستعرضوها من كل الوجوه بدليل ما أقاموه من حصون حول مدينة درنة متمثلة في تلك القلعة التي شيدوها على تل فيما وراء المدينة للدفاع إذا حاول اللوبيون استردادها وقد ذكر الرحالة بتشي Beechy (١) عندما زار البلاد في عهد يوسف باشا أنه قد وجدها مجرد أكوام من الاطلال قد ألقيت مدافعها على الأرض وقد تكون الأعمال الحربية الأمريكية في أساسها لم تبني على هذا الغرض وأنها كانت مجرد حملة تأديبية ولذا فضلت عدم التماهي في مثل هذا العمل العدواني حتى لا تتورط في الاصطدام مع قوات يوسف باشا وقد كانت حتى ذلك الوقت لم

1 — Beechy F. W., Beechy H. W.: Proceedings of the expedition to explore the Northern Coast of Africa, P. 473.

«London, 1828».

تأكد من ضعفها العام وسهولة القضاء عليها دون بذل مجهود كبير وقد يكون ذلك أيضاً كما ذكره الرحالة بلاكييري Blaquiére الذي زار البلاد عقب هذه الحوادث بمدة ليست بالطويلة وهو أن الولايات المتحدة وإن كانت قد فكرت في الاستيلاء على البلاد إلا أنها خشيت التدخل الانجليزي والفرنسي ففضلت الانسحاب على الاصطدام معها في ميدان التوسع الاستعماري الذي ساد القرن التاسع عشر . وعلى كل فقول المستر بلاكييري Blaquiére لا يخلو من الحقد على الأمريكيين كما يظهر لنا ذلك في مناسبات متعددة في رسائله التي بعث بها من طرابلس إلى لندن أثناء زيارته للبلاد ويبدو أن الكراهية بين هذين الشعبين لم تكن قد اندثرت معالمها حتى ذلك الوقت وإلا لما لجأ المستر بلاكييري إلى الكثير من تعابير التعريض بالأمريكيين كلها واته مناسبة في رسالة من رسائله السابقة الذكر .

وعلى العموم بقدر ما أصابت الولايات المتحدة الأمريكية من نجاح ومستقبل بحري عظيم أصيبت لوييا في صميم كيائها بانزال هذه الصدمة القوية بهيبتها البحرية الأمر الذي أطمع فيها الغير وكشف ضعفها للعيان ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا الانتصار البحري الذي أحرزه الأمريكيون على البحرية اللوية كان أقوى عامل في إضعاف الدولة اللوية وبالتالي القضاء على حكم الأسرة القره مانلية بعزل آخر ولايتها لما حل بالبلاد من فوضى وتدهور مالي عام . بل إن هذا الانتصار البحري الذي أحرزه الأمريكيون قد تعدى أثره لوييا إلى البلاد الإسلامية المجاورة ولم يقتصر على لوييا وحدها وسجل بداية ضعف البحرية المغربية أمام الأعداء وقد عرفت الولايات المتحدة الأمريكية كيف تستغل نتيجة هذا الانتصار ورد فعله في بلاد المغرب فأرسلت حملة بحرية في سنة ١٨١٥ إلى مدينة الجزائر حاملة المستر وليم شالر William Shaler كقنصل لها هناك للمفاوضة مع حكومة الجزائر ويساعده

كل من الكابتن بينبرج Bainbridge والكابتن ستيفن ديكاتور Stephen Decatur واستطاعت بهذه الوسيلة التهديدية وبما كان في نفوس أهل الجزائر من رد فعل سيء لما حدث مع يوسف باشا أن تبرم معاهدة مع حكومة الجزائر في ٣٠ يونيو سنة ١٨١٥ تم بمقتضاها الغاء ما تدفعه الولايات المتحدة الأمريكية من سنويات للجزائر مع استعادة كل الأمور الأمريكية وهكذا لم يقتصر ما حل بالبحرية اللوية على البلاد وحدها بل تعداها إلى ما يجاورها من البلاد الإسلامية الأخرى .

...

...

...

وقد خجلت بريطانيا لهذا النجاح الباهر الذي حصلت عليه الولايات المتحدة الأمريكية وهي الناشئة الجديدة في الميدان البحري والتي لا تقاس قوتها البحرية بشيء بجانب ما لبريطانيا في هذا الميدان فتشجعت لتجريب حظها من جديد وقد انتهت الفرصة فأرسلت اللورد اكسموث Lord Exmouth (سابقاً السير ادوارد بيلو Sir Edward Pellew) بقوة بحرية كبيرة للحصول على ما فازت به الولايات المتحدة الأمريكية . وكانت وجهته تونس ومدينة طرابلس واستطاع أن ينجح إلى حد كبير في تحقيق بغيته وتحصل من يوسف باشا على تعهد بالالغاء التام لاستعباد المسيحيين بل ذهب إلى أبعد من هذا وأصبح بما له من قوة تهديدية يتدخل في علاقات يوسف باشا مع بقية دول البحر الأبيض المتوسط في مثل هذا الخصوص . وفي المعاهدة (١) المبرمة بين يوسف باشا ومملكة سردينيا في ٢٩ ابريل سنة ١٨١٦

١ — توجد نسخة منها مطبوعة في تورين بإيطاليا سنة ١٨١٦ ومكتوبة باللغات

الثلاث الإيطالية والانجليزية والفرنسية إلى جانب المعاهدة التي أمرت مع كل من تونس والجزائر . وكانت هذه النسخة ملكاً للسيد علي القره مانلي وقد تكرم بأهدائها إلى دار المحفوظات بمدينة طرابلس وقد أطلعني عليها .

ما يثبت لنا جلياً هذا التدخل حيث نراه قد قام بدور الوسيط بين الطرفين بل كان هو الممثل الشرعى لحكومة سردينيا فى هذه المعاهدة والموقع عليها بالاشتراك مع المستر هانمر وارنجتون Hanmer Warington القنصل العام لبريطانيا فى طرابلس بالنيابة عن ملك سردينيا الملك فيمتوريو عمانوايل واستطاع الحصول لسردينيا على شروط ومعاملة خاصة شديدة بتلك التى تحصل عليها الرعايا بريطانيا بل استطاع أن يلحق بهذه المعاهدة اعلاناً من طرف يوسف باشا يتضمن تعهداً بعدم استعباد الأسرى المسيحيين فى أى حرب مقبلة وتحتيم معاملتهم كأسرى حرب حتى يتم تبادلهم بالاتفاق معه حسب ما يجرى عليه العرف لدى الدول الأوروبية وتم عودتهم إلى بلادهم دون دفع أى فدية.

وهكذا أيضاً تشجعت بقية الدول الأوروبية الأخرى وكانت حروب نابليون التى شغلت العالم قد انتهت فوجدت الفرصة الكافية للاهتمام بهذه الناحية لمعالجتها بحزم حتى إذا كان مؤتمر اكس لا شابيل سنة ١٨١٨ Aix La Chapelle اتفقت الدول الأوروبية على العمل سوياً بتضامن تام فى سبيل مكافحة البحرية المغربية مما مهد فيما بعد لأن تغزو فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ لاحتلالها. وأمام هذا التعدى من جانب الأوروبيين على ما للسلطان العثمانى من سيادة أعادت الدولة العثمانية النظر فى حالة بقية بلاد المغرب وانهزت فرصة ما آل إليه حال لوبيا من سوء فى آخر عهد ولاية يوسف باشا فاستعادت البلاد من جديد لسلطانها سنة ١٨٣٥ وهكذا زال ما للبحرية اللوبية من وجود بنهاية حكم الأسرة القره مانلية . وبالموقف الجديد الذى اتخذته الدول الأوروبية الاستعمارية فى القرن التاسع عشر تجاه بلاد الشمال الافريقى .

يتضح مما تقدم أن لوبيا تشغل بسواحلها نقطة هامة حساسة في حوض البحر الأبيض المتوسط وأن البحرية اللوبية استطاعت بنشاطها أن تتحكم في الملاحة في حوض البحر الأبيض المتوسط كله واستطاعت أن تحتل مكانة بحرية عظيمة إلى أن فقدت تلك السيادة على أيدي الأمريكيين والدول الاستعمارية فحلت تلك الدول محل اللوبيين في التمتع بهذه السيادة وقد فطنت إيطاليا في الأعوام الأخيرة إلى أهمية الساحل اللوبي واستولت عليه إلى أن انتهت سيادتها على أثر الحرب العالمية الثانية . ويدرك الأمريكيون الآن هم والانجليز أهمية شواطئها ويحاولون أن يتخذوا لأنفسهم بها قواعد حربية تنفعهم إذا اصطدمت قوات الشرق والغرب . وجدير بأهل البلاد ألا يحرموا أنفسهم من النشاط البحري وأن يعنوا بالملاحة التجارية والحربية على السواء بقدر ما تسمح لهم به امكانياتهم والقليل مع المثارة كثير . وللوبيا غير هذا المجال البحري محيطات من الصحارى يجب عليها أن توفر لها الطرق المعبدة وأن تسير في هذا المضمار إلى أحسن مما وصل إليه آباؤنا على ما نشرحه في الفصل الآتي .

المصادر

- ١ - ابن غلبون : تاريخ طرابلس الغرب (طبعة القاهرة ١٣٤٩ هـ) .
- ٢ - اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار (طبعة بولاق بمصر سنة ١٣١٤ هـ ، ج ٢) .
- ٣ - النائب : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب (اسطنبول سنة ١٣١٧) .
- ٤ - حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث (القاهرة سنة ١٩٣٨) .
- ٥ - بعيو : المجلد في تاريخ ليبيا (الاسكندرية سنة ١٩٤٧ م) .
- James Fairgrieve : Geography and world Power - ٦
- S. Lane-Poole : The Barbary Corsairs, Third Edition - ٧
- Charles Wellington Furlong : The Gateway to the Sahara, New-York 1909. - ٨
- Lieut - Colonel Gordon Casserly : Tripolitania, London 1943. - ٩
- E. Blaquière : Letters from the Mediterranean, vol. 11, London 1813. - ١٠
- Richard Tully : Narrative of a ten years residence at Tripoli in Africa, Second Edition, London 1817. - ١١
- Michael Russell : History and Present Conditions of the Barbary States, Edinburgh, 1835. - ١٢
- E. W. Bovill : Caravanas of the Old Sahara, an introduction to the History of the Western Sudan, London 1933. - ١٣
- Sir Harry H. Johnston : A History of the Calonization of Africa, "Cambridge at the University Press 1913". - ١٤
- F. W. Beechy, H. W. Beechy : Proceedings of expedition to explore the Northern Coast of Africa, London 1828. - ١٥
- L. Charles Feraud : Annalles Tripolitanes "Publiées avec une introduction et des notes par Augustin Bernard, Paris, 1927. - ١٦
- R. Micacchi : La Tripolitania Sotto la Dominazione dei Caramanli, Rome 1936. - ١٧

تسعة أعشار الرزق في التجارة

« تسعة أعشار الرزق في التجارة »

حديث شريف

« التجارة نصف الامارة »

حديث شريف

لوبياء وتجارة القوافل

أثر الصحراء في أهل لوبيا - أوجه الشبه بين الفينيقيين واللوبيين - متى بدأ اللوبيون نشاطهم التجاري في الصحراء - تجارة القوافل في العهد الفينيقي - في العهد الروماني - الجمل وتجارة القوافل - تجارة القوافل في العهد العربي - تدهور تجارة القوافل في العهد العثماني - اهتمام القره مانليين بتجارة القوافل - تجارة القوافل والحركة الاستعمارية في القرن التاسع عشر - العوامل التي أدت إلى القضاء على تجارة القوافل - المصاعب التي يقابلها أصحاب القوافل التجارية - وسائل ضمان نجاح تجارة القوافل - طرق تجارة القوافل وأنواعها وأهميتها كل منها - القبائل التي اشتهرت بتجارة القوافل - أثر تجارة القوافل في حياة البلاد.

عرفنا في الصفحات السابقة كيف لعبت لوبيا دوراً هاماً في سياسة حوض البحر الأبيض المتوسط بفضل ما لها من موقع جغرافي وبفضل حسن استعداد أهلها لاستغلال ما لهذا الموقع من أثر فعال في هذا الميدان الشمالي منها . غير أن الدور الذي لعبته لوبيا في الميدان الآخر الجنوبي وأعني به ميدان الصحراء لم يقل أهمية عنه إن لم يزد عليه وإذا كانت لوبيا قد قدر لها أن تجد من استطاع منافستها منافسة قوية في الميدان البحري وبالتالي الوصول إلى القضاء على ما لها من سيادة بحرية فيه فإنها استطاعت أن تنفرد بالميدان الصحراوي دون أي منافس له بال من الخطورة حتى كانت لها السيادة مطلقة تامة على مر الأيام وإن ظهرت في بعض الفترات بمظهر الضعف وقد استمر الحال كذلك إلى أن جد من الأحداث والاكتشافات البحرية ووسائل النقل ما عطل هذه السيادة وإن كانت هناك بقية ما زالت قائمة تثبت لنا ذلك الماضي المجيد لهذه السيادة الصحراوية وتدعونا إلى التفكير في أحيائها من جديد .

والعجيب أنه في الوقت الذي أساءت فيه الصحراء إلى لوبيا في كثير من النواحي نجدها قد أفادت أهلها من ناحية أخرى حيث أكتسبتهم نوعاً معيناً

من الحياة يصحب على الغير ممارستها أو الخضوع لظروفها ومن هنا جاءت لهم الغلبة في هذا الميدان ومن هنا كانت لهم السيادة على غيرهم من حاول منافستهم في هذه الناحية دون أن يكتسب ما يؤهله للقيام بمثل هذا الدور وهو دور كان لا غنى للبشرية عنه في ذلك الوقت وحلقة ضرورية لا يمكن تخطيها في سبيل تطور الحضارة الانسانية في اكتشاف الطرق البحرية وما جد من اكتشافات جغرافية اخرى في العصر الحديث . وهنا أيضاً تتأكد لنا قيمة الصحراء كعامل جغرافي كبقية العوامل الجغرافية الأخرى التي ساهمت بدورها في نشأة الحضارة الانسانية وتطورها ويتبين لنا فضل الصحراء في اعداد مثل اللوبيين للقيام بما قاموا به وقت أن كان الوصول الى أواسط افريقية أمراً مقصوراً عليهم لا يجرو أحد على محاولة منافستهم فيه .

ولوبيا بموقعها الجغرافي أيضاً قد تهيأت لأن تكون حلقة الصلة بين غيرها من يحدها شمالاً وجنوباً فهي بشرطها الساحلي تكون الحافة الجنوبية لاقليم البحر الأبيض بمناخه ونباته المعروفين وما يترتب عليهما من قيام نوع معين من الحياة لسكانه وهي باجزائها الجنوبية الصحراوية تحد اقليم السودان وما يليه من مناطق استوائية اخرى معروفة بانتاجها النباتي والحيواني وضرورة هذا الانتاج لشعوب أوربا بصفة عامة وأهالى حوض البحر الأبيض بصفة خاصة . ولوبيا كذلك بساحلها الطويل المنحني نحو الجنوب قد أصبحت موافقها أقرب المنافذ للوصول إلى مواطن هذا الانتاج الاستوائي إذ أنها تكاد تكون خطاً مستقيماً بين مواطن الانتاج وأسواق الاستهلاك الأمر الذي سهل حركة التجارة بين الطرفين وساعد اللوبيين على القيام بدور الوسيط بينها فعاتد عليهم هذه الحركة التجارية بالأرباح الطائلة الى جانب ما أكسبتهم من روح المغامرة وتحمل المتاعب في سبيل الوصول إلى ما يحقق لهم الآمال وفي ذلك ما يضمن لهم تخفيف ما لاقوه من مشاق ونسيان الامها إذا أمعنوا النظر فيما

توصلوا عليه من أرباح طائلة .

وإذا كان الفينيقيون قد عرفوا بأقدميتهم في فن الملاحة البحرية حتى أصبحوا اساتذة لغيرهم وحتى أصبحت « الفينقة » الصفة الخاصة بكل شعب تعلم فن الملاحة وأجاد ممارسة شئونها فإنه يحق لنا أن نسمى اللوبيين بفينيقي الصحارى و « التلوب » صفة كل شعب تعلم فن الملاحة الصحراوية وأتقن ممارسة شئونها . وما أقرب الشبه بين الطرفين . فكلاهما اتخذ البحر مسرحاً لنشاطه وأعماله وإن كان بحر الفينيقيين من الماء وبحر اللوبيين من الرمال . وكلاهما اقتربت أعماله بالصبر ومواصلة السعى رغم المصاعب والمتاعب . وإذا كان الفينيقيون قد اتخذوا من السواحل وجزر البحر الأبيض مشجماً لهم على نشاطهم التجاري فإن اللوبيين كذلك قد اتخذوا من الواحات المنتشرة في الصحراء محطات لهم للاستراحة والتزود بما يحتاجون إليه في رحلاتهم وتجديد عزم السائرين منهم في الصحراء . وإذا كان الفينيقيون قد اتخذوا من البحر ثوباً شفافاً واحتموا به من أى اعتداء مفاجئ فإن اللوبيين بالمثل قد التفوا بثوب الصحراء الشفاف واحتموا به من أى اعتداء وحافظوا به على سلامة شرايئهم الممثلة في هذه الطرق التجارية المنتشرة بطول البسلاد وعرضها . وإذا كان الفينيقيون قد اتخذوا السفن المصنوعة من الأخشاب مطية لهم في رحلاتهم ولنقل بضائعهم فإن اللوبيين كذلك قد اتخذوا من الجمل سفينة لهم وما سمي الجمل بسفينة الصحراء إلا لما في رحلاته وطبيعة الأرض التي يغلب عليه قطعها من تشابه كبير مع طبيعة البحر . وإذا كان الفينيقيون قد عانوا الكثير من أهوال البحر وأمواجه وتفننوا في طرق مقاومة هذه الأخطار فإن اللوبيين بالمثل قد عانوا الكثير من أهوال الصحراء وأمواجها المتحركة الممثلة في الكشبان الرملية وزحفها وقد تفننوا أيضاً في طرق مقاومة هذه الأخطار بطرق لا تختلف كثيراً عما أتى به الفكر الفينيقي . فالفينيقيون مثلاً كانوا في رحلاتهم يسهرون بحذاء السواحل واللوبيون أيضاً كانوا دائماً لا يبتعدون كثيراً عن معاطن

المياه والواحات المنتشرة حتى يستنجدوا بها إذا حل بهم العطش أو التعب بل كانوا لا يتقبلون من واحة إلا بعد أن يتحققوا من وصولهم إلى واحة أخرى بعد قطع مرحلة معينة من السفر وكان لهم في خضرة الواحات ونخيلها ما يرشدهم الطريق إذا ضلوه كما كان لجمال الجزر وما يوجد بها من معالم أخرى فضل هداية الفينيقيين إليها إذا التبس عليهم أمر السفر . والفينيقيون قد رسموا لسفنهم طرقاً معينة يسلكونها في أسفارهم لضمان سلامتهم واللوبيون أيضاً قد رسموا لأنفسهم طرقاً لرحلاتهم حتى أصبحت واضحة المعالم مما سهل أمر السفر عليهم وعلى كل من أتى بعدهم . وكل من الطرفين قد اتخذ من اللباس ما ساعد على العمل في السفر فالفينيقيون ارتدوا اللباس البحري بطابعه المعروف واللوبيون اتخذوا الجرد ، وقد وجدوا فيه خير معين لهم على تحقيق أغراضهم . والمعروف أن اللوبيين قد اعتادوا في رحلاتهم التجارية عبر الصحراء ألا يرفعوا معهم خياماً حتى لا تشغلهم بحملها وحتى يستغلوا مكانها بالبضائع واستعانوا بالجرّد وبعض العصي التي يسوقون بها جمالهم على إقامة ما يشبه الخيمة للاستظلال من لفق الشمس وقت الظهيرة وفي الالتحاف بالجرّد وقاية لهم من حر الصيف وبرد الرياح في أيام الشتاء وفي طياته أمكنهم أن يحملوا بعض ما يلزمهم من أشياء يكثر الاحتياج إلى استعمالها أثناء السفر الأمر الذي لا يتفق وحفظها ضمن بضائعهم المحزومة . والفينيقيون قد عانوا الكثير من قرصنة البحر بصفة عامة وقرصنة الأغرّيق بصفة خاصة وكانوا يدفعون الاتاوات لحماية أنفسهم وكثيراً ما لجأوا إلى تخيير خط سيرهم من وقت لآخر تحت ضغط التهديد أو خطر النهب والسلب وبالمثل عانى اللوبيون الكثير من النهب والسلب أو ما يمكن أن نسميه بالقرصنة وبالمثل أيضاً تقننوا في مقاومة هذا الخطر أما بالسفر في قوافل على هيئة جماعات قد أخذت الحيلة لكل هجوم مفاجيء وإما بالعمل على استرضاء أعدائهم بدفع اتاوات معينة أو تخلصوا من كل ذلك

بتجنب مواطن الخطر واتباع طرق أخرى أكثر أمناً وسلاماً . وكل من
الشعبين أحب السفر وانتشر بانتشار أسواق تجارتهم وعاش في غير بلاده وعرف
كيف يعيش في بلاد الغير وإن كانت هجرة الفينيقيين أوسع مدى وأكثر
تنظيماً بسبب البحر وتسهيله لهذه المهمة . وإذا كانت موجات الفينيقيين قد
تتابعت بكثرة على أثر الاخطار التي هددت موطنهم الأصلي فتخلصوا منها
بالهجرة نحو الغرب وانتقلوا الى حوض البحر الأبيض المتوسط لا سيما بعد
تخريب كل من صيدا وصور فبالمثل كان اللوبيون الذين سكنوا السواحل أو
الجزر القريبة من الساحل حيث كان خطر تهديد الأجانب لهم أكثر حدوثاً
فاتقوا ذلك بالهجرة نحو الجنوب وأوغلوا في الصحراء جنوباً حتى وصل بعضهم
إلى إقليم السودان واندمجوا في أهله واستوطنوا هناك وما زال اللوبيين جالية
محترمة في كانوا بني جيريا كما يوجد منهم عدد كبير يحترف التجارة في بقية
البلاد المجاورة .

وإذا كانت طبيعة البلاد الفينيقية هي التي دفعت بأهلها إلى حب
المغامرة ومحاولة كشف ما وراء الأفق كما تطلعوا إلى مياه البحر فإن
اللوبيين بالمثل قد دفعتهم طبيعة بلادهم إلى هذا النوع من المغامرة
ومحاولة معرفة كنه الصحراء وما وراءها كما تطلعوا إلى الأفق البعيد أمامهم
فلم تقف دون بنيتهم المسافات الطويلة واستهانوا بها وما زلنا إلى يومنا هذا
نرى اللوبي وهو يحدثك عن محل إقامته في الصحراء أو أحد الأماكن المهيمنة
مشيراً إلى قرب المسافة مع أنها في الواقع تحتاج إلى ساعات وأحياناً إلى أيام
للوصول إليها . وكان اللوبيين في كثرة الواحات ما دفعهم وشجعهم على الانتقال
من واحة إلى أخرى فهم دائماً يرون الماء أمامهم لا يغيب عن نظرهم إلا ليروه
من جديد . ولا بد أن اللوبيين قد بدأوا رحلاتهم الأولى بشيء من الخذر
والخوف في أول الأمر شأن كل شيء جديد ولكنهم سرعان ما أصبحوا

سادة الصحراء قد عرفوا مواعيرها ومسالكها ودروبها واتخذوا لأنفسهم فيها طرقاً معينة فضلوها على غيرها لنقل تجارتهم فيما بين الساحل وإقليم السودان وهذا ما يمكن أن نفسر به ضيق المساحات المزروعة في الواحات حيث تتوفر المياه بكثرة في بعضها لأن أهلها قد اشتغلوا بالتجارة والتاجر بطبيعة حرفته يستطيع جلب كل ما يحتاج إليه من غذاء وملبس دون حاجة للتوسع في الزراعة حتى لا تشغله عن عمله الأساسي . وهذه المغامرات الصحراوية ولدت في نفوسهم حب الحرية والاستماتة في الدفاع عنها وبالتالي الشجاعة . وكثيراً ما حاولت الأمم التي قدر لها أن تبسط سيادتها على لوبيا أن تقضى على هذه الروح ولكن كان نتيجة مسعاها الفشل لأن اللوبيين قد وجدوا في الجهات الداخلية خير ملجأ أمين لحمايتهم من تعسف الأجنبي ولهذا احتفظوا بحريتهم بل وسعى الأجنبي المغير في كثير من الأحيان إلى التقرب منهم لأن في ذلك صفاء للعلاقات الأمر الذي يتطلبه ازدهار التجارة بين موافى الساحل وإقليم السودان . وكان هذا أمراً ضرورياً لكل من نجح في بسط سيادته على الساحل اللوبى ولهذا كثيراً ما كانت السيادة الأجنبية مقتصرة على الساحل وعلى بعض المدن بالذات وكثيراً ما كانت تلك السيادة اسمية على الجهات الداخلية بل أحياناً لم يعرف لها الأهالى وجوداً أو تعارضاً مع ما عودوا به أنفسهم من حرية تامة .

والخلاصة أن التقارب كان كبيراً بين الفينيقيين واللوبيين وأن هذا التقارب قد سهل مهمة الاتصال بين الطرفين وجعلهما يتفاهمان بسرعة ويتعاونان سوياً في ميدان التجارة على أن يتولى كل منهما من ناحية هذه المهمة بطريقته الخاصة وهكذا كان في هذا التعاون البرى والبحرى مساعدة كبرى في نشأة بعض المدن اللوبية وتطورها فيما بعد . وهكذا كانت هذه المدن نقط الالتقاء بين البحر والصحراء حيث تنتهى إليها تجارة القوافل اللوبية البرية ليبدأ

من عندها النشاط التجارى للفينيقيين ممثلاً فى قوافلهم البحرية .

...

...

...

ويصعب علينا تحديد الزمن الذى بدأ فيه اللوبيون نشاطهم الصحراوى
التجارى وإن كنا نسلم بأنه قد تم على مراحل متتالية حتى وصل بهم إلى إقليم
السودان إلا أن أقدم ما وصل إلينا بخصوص محاولاتهم الأولى فى هذا الباب
ما جاء ذكره فى القصة التى رواها لنا هيرودوت بعد أن سمعها من بعض أهالى
مدينة قورينا عندما كان فى زيارتها نقلاً عن ملك واحة آمون «سيوة» عندما
كانوا فى إحدى زياراتهم لمعبد الإله آمون إذ أخبرهم ملكها أن خمسة من
الشباب من أولاد رؤساء قبيلة النازامونس Nasamones الذين كانوا يعيشون
بالقرب من خليج سرت الكبير والذين امتدت مواطنهم إلى بعض المسافة فى
الداخل قد دفعتهم غريزة حب الاستطلاع وروح المغامرة التى هى من طبيعة
الشباب إلى التوغل فى الصحراء جنوباً وقد زودوا أنفسهم بكمية وافية من
الزاد والماء تمكنهم من قطع مسافة تزيد عما تعودته الناس فى ذلك الوقت عندما
كانوا يتوغلون جنوباً . واستمر هؤلاء الشباب الخمسة فى رحلتهم الفريدة من
نوعها بالنسبة لذلك العصر وقد انحرفوا فى مسيرهم نحو الغرب حتى وصلوا
بعد أيام عديدة إلى سهل به الكثير من الأشجار المحملة بالفاكهة وبينما كان
هؤلاء الشباب منهمكين فى جمع الفاكهة وإزالة ما بأنفسهم من تعب انقضت
عليهم جماعة من الاقزام السود لم يكن التفاهم معهم من السهل على هؤلاء الشباب
لجمل كل من الطرفين بلغة الآخر . واستطاع هؤلاء الاقزام حمل الشباب عبر
مستنقعات واسعة هناك حتى وصلوا بهم إلى بلدة يتكلم أهلها لغة الاقزام
أنفسهم وقد شاهد الشباب هناك نهراً كبيراً به كثير من التماسيح وهو يشق
البلدة جازياً من الغرب إلى الشرق ثم تذكر لنا هذه القصة أن هؤلاء الشبان

المغامرين قد استطاعوا العودة بسلام إلى وطنهم الأول حيث قصوا على أهلهم وعشيرتهم ما شاهدوا وعانوا (١)

وكان ملك واحة آمون قد ظن أن هذا النهر الذى وصفه الشبان الخمسة فى مغامرتهم هذه هو نهر النيل وقد شاركه فى هذا رأى هيرودوت نفسه لأن كل منهما فى ذلك الوقت كان لا يعرف نهراً كبيراً فى افريقية إلا نهر النيل ولكن الغالب كما يبدو من سياق هذه القصة واتجاه هؤلاء الشباب فى رحلاتهم واتجاه هذا النهر فى مجراه أن ذلك النهر هو نهر النيجر وأن تلك البلدة التى وصلوا إليها هى التى تعرف الآن ببلدة تمبكتو التى تكون بموقعها حلقة الإتصال بين إقليم الصحراء وإقليم السودان والتى أصبحت فيما بعد مركزاً عاماً من مراكز تجارة القوافل التى يقصدها اللوبيون بقوافلهم .

وإذا راجعنا ما رواه لنا هيرودوت بخصوص الإتصال بين ساحل لوبيا والأجزاء الجنوبية وتحديد طول المرحلة اللازمة من الساحل إلى فزان (٢) يثبت لنا أن هذا الإتصال كان فى عصره قد تم بشكل واضح وتحددت معالمه ولم تكن تجارة القوافل قد وصلت إلى هذا الحد الذى ذكره لنا هيرودوت إلا بعد أن مرت فى أدوار متعددة من الفشل والنجاح إلى أن تم لها النجاح نهائياً وإذا كانت هذه النتيجة قد تمت قبل مجيء هيرودوت بزمان طويل فمن المسلم به أن المحاولات الأولى قد قامت منذ أمد بعيد يصعب علينا تحديده بالضبط وإن كان فى ظهور المدن الساحلية على يد الفينيقيين كمدن قائمة بذاتها يقصدها الجميع ما يصلح أن نجهله أساساً لبداية نشاط طرق القوافل التى لا شك أن

Hugh Murry & James Wilson. — Narrative of Discovery — ١
and Adventure in Africa, P. 40.

E. W. Bovill :— Caravanes of the Old Sahara, P. 16. — ٢

اللوبيين قد بدأوا بها قبل مجيء الفينليقيين إليهم الأمر الذي دفع هؤلاء إلى النزول إلى الساحل اللوبي واستغلال ما يوجد به من أسواق ساحلية تنتهي إليها تجارة دواخل القارة وبحكم هذه التجارة ومجيء الفينليقيين تطور أمر هذه الأسواق إلى مدن قائمة بذاتها لها معالمها الخاصة .

ولاشك أن تجارة القوافل قد تطور أمرها في عهد الفيلقيين ونمت وازدهرت حتى أصبح الرؤساء المشرفون عليها وأصحاب رؤوس أموالها يقومون برحلات تفقدية من وقت لآخر وصلوا في بعضها إلى الجهات الداخلية لدراسة حالة التجارة في أسواقها الجنوبية وكان أهم هذه الرحلات ما قام به ماجو الفينيقي Mago حيث قام بثلاث رحلات من هذا النوع التفتيشي عبر الصحراء مما يؤيد قولنا هذا . وليس معنى هذا أن مهمة الإشراف على نقل التجارة بين ساحل لوبيا والجهات الداخلية قد انتقلت من اللوبيين إلى غيرهم بل ظلت الحال على ما هي عليه رغم هذا النوع من الرحلات التفتيشية . وظل اللوبيون وسطاء بين الطرفين وظلت في حماية قبائلهم وفي مقدمتها قبائل الجرامنت من بلاد فزان .

...

...

...

ولم يقتصر ازدهار تجارة القوافل على العهد الفينيقي بل كان الأمر كذلك وبشكل أوسع في العهد الروماني بعد أن قدر للبلاد أن تخضع للسيادة الرومانية وكان لا بد لروما وقد ازدهرت فيها الحياة وأصبحت عاصمة للإمبراطورية الرومانية ذات العظمة والأبهة أن تسرف في البذخ ووسائل الزينة والترف وأن تستعين في ذلك بما تنتجه أواسط أفريقية من ذهب وريش النعام وحيوانات مفترسة وطيور جميلة للتسلية وعبيد أشداء للخدمة وإعداد القصور فنشطت حركة التجارة مع إقليم السودان . وإذا كانت أوروبا قد اعتمدت في الماضي على مناجمها الخاصة بها للحصول على الذهب فإنها لم تعد كافية لسد ما تتطلبه الحياة

الجديدة في روما بل ولم تعد كافية لسد حاجة بقية الشعوب الأوربية الأخرى فاتجهت أنظار الجميع إلى مناجم أفريقية وذهب ساحل غانة بصفة خاصة ونتيجة لذلك زاد دخل اللوبيين كوسطاء لهذه التجارة ولم يكتف الرومان بالسياسة التي اتبعها الفينيقيون من قبلهم بخصوص هذه التجارة بل أرادوا أن يكون نصيبهم منها أوفر وأن يضمّنوا ورودها بانتظام حتى لا تصاب الحياة عندهم بأى نقص طارئ من ناحيتها فلجأوا إلى القوة الحربية لتدعيم هذا النوع من التجارة وأرسلوا قوة حربية بقيادة كورنوليس بالبوس Cornelius Balbus عام ٢٠ ق.م فتم له الاستيلاء على إقليم فزان وكان من بين الأماكن التي احتلها والتي تبين لنا مدى اهتمام الرومان بتجارة القوافل في ذلك العهد واحة غدامس (Cydamus) Ghedames واحة تابوديوم Tabudium (تابوني Taboni في الطريق ما بين مزدة ومرزق) وسيلابا أو سيليبا (Cellaba or Cilliba) المعروفة الآن بواحة زويلة في إقليم فزان واحة ريبسا Repsa المعروفة الآن بواحة غات وجرمة Garma «Jerma» التي كانت عاصمة للجرمنت في بلاد فزان.

على أن السيادة الرومانية على إقليم فزان لم تتم بواسطة هذه الحملة نهائياً بل كان فيها وفي الاستيلاء على هذه الواحات التي سبق ذكرها ما يوضح لنا مدى اهتمام الرومان في ذلك الوقت بتجارة القوافل. وقد لجأ الرومان كذلك إلى إقامة الحاميات في بعض هذه الواحات لحماية القوافل من الاعتماد إلى جانب ما في وجودها من تدعيم لسيادتهم على هذه المناطق وأقاموا الحصون والقلاع على مسافات معينة لإحكام حلقة الدفاع ضد أى هجوم معاد كما زدوا طرق القوافل بحفر آبار جديدة وأقاموا الصهاريج لحفظ المياه. ويذكر لنا التاريخ أن الفرقة الثالثة من لامبسا (Lambessa) كانت تعسكر في واحة غدامس (١). وإذا

كانت بقايا هذه القلاع التي أقامها الرومان غير كافية لتدعيم هذا القول فإن مرور هذه السنين الطوال إلى جانب ما كان قد اعتاده الأهالي من الانتفاع بأحجار المباني القديمة في تشييد مبانيهم الجديدة ما يثبت أن قيامها كان محققاً بدليل ما ذكره لنا الرحالة بارث Barth^(٢) في رحلته من مبان عديدة وجدها مبعثرة بطول الطريق جنوباً حتى جرمة نفسها . ومع كل هذه الاحتياطات التي اتخذها الرومان لضمان بقاء حركة تجارة القوافل وازدهارها فإنهم لم ينجحوا في ذلك إلا باسترضاء أهالي البلاد أنفسهم واتباع سياسة التفاهم ومحاولة إشراكهم في هذه التجارة بالقدر الذي يضمن لهم استمرارها وعدم خسارتها لأن هذه السيادة الرومانية كثيراً ما كانت تتناوب فترات . من الضعف العام بسبب ما كان يتتاب العاصمة نفسها والامبراطورية الرومانية بصفة عامة وبسبب ما طبع عليه الأهالي من حب للحرية وضرورة المحافظة على حياتهم بالمحافظة على هذه التجارة فكانوا يشنون غاراتهم على القوافل من وقت لآخر وينهبونها بل كانوا يتجرأون أحياناً ويهاجمون الحاميات في القلاع والحصون وينزلون بها الخسائر ويقطعون عنها الامدادات بالاستيلاء على الآبار ومنع العدو من الوصول إليها بل كثيراً ما كانوا يلجأون إلى ردمها بالرمال إذا أعيتهم الحيل وغلبهم العدو ورأوا أنفسهم مجبرين على الانسحاب أمام قوات العدو المتزايدة .

* * *

* * *

* * *

على أن تجارة القوافل اللوبية في العهد الروماني قد تطور أسرها بظهور الجمل في لوبيا ولاشك أن دخول هذا الحيوان إلى بلاد الشمال الإفريقي يعتبر من الحوادث الهامة في تاريخ هذا الاقليم بصفة عامة وفي تاريخ القوافل التجارية

(٢) مكتشف جغرافي ألماني قام برحلة لحساب الحكومة البريطانية ١٨٥١ الى بحيرة تشاد

عن طريق مدينة طرابلس .

بصفة خاصة غير أن الباحث لا يستطيع القول بتاريخ محدد معروف يرجع إليه دخول هذا الحيوان لهذه البلاد وإن كان من المؤكد أنه قد وصل إليها من الخارج وأنه في نشأته غريب عنها وإن كان في انتشار الجمل بشكل واسع في جميع أنحاء الشمال الأفريقي ما دفع البعض إلى الاعتقاد بأن الجمل قد نشأ في هذه الأجزاء من شمال أفريقيا كما نشأ في غيرها إن لم يكن الشمال الأفريقي هو الموطن الأصلي له وأن شمالي أفريقيا قد عرف الجمل منذ زمن بعيد يرجع إلى عصر ما قبل التاريخ . وإذا كان هناك من يعتقد أن الجمل قد ظهر في شمالي أفريقيا بمجيء العرب إليها فإن هذا القول مبالغ فيه أيضاً لأنه من الثابت أن العرب عندما أتوا إلى شمالي أفريقيا قد وجدوا الجمل معروفاً هناك ومستعملاً على نطاق كبير . أما عن الوطن الأصلي لهذا الحيوان فمن المسلم به أنه قد نشأ في أواسط قارة آسيا وفي بلاد التركستان بالذات حيث كان يتجول بحرية تامة غير مقيدة . والجمل كما نعرف نوعان . أحدهما له سنام واحد Dromedary والآخر له سنامان ويوجد الأول في الجهات الغربية من آسيا بما في ذلك صحراء بلاد العرب ويمتد غرباً إلى صحراء شمالي أفريقيا . أما الثاني فيعيش في شرقي آسيا فيما وراء نهر الفرات والخليج الفارسي إلى بلاد الصين حتى يصل إلى الجهات الجبلية الباردة في شمالي منغوليا .

ومن المرجح أن لوبيا قد عرفت الجمل أبان حكم الرومان لها . أما فيما قبل ذلك العهد فلا وجود للجمل فيها ونستدل على ذلك بما كتبه هيرودوت عن حيوانات لوبيا وقد قام بزيارتها حوالي ٤٥٠ ق . م إذ أنه لم يذكر الجمل من بين ما ذكره من حيواناتها كما أننا لا نجد إشارة واحدة إلى الجمل فيما وصل إلينا عن الفترة السابقة للحكم الروماني بل إن وجود الجمل في أوائل السيادة الرومانية أمر مشكوك فيه لأن ماريوس Marius في حملته التي قادها ضد يوجرتا Jugurtha قد اتخذ من الحصان وسيلة لنقل معداته أثناء عملياته الحربية في الصحراء رغم

ما في ذلك العمل من تعب ومشقة . ويذكر المؤرخ الروماني سلوستوس Sallustius أن المناسبة الأولى التي رأى فيها الجنود الرومان الجمل لم تكن في افريقية بل كانت في آسيا اثناء حملة لوكس Lucullus الحربية ضد ميثريدس Mithridates كما أن المؤرخ بليني Pliny الذي قدر له أن يسافر الى افريقية قد ذكر لنا أن الجمل ينتسب في أصله إلى قارة آسيا ولهذا لم يكن للجمل وجود في افريقية في العصور السابقة للحكم الروماني بل إن البلاد لم تعرفه إلا بعد مضي فترة من الحكم الروماني . وقد أتى ذكر الجمل لأول مرة في افريقية سنة ٤٦ ق . م في موقعة ثابس Thapsus عندما أتى اسمه ضمن الغنائم التي فاز بها قيصر Caesar في حربه مع Juba اذا استطاع قيصر أن يخضع اثنين وعشرين جملاً . وفي قلة عدد هذه الجمال تدعيم لبداية ظهور الجمل كحيوان معروف في افريقية في ذلك الوقت . وقد ظل الحال كذلك وإن أخذ عدد الجمال في الزيادة شيئاً فشيئاً حتى إذا كانت سنة ٢٦٣ م وجدنا القائد الروماني رومانوس Romanus قد فرض على أهالي مدينة لبدة امداده بأربعة الاف جمل لاغراضه الحربية . ويجب الا نأخذ من كثرة هذا العدد دليلاً على وجود الجمل بكثرة في ذلك الوقت إذ كان لمدينة لبدة ظروفها الخاصة التي مكنتها من امتلاك مثل هذا العدد وأكثر منه فهي بوقوعها عند نهاية طريق القوافل لتجارة قبائل الجرمنت بفزان فيما بين البحر الابيض المتوسط والسودان كانت أكثر استخداماً لهذا الحيوان من غيرها وبالتالي أكثر وجود هذا الحيوان في منطقةها عن بقية المناطق الأخرى فلا عجب بعد ذلك إذا سمعنا هنا لأول مرة عن الجمل في اعداد كثيرة بالنسبة لأي مكان آخر . وبمرور الزمن أخذ ذكر الجمل يتردد كثيراً ضمن ما ذكره الكتاب في العهد البيزنطي وأصبحت مشاهدته واستعماله من الأمور المألوفة في ذلك الوقت .

هذا بخصوص تحديد زمن دخول هذا الحيوان في بلاد الشمال الافريقي

أما بخصوص من تولى القيام بهذا العمل فهناك احتمال كبير بأن الرومان لم يقوموا بادخاله في افريقية وإن كان يحتمل أيضاً أنهم وقد واجهتهم مصاعب النقل في هذه البلاد قد لجأوا إلى حلها بالطرق التي حلوا بها نفس المصاعب التي وجدوها في آسيا باستعمال هذا الحيوان . وإذا فرضنا أنهم قد نجحوا في حلها بطرق أخرى فإن الرغبة في تنمية الحركة الاقتصادية لا شك قد دفعتهم إلى استيراد الجمال من آسيا إلى الشمال الافريقي وليس هذا بالامر الصعب عليهم إذ أن هجرة الحيوانات الأليفة مرتبطة إلى حد كبير بالنشاط البشرى وتنقلات الانسان الامر الذي دفع الكثير إلى الاعتقاد بأن حيوان الجمل قد انتقل من الشرق إلى شمالي افريقية على ايدي قبائل زناته البربرية في هجرتها من المشرق إلى المغرب . أما إذا كانت هذه الهجرة قد تمت بتشجيع الرومان أو مساعدتهم فهذا لا يمكن القول به ولكننا نعتبر زناته المسئول الأول (١) عن جلبه إلى الشمال الافريقي والتوسع في استخدامه هناك وذلك في العهد الروماني لشمال افريقية .

وعلى كل فإن الجمل حيوان طارىء على بلاد الشمال الافريقي وإن كانت طبيعة البلاد قد وافقت تربيته والاكتثار منه حتى بدا كأنه حيوان أصلي بها ولا شك أن ادخاله في شمالي افريقية يعتبر حادثاً عظيماً له خطورته ونتائجه بل يمكننا أن نعتبر ذلك بداية عصر جديد في تاريخ البلاد إذ بظهوره حدث تطور كبير في حياة السكان وأعمالهم ونشاطهم التجاري لا سيما فيما يتعلق بذلك النشاط الذي ربط السواحل الشمالية بأقليم السودان ولا غرابة بعد ذلك إذا رأينا العهد الروماني قد افترن بازدهار تجارة القوافل وكثرة الثروة في البلاد وانتعاش حياة الاهالي بل أن ظهور الجمل في ذلك الوقت كان أكبر مساعد

للرومان على التوغل جنوباً ومحاولة بسط سيادتهم على الاجزاء الجنوبية الأمر الذى لم يحاوله الفنيقيون من قبلهم . ولا شك أن الجبل بطبيعته واستعداده الخاص قد لعب دوراً هاماً فى هذا التطور كما لعب أدواراً أخرى مماثلة فيما جد من حوادث فيما بعد . ولا شك أن اللوبيين قد استفادوا كثيراً من أذخال الجبل فى بلادهم ولا نبالغ إذا قلنا أن دخوله يعتبر انقلاباً فى حياتهم الاجتماعية ومعيشتهم الخاصة وطرق تفكيرهم وبه استطاعوا استغلال ما قد وجدوه من مراعى بعيدة فى جوف الصحراء لتربية حيواناتهم دون مشقة كبيرة بالنسبة لما كانوا يعانونه فى السابق بل واستطاعوا استغلال ما فى الواحات الجنوبية من حياة زراعية وخصوبة لم تعرف توقفاً لانسياب المياه المستمرة . أما ما استفاد اللوبيون من الجبل فى تخفيف متاعب السفر وزيادة قدرتهم على قطع المسافات الطويلة وحمل أ كبر كمية من المتاع والبضائع فهذا شيء مسلم به لا يحتاج الى مناقشة وإن كانت الحقيقة تستدعى تسجيل كل ذلك . والخلاصة أنه بدخول الجبل فى الشمال الافريقى قد حدث تطور كبير فى تجارة القوافل إذ به قلت أغلب المشاق والمتاعب التى يجدها أرباب القوافل التجارية فضلاً عن أنه فتح أمامهم طرقاً جديدة للاستغلال التجارى وآفاقاً أخرى كان لا يمكن الوصول إليها بدونهم .

وإذا كانت البلاد قد عرفت الجبل فى العهد الرومانى بعد أن عرفت التجارة وقامت لها طرق تربط أسواقها على الساحل وفى الداخل قبل مجيء الرومان إليها فيحقق لنا أن نتساءل عن الطريقة التى كان اللوبيون فى العهد الفينيقي وفيما بعده قبل مجيء الجبل ينقلون بها بضائعهم بين إقليم السودان والمدن الساحلية وبالعكس . لقد تأكد لنا قيام اللوبيين بهذه المهمة ونجاحهم فيها كما تأكد لنا أن الجبل قد طرأ على لوبيا بعد أن عرفت تجارة القوافل . لا نستطيع القول برأى نهائى فى هذه المسألة وهى مسألة جديرة بعناية خاصة من البحث

للوصول إلى نتيجة نهائية تتفق والحقيقة إلا أنه من المسلم به أن البلاد في العصور القديمة لم تكن الحياة الصحراوية تغلب عليها كما هي عليه الآن بل إن الشواهد والآثار الباقية تدل على أن نوعاً آخر من الحياة قد قام فيها نسيبه الآن بالصحراء الكبرى إلى أن حدث تطور فيما بعد في الحالة المناخية. ولا شك أن تلك الحياة الأولى السابقة لما طرأ على المناخ من تغيير قد سهلت إلى حد كبير مهمة اللوبيين في تجارتهم بين الساحل والداخل. ولا شك أيضاً أنهم كانوا يقومون بهذه المهمة على مراحل مع الاستعانة بالوحدات واتخاذها محطات للاستراحة والتزود وإن كان ذلك كله على حساب الزمن بالنسبة لما تطور إليه الحال بعد ادخال الجمل. ولا شك أن اللوبيين كانوا يعتمدون في نقل تجارتهم على ما كانوا يمتلكونه من حيوانات أخرى كالخمر مثلاً وقد ذكر لنا التاريخ أن ماركوس كاتو Marcus Cato في حملته الحربية قد اعتمد على الخمر في نقل جنوده عبر منطقة سرت مستعيناً في ذلك بتقسيمهم إلى مجموعات أخذ في إرسالها على دفعات حتى لا يضطرب أمر مسيرها ويمكن سقيها دون عناء كبير وتزاحم على الأباركا أن افلاس Ophellas والى قورينا من قبل البطلمة قد ساعد اجاثوكليس Agathocles طاغية سيراكوز في حربه ضد قرطاجة وسير إليه جيشاً قوامه عشرة آلاف من المشاة وستائة من الخيالة ومائة من العربات فلم يأت ذكر للجمل في هذه الحملة بل كان المعول على الحصان وزميله الخمار. أما قبائل الجرامنت الداخلية فقد كانت تعتمد على حيوان خاص بها قد اندثرت معالمه وإن تركوا صورته منقوشة على بعض الصخور في إقليم فزان.

كل هذا يدفعنا إلى القول بأن اللوبيين قد كان لهم من الوسائل ما ساعدهم على القيام بمهمة تجارة القوافل وإن كان ذلك بصورة محدودة مع كثير من المتاعب والوقت بالنسبة لما صار إليه أمر هذه التجارة بعد إدخال الجمل في شمالي أفريقية واستغلاله في هذه المهمة استغلالاً واسعاً منذ ظهوره في لوبيا

حتى أصبح أمر هذه القوافل مربوطاً به وقد رسم بهظامه معالم طرقها في كثير من المسافات فأصبح المسافرون يسترشدون بها في رحلاتهم .

وبمجيء العرب الى الشمال الأفريقي وخضوع لوبيا للحكم العربي زاد انتشار الجمل في لوبيا . ولقد كان من نتيجة أقلية هذا الحيوان على يد العرب الفاتحين الحصول على نوع جيد من الجمل اشتهرت بها البلاد وزاد بذلك نطاق التجارة اللوبية . وهذا النوع الجديد هو الذي أعجب الرحالة العياشي ودعاه الى تسجيل ذلك في أخبار رحلته عندما زار البلاد فقال : وأبل عمالة طرابلس غاية في الجودة قل أن توجد لها نظير شديدة بابل بلدنا بل تزيد حتى عليها بكثرة الخدمة فإنهم يستعملونها في سائر الأشياء حتى الحراثة والدراسة ويسقون عليها ويديرون الرحافتمرننت بذلك على المشاق العظيمة ولذا قيل في أمثال الجميع جمل طرابلس وقربة مصرية (١) . وكان في التشابه الكبير بين اللوبيين والعرب الفاتحين من حيث الطباع وطبيعة الأرض ما ساعد على الاندماج بين الطرفين والاشتراك سوياً في القيام بتجارة القوافل حتى ازدهرت على أيديهم ووصلوا بهذا التعاون الى ميادين أخرى جديدة ما كانت قد عرفت في السابق واقترن هذا النشاط التجاري بشيء جديد لم تعرفه تجارة القوافل في السابق وهو التدوين العلمي والتسجيل لنواحي نشاط هذه التجارة والبلاد التي وصل إليها اتجار جنوباً حتى أصبحنا مدينين إلى حد كبير لهذا العصر العربي فيما وصل اليها من معلومات عن تلك البلاد الواقعة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى ولم نكن نحصل على مثلها في العصر القديم بهذه السهولة ولا بهذا الشكل الوافي وفي مقدمة من كتب في وصف هذه البلاد المسعودي وابن حوقل والبكري والادريسي وياقوت الحموي وابن العمري وابن بطوطة وابن

خلدون وقد قام بعضهم برحلات إليها مع بعض القوافل التجارية كما أن بعضهم الآخر استقى ما وصل إليه من معلومات عن طريق هذه القوافل وأصحابها.

كما أن ظهور الاسلام وبعثه العرب إلى شمالى افريقية أدى إلى تطور آخر في طرق تجارة القوافل فبعد أن كان معظمها يتركز في طرق رئيسية محدودة بين الساحل وإقليم السودان ظهرت للوجود طرق أخرى هامة لها خصائصها المميزة لها وإن كان بعضها معروفاً قبل بعث العرب وقد سلكه الأقدمون من اللوبيين في تنقلاتهم الكثيرة السابقة وفي مقدمة هذه الطرق طريق الحج الذى يخترق شمالى افريقية من الغرب إلى الشرق بجذاء الساحل وهو طريق كان معروفاً في أساسه إلا أن ظهوره بشكل معين في موسم معين من السنة لغرض دينى مستمر قد صبغه بصبغة الجدة وأكسبه طابعاً جديداً ولا شك أن قوافل هؤلاء الحجاج وهى في طريقها بين أقصى غربى الشمالى الأفريقى والأراضى الحجازية قد اقترنت بالتجارة إلى جانب تأدية فريضة الحج بل ان في كثرة عدد جمال هذه القوافل وتنوع ما كان يحمله الحجاج معهم من أشياء يدفع الإنسان إلى القول بأن هؤلاء الحجاج كانوا يقومون بالتجارة إلى جانب قيامهم بفريضة الحج . ولا شك أيضاً أن كثيراً منهم كان يستعين بهذا العمل لسد نفقات الحج بل وللحصول على أرباح مباحة إلى جانب تسديد هذه التكاليف.

وظلت تجارة القوافل اللوبية على حالها من النشاط طيلة العهد العربى حتى إذا خضعت البلاد للحكم العثمانى انتابها تطور خطير أدى إلى اضعاف شأنها كما كان الحال تماماً بالنسبة لتجارة القوافل والبضائع الشرقية على أثر ما جد من اكتشاف طرق بحرية جديدة ترتب عليها تحويل مجرى هذه التجارة عن طرقها الأولى. وكما أن تجارة التوابل والبضائع الشرقية قد تحولت عن مصر وأملاها في الشام إلى طريق رأس الرجاء الصالح فإن التجارة مع أواسط افريقية أيضاً بدأت تسلك طريقاً بحرياً بعد اكتشاف السواحل الغربية الافريقية وبعد أن

عرف الاستعمار الأوربي طريق التغلغل في النواحي الداخلية . ومع كل هذا فقد ظلت بعض موارد هذا الانتاج الأفريقي بعيدة عن أيدي الأوربيين لوقوعها في الداخل مما صعب أمر الوصول إليها على الأوربيين إلى جانب ما يوجد في ساحل غانة من غابات كثيفة ومناطق موبوءة بالأمراض ومناخ لا يساعد الأوربيين كثيراً على تحقيق أغراضهم ولهذا كله ظل بعض تجارة القوافل يتجه شمالاً كالعمود وإن عمل هذا الطريق البحري على إضعاف شأنه وإلى جانب ذلك اقترن العهد العثماني بشيء من الفوضى وسوء النظام فجعل بهذا الإضعاف ويكفي لتبيين مدى اهتمام العثمانيين القليل بهذا النوع من التجارة إذا عرفنا أنهم أصبحوا ينظرون إلى منطقة فزان بعد الاستيلاء عليها كمنفى للمغضوب عليهم سياسياً بعد أن كانت في نظر الجميع مركزاً من مراكز التجارة الداخلية والحيوية الاقتصادية حتى إذا حكمت الأسرة القره مانلية استطاع مؤسسها أحمد باشا الكبير أن يرفع من شأن البلاد بحكمته وحسن سياسته وأن يتجه بنظره إلى استغلال هذا النوع من التجارة وتنظيم مواردها والإشراف عليها بكل حزم وعناية وكان له فيها مورد استعان به على سد ما يطلبه أمر إنشاء دولته والوقوف بها في مصاف الدول المحترمة وتحقيق أغراضه بالمال وقد سار بنوه من بعده على هذه السياسة التي رسمها لهم جددهم العظيم كما ساروا حسب سياسته البحرية التي اختطها لهم والتي سبق أن رأينا بعض مظاهرها في الصفحات المتقدمة .

وخلاصة القول أنه إذا كانت البحرية اللووية قد قدر لها نوع من الازدهار في العهد القره مانلي فإن الحال كذلك بالنسبة لتجارة القوافل وإن انتابها أيضاً من وقت لآخر شيء من الضعف نتيجة لما كانت تتعرض له البلاد من أحداث سياسية خارجية متمثلة في ضغط الدول الأوربية وتدخلها في شؤون البلاد أو نتيجة لاضطرابات القبائل وقلاقلها في الداخل . وعلى أي حال فقد كانت تجارة القوافل في العهد القره مانلي عاملاً هاماً في تكوين ثروة البلاد ويكفي أن نعرف

أن العبد الواحد في ذلك الوقت كان يباع بقيمة تتراوح ما بين الثمانين والمائة والخمسين دولاراً إسبانياً (١) حسب هيئته وسنه وحسب حالة العرض والطلب. وإذا كان حاكم فزان وحده كما كان الحال في عهد واليه محمد المسكني أيام يوسف باشا القره مانلى قد بلغ ايراده الخاص من العبيد ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف عبد في السنة (٢) خلاف المقادير الأخرى من البضائع الاستوائية فإن ذلك يساعدنا على تقدير الدخل العام للمالية الدولة بصفة عامة في العهد القره مانلى ومدى ما كانت عليه من كفاية بالنسبة لحاجات البلاد ومطالبها . بل إن محمد المسكني نفسه ما استطاع الوصول الى وظيفة الولاية العامة لإقليم فزان إلا بعد أن تعهد ليوسف باشا برفع الاتاوة التي يدفعها للبasha من خمسة آلاف دولار سنوياً الى خمسة عشر ألف دولار وهذه الزيادة الكبيرة استطاع أن ينحى الأسرة الحاكمة في فزان وأن يحل محلها في عام ١٨١١م. بل أن يوسف باشا نفسه سرعان ما طالب المسكني برفع هذا المبلغ من خمسة عشرة ألف الى ثمانية عشرة (٣) ألف ولا شك أن الباشا لم يقدم على المطالبة بهذه الزيادة الكبيرة إلا بعد أن تأكد له وفرة ما يحصل عليه حاكم فزان من مال خاص من التجارة مع وسط أفريقيا فهو الى جانب ما يحصل عليه من عدد كبير من العبيد كان يتقاضى دولارين إسبانيين عن كل عبد يمر بأقليمه لبقية التجار (٤) فضلاً عن أنه كان يأخذ دولاراً ونصف دولار عن بيع كل عبد بالاضافة الى المبلغ الرئيسى (٥).

(١) Captain G. F. Lyon : A. Narrative of travels in Northern Africa in the years 1881, 1819, 1820, P. 121.

(٢) المصدر السابق ص ٤

(٣) » » ص ٢٥٨

(٤) » » ص ١٩٩

(٥) » » ص ١٩٩

وفي عهد يوسف باشا اتخذت التجارة مع السودان نظاماً معيناً مع اقليم
فزان تجنباً لآى التباس وتحديداً للمسئولية العامة فقد اعتبر يوسف باشا منطقة
بونجيم (Bonjem) (جنوب شرقى مسراته) هى المنطقة التى يتم عندها تبادل
المسئولية بخصوص تجارة العبيد فيما بين رجال سلطته ورجال محمد المكنى أى
أن كل العبيد الذين كان يرسلهم محمد المكنى الى الباشا فى مدينة طرابلس تحت
مسئوليته يحاسب على كل واحد منهم قبل الوصول الى هذه المنطقة أما اذا قدر
لبعضهم الموت أو التعرض لآى مكروه بعد الوصول الى (بونجيم) فان المسئولية
لا تقع على المكنى بل كانت من نصيب رجال الباشا نفسه وبالمثل اذا أرسل
الباشا أى بضاعة الى المكنى لبيعها هناك أو فى وسط أفريقية فإن المكنى كان
المسئول الأول عنها بعد منطقة بونجيم . وكان فى توزيع المسئولية بهذا الشكل
خير ضمان لتجارة القوافل وتقليل خسائرها .

...

...

...

وقد اقترنت تجارة القوافل فى العهد القره مانلى خصوصاً أيام يوسف باشا
بظاهرة جديدة كان لها أثرها الفعال فيما بعد فى القضاء على هذه التجارة بطريقة
غير مباشرة ذلك أن الدول الأوربية الاستعمارية وقد صعب عليها الوصول
إلى أواسط أفريقية من السواحل الجنوبية والغربية للقارة قد أخذت توجه
اهتمامها إلى الساحل الشمالى لأفريقية وتنافس فيما بينها للوصول إلى داخل
أفريقية تلك القارة المظلمة كما كانوا يسمونها وقد اشتد التنافس الاستعمارى فى
القرن التاسع عشر الميلادى مما جعل مدينة طرابلس وبقية المدن الساحلية
الأخرى محطات للرحالة الأوربيين الذين يقصدون البلاد بغية التوغل إلى
داخل القارة مستعينين على ذلك بما يحيدونه من توصية خاصة من الباشا نفسه
بعد اتقان إخفاء الغرض الأساسى من رحلاتهم بشق الطرق والمعابر كالتعامل
بالكشف عن بعض النباتات الطبية أو دراسة بعض المناطق الأثرية أو الرغبة

فى إرضاء روح المخاطرة والمجازفة عندهم وإن كانوا فى الحقيقة يقومون بالتهديد العلنى للتوسع الاستعمارى متحملين فى سبيل ذلك كل أنواع المتاعب والمشاق وتعريض أنفسهم للهلاك أحياناً رغم استعانة الكثير منهم بدراسة اللغة العربية وإظهار اعتناق العقيدة الإسلامية ومزاولة شعائرها على مرأى من رجال القوافل وقد كان لهم فيها أكبر معين على تحقيق رحلاتهم إذ كان الكثير منهم يرافقها فى السفر ويقتظر مواسم قيامها لمصاحبتهما وفى ذلك ما يخفف عليهم متاعب السفر وجهل الطرق . وهكذا ساهمت تجارة القوافل فى تنشيط الحركة الاستعمارية الأوربية فى القرن التاسع عشر الميلادى بطريقة غير مباشرة كما استعان بها قناصل الدول الأوربية الاستعمارية فى الحصول على المعلومات الضرورية عن الجهات الداخلية بل كان قناصل الدول الأوربية وفى مقدمتهم قنصل بريطانيا فى مدينة طرابلس يتخذون من هذه القوافل سبيلاً لبث عيونهم فى الجهات الداخلية وتزويدهم بالأخبار الضرورية كما جاء ذكر ذلك فى كتاب الرحالة الميجر دنهام وزميله عند ما طمع بو بكر بوحلوم (١) Boo-Bucher Boo-Khaloom فى عزل حاكم فزان وتولى الحكم مكانه أيام يوسف باشا فى سنة ١٨٢٢ عندما كان الكولونيل وارنجتون Warrington قنصلاً لبريطانيا فى مدينة طرابلس وقد لعب هذا القنصل دوراً كبيراً فى الجاسوسية لحساب دولته وإعداد التقارير الوافية عن البلاد الداخلية الأفريقية مستعيناً بما يصل إليه من معلومات من رجال هذه القوافل معتمداً على حسن علاقاته مع بعضهم تحقيقاً لهذه الغاية كما نجح فى التقرب من الباشا نفسه وكسب ثقته حتى كان لا يرد له طلباً يتصل بمساعدة الرحالة من الإنجليز وتأمين أسفارهم فى الداخل صحة القوافل التجارية للباشا أو غيرها .

1- Major Dixon Denham:- Narrative of Travels and Discoveries in Northern and Central Africa, P. 23.

وهكذا تطورت تجارة القوافل في آخر العهد القره مانلى وأصبحت تحمل بذور أضعافها فيما تحمله من بضائع بين ساحل لوبيا وأواسط افريقية حتى إنه لم يمض القرن التاسع عشر إلا وكانت هذه البذور قد نمت وترعرعت واستطاعت بمفعولها السام القتال أن تأتى على ثمارها الحلوة وكانت الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر فترة نضال قوى بين تجارة القوافل وعوامل اضعافها متمثلة في ازدياد التغلغل الأوربى في الداخل والتحكم في أسواق الإنتاج هناك وتحويل معظم هذا الإنتاج إلى الأسواق الأوربية عن طريق البحر بعد أن نجح الأوربيون في إقامة بعض المحطات التجارية لهم على ساحل نيجيريا وغيرها من بلاد ساحل غانا لتكون حلقة الصلة بين الأسواق الداخلية والسفن الأوربية فضلاً عن أن تجارة العبيد قد أخذت في الإختفاء بعد الموقف الإيجابى لدول أوربى منها عقب مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ واضطرار حكام الولايات العثمانية إلى مجارة هذا الشعور الجديد نحو تجارة العبيد كسباً لود بعض الدول الأوربية ومجارة للتيار الأوربى العام الذى اتخذ من تجارة العبيد فرصة للتنديد بالحكم وفساده في بلاد الشرق ومدعاة للتدخل الأوربى هناك لبسط السيادة الأوربية انقاداً لهذه النفوس البشرية في الظاهر وتحقيقاً للغرض الاستعمارى في الواقع . وهكذا شاء الأوربيون أن يروا في تجارة العبيد نوعاً من النذل والاستعباد البشرى في الوقت الذى استباحوا فيه لأنفسهم استعباد الشعوب جملة وذاقتها أقصى أنواع العذاب بل وشن الحروب عليهم وسفك دماء الاف الاف من البشر في سبيل التوسع الاستعمارى مع أن كثيرأ من هؤلاء العبيد كان يتمتع بحرية وحياة لم يحلم بها الكثير من اولئك الذين قدر لهم أن يخضعوا للسيادة الأوربية التى جاءت ترتدى ثوب الرحمة والشفقة من اجلهم فحكمت على بلاد بأجمعها بالعبودية التامة والاستغلال الرخيص الذى يتنافى وأقل واجبات المرء نحو شعوره الانسانى ولا أدل على ذلك مما رواه

الاستاذ بل K.D.Bell في كتيبه عن واحة الكفرة (١) حيث يذكر لنا أن العبيد الذين كانوا ملكا للمادة السنوسية في واحة الكفرة وبعد أن تم تحريرهم وإطلاق سراحهم على أيدي الإيطاليين بعد احتلالهم لها سنة ١٩٣١ كانوا يتمتعون بسعادة أكثر في ظل العبودية السنوسية عما كانوا يتمتعون به أثناء الحكم الإيطالي رغم هذا التحرر ورغم إطلاق سراحهم . بل إن في استمرار بعض هؤلاء العبيد في علاقاتهم القديمة مع ساداتهم القدماء وأولادهم فيها بعد أكبر دليل على ما كان يتمتع به هؤلاء العبيد من حياة ومعاملة حسنة الأمر الذي يتنافى وما يدعيه الرأي الأوروبي العام من قول لا يتفق وهذه الحقيقة للقضاء على هذه التجارة في الظاهر وتبرير نشاطهم الاستعماري في الواقع . وإذا كان بعض الظلم وبعض العنف قد وقع على هؤلاء العبيد فقد شاركهم في هذا الكثير من اخوانهم الأحرار . وهكذا قضت الشعوب الأوروبية على فكرة الرق وعلى تجارة العبيد وأحلت محلها الفكرة الاستعمارية وسياسة استعباد الشعوب بالجملة لا بالقطاعي واعتبرت البلاد المختلفة نهياً حلالاً وقسمتها فيما بينها إلى مناطق نفوذ ثم دفعها الشر إلى التنافس فيما بينها في استعباد الشعوب لاستغلال ثرواتها على حساب أهلها دون عمل أي تقدير لهم وإن كان في ذلك تعارض تام مع ما نادى به الأوروبيون من أهداف سامية لتبرير القضاء على تجارة العبيد . وهكذا أيضاً يأبى التاريخ إلا أن يسجل هذه المهزلة الانسانية في هذه «التقليعة» الجديدة التي أهتدت إليها الدول الأوروبية الاستعمارية في القرن التاسع عشر لتحقيق أغراضها الاستعمارية في ثوب محاربة الاستعباد الفردي نفسه ولنا في الخطاب الذي ألقاه رئيس الوزارة الإيطالية في البرلمان الإيطالي عقب الإنذار النهائي الذي وجهته إيطاليا إلى تركيا يوم ٢٦ سبتمبر بخصوص احتلال لوبيا ما يوضح لنا هذه السياسة الملتوية فقد جاءت الفقرات التالية ضمن خطابه « إن افريقية الغربية من تونس إلى مراكش تحت حماية إدارة أوربية إلا لوبيا وحدها فإنها متأخرة جداً عن الزمن فأسواق العبيد ما زالت قائمة في بنغازي والرجال

والنساء يؤخذون عنوة في أواسط افريقية لبيعهم في هذه الأسواق (١).

هذا بخصوص تجارة العبيد أما بقية البضائع الأخرى التي كان اللوبيون يستوردونها من أواسط افريقية فقد انتاب الاقبال عليها أيضاً شيء من الضعف العام في الأسواق الأوربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فهذا الريش الناعم الذي كان يستخدم بكثرة كوسيلة من وسائل الزينة في البيوت وملابس السيدات والذي كانت مدينة باريس أكبر سوق له قد أخذ الناس يقلعون عن استعماله وظهرت موجة من التفكير الانساني العام لمحاربة هذا النوع من الزينة بحجة أن في الحصول عل الريش نوعاً من تعذيب طائر النعام واستعاضوا عنه بطرق أخرى في زينتهم . كما حدث تطور في وسائل الزينة الذهبية أدى الى التخفيف من اشكالها مما جعل الاقبال على الذهب ضعيفاً في هذه الناحية فضلاً عما جد من تطور في سك النقود واحلال عملة الورق محل العملة الذهبية ، كل ذلك أثر في الاقبال على الذهب . كما أن أوربا بتوسيعها الاستعماري في بلاد الشرق قد وجدت لها ميداناً متسعاً لتحقيق طلباتها منه بعد أن كادت مناجم الذهب في وسط افريقية أن تقرب من النفاد.

كل هذه العوامل وقد تضافرت مع بعضها كان لها أكبر الأثر في تدهور تجارة القوافل الى أن جاء الاحتلال الإيطالي في العشرينات الاولى من القرن العشرين فكان أكبر عامل للقضاء على البقية الباقية منها لما اقترن به هذا الاحتلال من اضطراب وفوضى عمت البلاد بأجمعها وامتدت بامتداد النفوذ الإيطالي إلى الداخل وقد استمرت هذه الحال لمدة عشرين عاماً حتى تعطلت القوافل عن المسير بين الساحل والجهات الداخلية وعبثاً حاولت إيطاليا بعد أن خضعت لها البلاد وبعد أن تم

لها الاستيلاء على فزان وواحة الكفرة عام ١٩٣١ أن تستعيد ما كان لتجارة القوافل من شأن مضى ولو بصورة مصغرة فحددت معالم بعض طرق القوافل تسهيلا للمسافرين كما فعلت فيما بين واحة جالو وواحة الكفرة باقامة العلامات حيث لا يوجد أى دليل لارشاد المسافرين كما أنشأت إيطاليا بعض المطارات الجوية فى بعض الواحات الداخلية لتسهيل الإشراف على هذه الأراضى الواسعة وإن كانت فى حقيقة الأمر قد اتخذت منها محطات لقواتها العسكرية لتنفيذ أغراضها الحربية فيما بعد كما فعلوا فى واحة هون وواحة الكفرة وغيرهما .

ومع أن القرن التاسع عشر قد شاهد تدهور تجارة القوافل اللوبية وهى فى دور احتضارها إلا أن حالة التحسن الضئيل كثيراً ما كانت تتلبها كما حدث فى السبعينيات الأخيرة منه . ويثبت لنا هذا بمراجعة الجدول الآتى الخاص بقيمة البضائع الواردة والصادرة من إقليم طرابلس دون برقة إذ كانت تجارة القوافل فى تلك الأعوام تكون ربع التجارة العامة لطرابلس وكثيراً ما كانت تصل أرباحها إلى ٥٠ ٪ من أثمانها . (١) هذا فى الوقت الذى كانت فيه تجارة القوافل قد اضمحل شأنها وربما يساعدنا التقدير العام المبين بالجدول على أخذ فكرة عامة عن مدى الرخاء الذى تمتعت به البلاد أيام أن كانت هذه

السنوات	قيمة الواردات بالجنيه الانجليزى	قيمة الصادرات بالجنيه الانجليزى	الزيادة بالجنيه الانجليزى	العجز بالجنيه الانجليزى
١٨٦٢ - ١٧٧١	٠٩٢٥٠٦٦٠	١٠١٦٠٦٠٠	٩٠٣٤٠	٠٠٠٠
١٨٧٢ - ١٨٨١	٣٥٢٣٠٨٣٢	٤٠٤٨٤٠٣٢٤	٩٦٠٤٩٢	٠٠٠٠
١٨٨٢ - ١٨٩١	٣٠٦٤٧٠٩٢٠	٣٠٥٦٤٠٧٥٥	٠٠٠ ٠٠٠	٨٣١٦٥
١٨٩٢ - ١٩٠١	٤٠٤٦٧٠٩٦٢	٣٠٤٠٤٠٣٠٠	٠٠٠ ٠٠٠	١٠٠٦٤٠٦٦٢

التجارة في أوج مجدها قبل أن يعرف النفوذ الأوربي طريقه الى الداخل وقبل أن يتحول معظم هذه التجارة إلى الطريق البحري الجديد . والجدول الآتي أيضاً يعطينا فكرة صحيحة إلى حد كبير عن الأموال الطائلة التي كانت تجنيها البلاد من تجارة القوافل وعن نوع البضائع المطلوبة في ذلك الوقت مع أن هذا الجدول أيضاً خاص بإقليم طرابلس دون برقه وتلك الجداول مستمدة من التقرير السنوي الذي قدمه قنصل بريطانيا في مدينة طرابلس لحكومته (١) وكان العاج

السنوات	قيمة العاج بالجنيه الانجليزي	قيمة الريش بالجنيه الانجليزي	قيمة الذهب بالجنيه الانجليزي	قيمة الجلود بالجنيه الانجليزي
١٨٨١-١٧٦٢	٢٠٠ر٥٠٠	١١٧ر٥٠٠	—	—
١٨٨١-١٨٧٢	٢٨١ر٣٠٠	١ر٢٩٣ر٥٠٠	٨٣ر٥٠٠	٨٨و٠٠٠
١٨٩١-١٨٨٢	١٩٦ر٥٠٠	٩٩٩ر٠٠٠	—	٩٢ر٥٠٠
١٩٠١-١٨٩٢	٩٨ر٨٠٠	٥٧٩ر٠٠٠	—	٤٦٣ر٩٠٠

يذهب إلى اسواق لندن أما الريش فكانت تصدره طرابلس إلى باريس كما كانت تصدر الجلود إلى نيويورك بأمريكا .

.....

ولكن هذه الأرباح الطائلة التي جنتها البلاد لم تكن من غير مقابل بل كثيراً ما دفع اللوبيون في مقابلها أحياناً أغلى ما يملكون وما يكافحون من أجله . ففي كثير من هذه القوافل التجارية كان بعضهم يتعرض للهلاك وفقد المال أما المتاعب والأهوال التي كانوا يقاسونها فهي شيء عادي بالنسبة

لهم قد ألفوها واعتبروها جزءاً من حياتهم الطبيعية القائمة على السفر من مكان لآخر وكثيراً ما كانت بعض القوافل تضل الطريق خصوصاً إذا كان طريق الرحلة جديداً على أصحابها أو حدث أى تغيير فى المعالم المعروفة التى تحدد طرق القوافل وتظهرها للعيان وكانت الكتبان الرملية وزحفها أكبر خطر يهدد معالم هذه الطرق ويخفيها . والزائر للصحراء يدهش لكثرة تلك المسارب المتقاطعة المتقاربة أحياناً حتى يصعب عليه تحديد وجهته فيتعرض للهلاك إذا قدر له أقل خطأ فى تحديد المسرب الذى يجب عليه أن يسلكه بالذات وما أكثر احتمال هذا الخطأ حتى على الخبراء بمعالم الصحراء لأن عوامله كثيرة وإن احتاط أصحاب القوافل لذلك بالخبراء فى أسفارهم وبالماء الكافى فخبرة الخبراء كثيراً ما تقف دون التغلب على مثل هذه المآزق وإن استعانوا بشروق الشمس وغروبها نهاراً والنجوم ليلاً وهبوب الرياح فى تحديد اتجاه سيرهم . وكثيراً ما كان ينفد الماء قبل الوصول إلى المعادن التالية فتهلك القافلة وإن نجح بعضها فذلك من المعجزات وكثيراً ما تنفق جمال القافلة وتترك عظامها على الطريق تحدد مساربه مشيرة إلى الهلاك الذى ينتظر الغير إذا قدر له أن يمر بهذا المسلك دون الاستعداد الكافى .

أما المياه بالنسبة لهذه القوافل فهى أساسية وبدونها لا يمكن لأى قافلة أن تسير ولهذا اهتموا بحفر الآبار وتحديد المسافات بينها واتخذوا من الواحات محطات لهم واستعانوا بالقرب فى حملها وتفنتوا فى وسائل حماية هذه القرب حتى لا تتمزق اذا احتسكت بعض الجمال ببعضها البعض ومع كل ذلك فإن حرارة الصحراء كافية فى كثير من الأحيان باضاعة كمية كبيرة من المياه المحفوظة فى القرب بعامل البخر أو بعامل الرشح ولهذا كثيراً ما حسبوا لهذا النقص الحساب إلا أن تقديرهم أيضاً كثيراً ما كان يخونهم فتعرض القافلة للهلاك بسبب العطش رغم عمل كل الاحتياطات اللازمة لمقاومة هذا العدو الذى لا يعرف رحمة ولا صبراً .

ومن الاخطار الكبيرة التي كانت تتعرض لها تجارة القوافل فيما بين الساحل
واواسط افريقية الاعتمادات المنظمة التي تقوم بها جماعات قد احترفت هذا
النوع من الغزو ووضعت له الأسس الكفيلة بنجاحه وإن كان أصحاب القافلة
كثيراً ما يفلتون منه بفضل استعداداتهم وتجهيزهم للطرق المهددة ولكن يجب
علينا أن نعرف أن هذا الغزو الصحراوي الذي كانت تتعرض له تجارة القوافل
اللوية لم يكن نوعاً من القرصنة وان شأبها في كثير من الأوجه إذ أنه قد
نشأ بحكم ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية للصحراء حيث القتال غريزة
ملازمة لطبيعة الرجل . يعتبر الرجل الغزو خليقاً بالشهامة وخاصة من خواص
الرجولة ولا يقتصر حب الغزو وتمجيده على فريق دون آخر بل يشمل الجميع
وان اتخذ صوراً مختلفة باختلاف الأماكن والسكان وإن تطور أخيراً بحكم
تعاليم الدين الإسلامي وتنظيم الحياة على أسس اجتماعية جديدة لم يخل من
حسابها هذا النوع من طرق كسب العيش . ولنا في تاريخ بعض المتزعمين لحركة
المقاومة الشعبية للغزو الإيطالي في العصر الحديث ما يؤيد هذا الرأي إذ أن
كثيراً منهم كان من غزاة الصحراء ولكنهم تطوروا فيما بعد واتجهوا بنشاطهم
نحو العدو المغير وكان لهم في تمريناتهم السابقة ما جعلهم يحرزون النصر تلو
النصر على العدو المعتدى وبذلك استطاعوا قيادة الحركة الشعبية ضد العدو
وهكذا تحور ميدان البطولة واستعلت البطولة نفسها .

هذا ونجاح القافلة كثيراً ما كان يتوقف على الجمال وعددها وقوة احتمالها
ففي وفرتها ووجود الاحتياطي منها تسهيل لمهمة القافلة إذا تعرضت لأي طارئ
في جمالها كما أن الاعتماد على النوع الجيد المختار من الجمال يضمن سلامة وصول
القافلة في المواعيد المحددة فلا ترتبك التجارة ولا تفوتها الأسواق الهامة فضلاً

عن ضمان سلامة أصحابها لاسيما إذا اقترنت هذه الجمال الجيدة بخبراء فنيين لهم
مقدرتهم المعترف بها في قيادة القوافل والقيام بهذه المهمة على أحسن ما يكون
أسوة بالملاحين المهرة في قيادة أى قافلة من السفن وسط البحار. وكثيراً ما كان
لبعضهم من المهارة التي تخفف على القوافل مهمة سفرها وتشعر أصحابها كأنهم
في نزهة صحراوية وكان لبعضهم طرق مختلفة ورثوها عن آبائهم وتفننوا في
اكتسابها ووسائل تحسينها حتى أصبحوا مفضلين على غيرهم للقيام بهذه المهمة
في مقابل أجور باهظة وصلت في كثير من الأحيان إلى أخذ نصيب وافر من
أرباح القافلة المضمون لها النجاح . وإذا كانت القوافل كثيراً ما تنجح في مهمتها
بالاعتماد على مثل هؤلاء الخبراء فإن لحداة الأبل أيضاً فضلاً كبيراً في هذه
المهمة بما يبذلونه من مجهود صوتي وفن موسيقي يساعد القافلة على السير
الحديث ويدفع بجملها إلى الأمام مستخفة بالمتاعب مجددة نشاطها بعد ما تلاقيه
من تعب. ومؤلف هذا الكتاب لا ينس تلك الشهور التي قضاه وهو لا يزال في
المرحلة الأولى من أعوام الطفولة في صحبة إحدى القوافل وإن لم تكن قافلة تجارية
ولا ينس صوت «ابن شتوان» الذي قام بمهمة الحداة وأغانيه الجميلة ما زال
صداها يتردد في النفس إلى يومنا هذا وما زال مؤلف هذا الكتاب تدور في
خيلته صورة الأبل وأصحابها وقد انتابتهم الدشوة من صوت الحادى وترانيمه
الجميلة واندفعت الأبل في صفوف متراصة إلى الأمام بخطوات منتظمة أشبه
بخطوات الجند في مسيرهم وهى شاخصة ببصرها متطلعة إلى الأفق مستبشرة
بما في معاني أغانيه من مستقبل باهر لها ولأصحابها . ولا عجب في ذلك فإن
لحدو الأبل أثراً قوياً في نفوسها وفي نفوس البشر لا يستطيع فهمه على
حقيقته إلا من قدر له أن يقضى فترة في صحبة القوافل .

والملاحظ أن الاغاني التي يتمنى بها الحداة كثيراً ما تدور حول تخفيف
المتاعب الحالية وتهوينها بانتظار الفرج القريب والراحة التامة كما في الاغنية
التي مطلعها .

مدى رقابك واشربى الارياح * وان شاء الله بعد الشقاء تراحى (١)

وكثيراً ما كان بعضها يدور حول احدى قصص الغزو وهجوم الاعداء
على الابل واستماتة أصحابها فى الدفاع عنها وانقاذها من هذا الغزو ورد العدو
مهزوماً بعد الحاق الخسائر به ومن هذه الاغانى الاغنية التى مطلعها

هادول ييوها وهلها ما بوا * سود المناسم دونها نتنابو (٢)

وإذا كانت قوافل الحجيج لها نوع خاص من الحداء فإن حداة القوافل
التجارية كثيراً ما كانوا يرددون هذا النوع أيضاً فى أثناء قوافلهم التجارية لما
فى معانى هذا النوع من استبشار وتفاؤل بالناحية الدينية الممثلة فى الحج
والقيام به واستقبال متاعبه بكل صدر رحب وفى الاغنية التالية ما يوضح
هذا المعنى .

يا قاطعة رقرق سرت وبرقة * يا زائره قبر النبى من شرقه

مدت جماجمها وقالت سوقوا * وبكره على قبر النبى بنتوقو

ومن الاغانى التى جمعت بين معانى التبرك بالحج والاستماتة فى الدفاع عن
الابل الاغنية التى مطلعها .

ما من حاج بلغى مزاره * القبر الهاشمى فى يوم عيد

(١) مع ملاحظة أن أهل لوبيا ينطقون حرف القاف جيا وحرف الجيم معطشا كما هى الحال
عند أهالى الصعيد من مصر

(٢) سود المناسم كناية عن الابل لما يوجد فى مقدمة اخفافها من عظام نائمة سوداء ومعنى
هذا المطلع أن هؤلاء الغزاة يريدون الاستيلاء على هذه الابل ولكن أهلها رفضوا ذلك ووقفوا
دونها لحمايتها وتقاتلوا من أجلها .

وما من طفل مجلى غيابه * طاح ينسين فى ركابك يمسد

...

...

...

وتنقسم طرق القوافل الى نوعين أحدهما رئيسى والآخر فرعى . ويشمل النوع الأول الطرق الطويلة التى تقطعها القوافل فى مسدد تتراوح بين الشهرين والثلاثة بل قد تصل الى أكثر من العام وهى بمثابة حلقة الصلة بين الاقاليم أما النوع الثانى فيشمل الطرق القصيرة التى تقطعها القوافل فى أيام معدودة لقصرها وهى تربط المراكز بعضها ببعض وتصل ما بين بعض الواحات المتقاربة وهى أقل شأنًا من النوع الأول كما أنها محدودة الأثر بالنسبة إليه . ومن أمثلة النوع الأول طريق الحج الذى يمتد بحذاء الساحل الذى يعبر البلاد بطول ساحلها الشمالى ويصلها بتونس غرباً وينتهى شرقاً الى مصر بعد أن يعبر برقة الى الجنوب من هضبة الجبل الأخضر دون المرور مع القوس الساحلى لشبه جزيرة برقة توفيراً للوقت وتقريباً للمسافة وهو الطريق الذى سلكته الجنود الفاطمية فى فتحها لمصر كما سلكه الجيش الثامن البريطانى أخيراً فى حربه مع دولتى المحور الذى قطع به خط الرجعة على فلول الجنود المحورية وهى فى تقهقرها الى الغرب . وإلى جانب هذا الطريق الرئيسى الشمالى المعروف بطريق الحج هناك طريق آخر يمتد من الغرب الى الشرق محاذياً للطريق الأول وإن كان يقع الى جنوبيه ويختلف عنه فى طبيعته . وبواسطة هذا الطريق الداخلى يمكن للقوافل السير من مدينة طرابلس نحو الجنوب الشرقى الى واحة سوكنة فواحة زلة ثم الى واحة أوجلة فواحة سيوة ومن هناك الى دلتا مصر حيث تنتهى هذه القوافل إلى مراكلها معروفة ممثلة فى قرية كرداسة الواقعة الى الغرب من القاهرة وإلى مديرية الفيوم وإلى منخفض القطارة فوادي النطرون ثم إلى مديرية البحيرة . وكلها أسواق للتجارة ومحطات للقوافل التجارية فيما بين وادى النيل ولوبيا . وقد لعب بعضها وما زال يلعب دوراً هاماً فى التجارة

خصوصاً تجارة الأبل التي تصدر عن هذا الطريق الى أسواق قريتي امبابه
وكراسة بمديرية الجيزة وأبو المطامير بمديرية البحيرة . وهناك في هذه المراكز
كما في غيرها بقايا الكثير من اللوبيين الذين اشتغلوا بالتجارة مع وادى النيل
وقدر لبعضهم البقاء هناك واقامة مراكز تجارية ما زال بعضها على اتصال
بلوبيا وأهلها خصوصاً في الايام الأخيرة بعد طرد الايطاليين من لوبيا
وقد صاحب ذلك تيار تنقل وحركة بين وادى النيل والبلاد اللوبية . والملاحظ
أن هذا الطريق الاخير لا يطرقة اللوبيون إلا للاغراض التجارية بعكس
الطريق الأول الذى تغلب عليه صفة الحج ويفضل معظم التجار اللوبيين الطريق
الثانى توفيراً للوقت خصوصاً في فصل الشتاء حيث يهربون ببضائعهم من
الأمطار الساحلية (١) . وقد زادت أهمية هذا الطريق الأخير في عهد المقاومة
الشعبية للاحتلال الايطالى اذ عن طريقه تم فرار معظم اللاجئين اللوبيين الى
مصر بعد أن فشلت حركة المقاومة وبعد أن سد الايطاليون الطريق على
المهاجرين من المناطق الساحلية باستيلائهم على النقاط الهامة في الطريق الأول
الساحلى . ورغم ما فيه من صعوبة بالنسبة لنقل العائلات فإنه كان اضمن
وآمن من الطريق الأول الساحلى . على أن هذا الطريق الثانى أيضاً كثيراً
ما كان يسلكه بعض الحجاج في طريقهم الى الحج خصوصاً أولئك الذين
يسكنون الواحات الداخلية من اقليم فزان بعد أن يتصلوا به بالطرق الثانوية
الخاصة بهم كما جاء وصف ذلك فيما كتبه الرحالة فردريك هورنمان
Frederick Horneman في رحلته التى قام بها سنة ١٧٩٧ ابان الحملة الفرنسية
على مصر لاكتشاف الجهات الداخلية لافريقية بالاتجاه من الشرق الى الغرب
فى الوقت الذى كان فيه الرحالة مونجو بارك Mungo Park مشغولاً باكتشاف
الاجزاء الداخلية لافريقية أيضاً ولكن بالاتجاه المعاكس لمسير فردريك .

وقد استطاع فردريك القيام بهذه الرحلة بعد أن التحق بقافلة من الحجاج أثناء عودتها من الأراضي الحجازية في طريقها الى فزان وقد بدأ رحلته في اليوم الخامس من شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ بعد أن انتظر قافلة الحجاج ومن معهم من التجار في قرية كرداسة الواقعة بالقرب من مدينة القاهرة الى الغرب منها في مديرية الجيزة (١) .

وإذا استثنينا هذين الطريقين الأولين فإن بقية الطرق الأولية الأخرى للوبيين تتجه من الجنوب إلى الشمال وتصل ما بين ساحل البحر الأبيض وإقليم السودان وهي في اتجاهها تسير في خطوط متوازية وإن كان بعضها يتقابل مع البعض الآخر في واحات معينة تقوم بدور الوساطة والتبادل العام بين مختلف طرق القوافل وهي في هذه الحالة أشبه بمحاط المواصلات المعروفة حديثاً في السكك الحديدية . وفي مقدمة هذه الطرق الطريق الذي يصل مدينة طرابلس بإقليم تشاد وهو من أقدم طرق القوافل التي عرفها اللوبيون إذ يرجع استخدامهم له إلى أكثر من ٢٠٠٠ سنة تقريباً وعن طريقه جلبوا محاصيل أواسط أفريقية إلى موانئ الشمال وهو يمر بعدة واحات أهمها منطقة كاوار Kavar فواحة مرزق شمالاً . ومن الأخيرة إما تتجه القوافل غرباً إلى واحات غات فواحة غدامس شمالاً فمدينة طرابلس وإما تتجه القوافل من واحة مرزق شمالاً إلى مدينة طرابلس الغرب مارة بواحة سوكنة أو مارة إلى الغرب منها إلى مدينة طرابلس على البحر .

ومن الطرق الأولية كذلك الطريق الممتد من مدينة طرابلس شمالاً إلى إقليم نهر النيجر جنوباً حيث منطقة سوكتو Sokoto ومنطقة كانو Kano ببلاد

نيجيريا ماراً بواحة غدامس وواحة غات وأير Air . أما في الناحية الشرقية من لوبيا فنجد كذلك طريقاً أولياً هاماً يصل مدينة بنغازى بأقليم تشاد بالسودان ماراً بأجدابية فواحة أوجلة فألى واحة الكفرة ومن هناك إلى إقليم تشاد . ويتقابل هذا الطريق في واحة أوجلة مع الطريق الأولى الذى يتجه من الغرب إلى الشرق محاذياً للطريق الساحلى . كما أن واحة أوجلة نفسها تتصل بواحة مرزق في وسط إقليم فزان بطريق رئيسى يجعل من السهل الاتصال بين بنغازى والسودان الغربى .

وهكذا تعددت هذه الطرق الأولية وتشعبت إلى جانب المئات الأخرى من الطرق الفرعية وهكذا أيضاً تطورت أهمية بعض الواحات واكتسبت مركزاً ممتازاً في الصحراء وظهر بعضها بمظهر المدن المزودة بالفنادق وسبل الراحة والاستجمام . فهذه واحة مرزق عاصمة إقليم فزان حتى سنة ١٩٤٣ برغم موقعها غير الصحى وتأثيره على سكانها قد لعبت دوراً هاماً في تجارة القوافل الأمر الذى جعلها عاصمة لهذا الإقليم لكثرة ما يصل إليها من قوافل ، فهى بمثابة البؤرة للطرق التجارية ومنها يستطيع تجار القوافل الاتصال بأى مكان يريدونه ويستطيعون يومياً أن يتزودوا بأخبار القوافل الأخرى من البلاد البعيدة لكثرة ما يصل إليها من قوافل . والخلاصة أنها احتلت ما كان لواحة جرمة من مكانة خاصة في تجارة القوافل وقت أن كانت جرمة عاصمة للجرامنت في إقليم فزان في العصور القديمة . وهذه واحة سوكنة بالمثل كذلك وإن كانت أقل أهمية من واحة مرزق فإنها ملتقى لعدة طرق رئيسية هامة فضلاً عن الطرق الثانوية الأخرى وكذلك بالمثل واحة زويلة المعروفة بكثرة الاشراف من سكانها وقد كان لهم دور كبير في حياتها الى جانب ما اشتهروا به من هدوء بالنسبة لبقية سكان فزان كما يقرر ذلك الرحالة Lyon في كتابه (١)

أثناء رحلته التي قام بها وقد شاهد هناك بقايا مسجد يرجع الى العصر العربي الأول وقبور هؤلاء الأشراف المدفونين بها وسمع بعض ماردده الناس عن صلاحهم وتقواهم ثم وصف قلعتها ومساجدها الثلاثة الأخرى . وقد سبقه إلى تبين أهمية موقعها وقيامها كسوق الرحالة العربي البكرى في القرن الحادى عشر (١) حيث وصفها لنا بأنها مدينة وأنها تجمع للرفاق من كل جهة كما أنهم يفترون منها حيث تتشعب الطرق منها .

وإذا كان بعض هذه الواحات قد اختلفت أهميتها من وقت لآخر فان ذلك بدون شك يرجع إلى ما كانت عليه طرق القوافل التي تمر بها من أهمية إذ كثيراً ما كان يحدث لبعض التجار أن يتجنبوا بعضها نظراً لما كانوا يتعرضون له من أخطار بسبب الحروب والقتال أحياناً فيما بين القبائل التي تسيطر على هذه الطرق أو بسبب ما كانت تستهدف له بعض الأسواق المعينة من اضطرابات تقف دون تحقيق بغية تجار القوافل فيحاولون الاستعاضة عنها بأسواق أخرى ومن ثم إلى سلوك طرق أخرى . بل كثيراً ما كان يحدث أن تظهر للوجود بعض الطرق التي لم تكن مطروقة من قبل ولكن حاجة التجار ورغبتهم في الحصول على الأرباح كانت تدفعهم إلى محاولة الاهتمام إلى مسالك جديدة تضمن لهم استمرار موردتهم التجارى ومن أمثلة هذا النوع ذلك الطريق الذى نشأ باكتشاف واحة الكفرة التي تقع في منتصف الطريق فيما بين بنغازى وإقليم السودان الشرقى والتي كان لها في موقعها الخاص وصعوبة الوصول إليها ما حماها من الغزو العربى ولذا بقيت في عزلة حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى عندما استطاعت قبيلة زوية Zuwaya (من واحة جخرة) أن تستولى عليها

من أيدي أهلها التبو سنة ١٨٤٠ بعد أن أحاطت بها القوى الإسلامية من كل جانب. ولما كانت قبيلة زوية هذه معروفة بنشاطها التجارى فقد اتخذت من الكفرة محطة لها في تجارتها مع وادى والفاشر وزاد في أهمية هذه الواحة كمرکز تجارى بشكل واضح عندما بنى السنوسى الكبير زاويته المعروفة هناك وعندما انتقل إليها السيد المهدي بدعوة من زوية واتخذها قاعدة لنشاط حركته الدينية وبانتقال السيد المهدي إليها يبدأ العصر الذهبي لتجارة القوافل المارة بها وقد ساعد على ذلك قيام الثورة المهدية في السودان وما اقترنت به من فوضى واضطرابات كان لها أثر كبير في الحالة التجارية في السودان اضطر على اثرها التجار الذين يتعاملون مع وادى والفاشر والأبيض أن يتجنبوا طريق النيل أو طريق درب الأربعين الذى ينتهى عند مدينة اسيوط بالوجه القبلى بمصر وأن يحولوا نشاطهم التجارى إلى طريق الكفرة فأوجلة فاجداية وأخيراً إلى مدينة بنغازى على البحر. بل إن القلاقل التى حلت بالسودان بسبب ثورة المهدي وما سبق ذلك من نشاط الخديوى اسماعيل والى مصر فى محاربته لتجارة العبيد قد جعل التجار يتجهون إلى الطرق الغربية التى تنتهى إلى الموانئ اللوبية بدل إن كانت تنهى إلى أسواق القاهرة والاسكندرية. وما زالت واحة الكفرة تتمتع ببعض النشاط المحلى لتجارة القوافل رغم ما جسد عليها من تطور كبير قد سبق بيانه وترينا الخريطة التى نشرها الأستاذ Bell فى كتيبه عن واحة الكفرة أن هناك عشرة طرق لتجارة القوافل تخرج منها وما زالت كل هذه الطرق مطروقة حتى يومنا هذا وإن قل عدد القوافل التى مرت بها أخيراً. ففي عام ١٩٤٣ رغم ظروف الحرب قد مرت بها خمسة وسبعون قافلة كان عدد جمالها ٢٢٥٠ جملاً (١). وواحة الجنبوب نفسها رغم وقوعها فى طريق تجارى أولى ينتهى شرقاً عند وادى النيل فإنها لم

تكن قد اكتسبت قيمتها كقاعدة تجارية هامة لما في مياها من ملوحة إلا بعد ان اتخذ السيد السنوسى الكبير منها قاعدة له بعد انتقاله من زاويته فى البيضاء فى الجبل الأخضر ببرقة . وبانتقال السنوسى الكبير إليها وفدت عليها جماعات من الناس معظمهم من طالبى العلم بعد أن كانت خالية غير مسكونة (١)

...

...

...

وإذا كان اللوبيون بصفة عامة قد اشتهروا بتجارة القوافل منذ القدم فإن هناك جماعات منهم قد تخصصت فى هذا النوع من التجارة بشكل واضح بحيث يتعذر على غيرهم أن ينافسهم فيه . وقد عرفت تجارة القوافل قبائل الجرامنت فى العصر القديم كمحترفين لهذا النوع من التجارة وكسادة فى هذا الميدان حتى أنه لم يكن فى استطاعة غيرهم القيام بأى نشاط تجارى ما لم يشرف عليه الجرامنت ويتولوا أمر حمايته . وأهالى واحة غدامس التى عرفها العرب باسم غدامس قد كانت لهم شهرة كبيرة فى هذا الميدان منذ أن عرفت التجارة طريقها بين الساحل الشمالى ووسط افريقية ، وكان لموقع واحتهم وسيطرتهم على الطريق التجارى فيما بين مدينة طرابلس وإقليم السودان خصوصاً منطقة تمبكتو أثر كبير فى نشاطهم وانصرافهم إلى تجارة القوافل وجعل واحتهم محطة هامة لها وقد ساعدتهم على هذا أيضاً ما تمتع به أهالى غدامس من ذكاء عال فى هذه الناحية وأمانة خالصة هى الأساس الأول لضمان النجاح التجارى وقد استعانوا على ذلك بارسال بعضهم إلى مدينة طرابلس للإقامة هناك للإشراف على استلام تجارتهم فى محطاتها النهائية لضمان سلامتها ومراقبة الحالة التجارية وأسعارها وتقليباتها كما استعانوا أيضاً بوكلائهم فى واحة غات وفى بقية الأسواق الأخرى الهامة بالسودان لأحكام حلقة الاتصال التجارى وليكونوا على علم بما يحدث فى هذا الميدان التجارى . والحقيقة أن أهالى غدامس قد أخلصوا فى عملهم وحالفهم التوفيق بهذا الاخلاص

وصعب على الغير أن ينافسهم فكانت لهم الأولوية وكانت لهم الأرباح الطائلة وإليهم يرجع الفضل في تنبيه أهالي مدينة طرابلس الى هذا الميدان التجارى وعلى يديهم تتلمذ الكثير من التجار الموفقين من هذه المدينة حتى امكنهم منافسة أهالي غدامس فيما بعد .

أما في الشطر الشرقى من ليبيا فنجد بعد الفتح العربى المجاورة وهم سكان واحة جالو كما نجد قبيلة زوية وهى التى تسكن واحة جخرة . وقد نشأ عن النشاط التجارى لهاتين القبيلتين انتشار عنصرهما في كل مكان امكنهم الوصول إليه . فكثير منهم يقيم في مصر والسودان حيث يتجهون غالباً بنشاطهم التجارى ولهم مقدرة فائقة مسلم بها من الجميع على تحمل متاعب السفر واتقان تجارة القوافل بشكل تام . وقد كان لحياة السفر التى اعتادوها أثر كبير في تكييف معيشتهم وقد لاحظ عليهم ذلك الرحالة فردريك هرنمان (Frederick Horneman) فذكر أن أولئك الذين يشتغلون بالتجارة يحتفظون في العادة بثلاثة بيوت أحدها في قرية كراسة بالقرب من القاهرة والثانى في أوجلة نفسها والثالث في واحة زويلة أو مرزق بفزان . وكثير منهم له زوجة وأولاد في كل من هذه الأماكن بل كان بعضهم يتخذ له زوجة أثناء مدته المحدودة (١) التى تنقأها القافلة في إحدى المحطات لتعوله وتقوم بحاجياته الضرورية . ولهذا كثرت علاقاتهم مع الجميع بطول البلاد الواقعة في طريقهم التجارى . وليست هذه الحياة الفريدة من نوعها بصعبة عليهم او غريبة عنهم بل أنهم قد تعودوا عليها منذ نشأتهم الأولى وعملوا على تربية أولادهم واعدادهم لها في المستقبل كما كان الحال بالنسبة لأبائهم وأجدادهم من قبل .

وكثيرا ما كانت القوافل التجارية تغير مجرى طريقها أمام ما يصادفها من عقبات فهذه مدينة طرابلس التى حلت محل مدينة أويا القديمة قد آل اليها ما كان

يصل من قوافل الى لبدّة وصبراته حتى اذا حل الخراب بهما وانتعشت مدينة طرابلس على يد العرب الفاتحين انتقل النشاط التجارى بأجمعه فى الشطر الغربى من لوبيا اليها بعد أن كانت كل من لبدّة وصبراته تشاركها فى هذا العمل بل بعد أن كان لمدينة لبدّة النصيب الأول منه . ومدينة طرابلس نفسها قد تعرضت لمثل هذا الحال وان كان ذلك لفترة قصيرة لم يقدر لها أن تطول وذلك ابان الاحتلال الاسبانى لها فى أوائل القرن السادس عشر اذا انتقل نشاطها التجارى الى مدينة مسراته الواقعة الى الشرق منها على النهاية الغربية لخليج سرت الكبير واحتلت هذه المدينة وأهلها ما كان لمدينة طرابلس من نشاط تجارى وأصبح ميناؤها حلقة الصلة بين القوافل التجارية الداخلية وسفن البنادقة وغيرهم . والأمثلة من هذا النوع كثيرة يصعب على المؤرخ حصرها أو تتبعها فى صفحات قليلة لاسيا فيما يختص بالمنطقة الداخلية منها . ولكن كل هذه الأخطار لم تقف دون مسيرها وكان لها فى تعدد طرقها ما ساعدها على الاستمرار دون توقف الى أن قدر لها أن تتعرض لحوادث تاريخية هامة كان لها أكبر الأثر فى أضعاف شأنها وبالتالى فى القضاء عليها بشكل واضح وان كنا مازلنا نرى لها بقية من النشاط حتى فى أيامنا هذه بعد كل مامر عليها من عراقيل وأزمات مضعفة .

* * *

واذا كانت الحياة فى أوربا لم يمكنها الاستغناء عن توابل الشرق وانتاجه واذا كان البنادقة والجنويون وغيرهم قد اتخذوا من نقلها من الاسواق الشرقية الى أوربا مورداً طيباً للارباح الطائلة واذا كانت القاهرة باسواقها وبغداد بمناجرتها والاسكندرونه بمخازنها والقسطنطينية كذلك بموقعها وبقية المدن الأخرى التى استفادت من هذا النوع من التجارة قد ازدهرت فيها الحياة وبلغت شأنها محترماً حتى ان حكامها استطاعوا أن ينعموا بحياة طيبة وان يحققوا ما صعب على غيرهم محاولة التفكير فيه فإن الاوربيين كذلك لم يمكنهم الاستغناء عن انتاج وسط افريقية من عبيد وذهب وريش نعام ودهن نعام وجلود وطيور جميلة

ولهذا أيضاً كان لمدينة طرابلس وبقية المدن الاخرى التي ساهمت معها في تجارة وسط افريقية نصيب كبير من هذا النوع من الحياة حتى أن الأوربيين نظروا إليها بعين الاعتبار والتقدير خصوصاً أولئك الذين تعاملوا مع أهلها ولم تمنح لهم الظروف فرصة زيارتها الأمر الذي دفع بعضهم الى الاعتقاد بأنها مخازن للذهب والفضة وقد أقيمت مبانيها من معدنها ولا أدل على ذلك من هذه القصة التي ذكرها لنا ابن غلبون في تاريخه ، وقد اخبرني بعض الثقات من تجار البلد . قال دخلت مدينة بلنسية واتيت سوقها فسألني بعض التجار بها لما رأى الهيئة مغربية من أى بلاد المغرب أنت فأخبرته عن وطني فسألني : أينون بيوت طرابلس بلبن الذهب والفضة أم هي كسائر الدنيا ؟ ظننت أنه يسخر مني حتى أقسم لي بمبوده ، (١).

ولم يقتصر أثر تجارة القوافل على هذا الثراء الذي تمتعت به البلاد بل تعدى ذلك إلى التكوين الجنسى فيها - لا سيما في الجهات الجنوبية منها وقد وصل هذا الأثر جنوباً حتى اشرف على المناطق التي تسكنها العناصر الزنجية نفسها . ولولا هذه القوافل لكانت تلك الواحات المنتشرة في الصحراء الجنوبية أحسن ما يمثل مناطق العزلة في التكوين البشرى ولكن بسبب هذه القوافل التجارية اختلط سكانها بغيرهم وتأثروا بما تأثرت به الجهات الساحلية الشمالية من عناصر اجنبية طارئة وإن كان ذلك بشكل محدود قبل مجيء العرب أما بعد الفتح العربي فكان تأثير الجهات الجنوبية بالعنصر العربي بما في ذلك واحات اقليم فزان عظيماً حتى أن الدم العربي انتشر جنوباً بشكل واضح وظهرت اثاره في ملامح السكان وما زال إلى يومنا هذا بعض القبائل هناك تحتفظ بانسابها العربية وكثير من أفرادها ينتمون الى البيت النبوي الشريف وقد حملت هذه القوافل فيما حملت معها من بضائع هذه الدماء العربية ووصلت بها جنوباً الى السودان

حيث انتشرت واستقرت . وكذلك بالمثل فيما يتعلق بنشر اللغة العربية إلى
تجارة القوافل يرجع الفضل الأكبر في نشرها في الصحراء والوصول بها إلى
مشارف السودان . أما عن الأثر الديني الذي تركته تجارة القوافل فهذا شيء
واضح مسلم به إذ لولاها ما عرفت المسيحية في العصر القديم طريقها إلى الجنوب
ووصلت إلى أبعد من إقليم فزان حتى إذا جاء العرب فاتحين مبشرين بالدين الإسلامي
كان التجار المرافقون للقوافل التجارية خير دعاة لهذا الدين الجديد فسرعان
ما انتشر جنوباً ووجد قلوباً مفتوحة لاعتناقه وإذا كانت القوافل التجارية قد
ساعدت على نشر الدم العربي واللغة العربية فإن نجاحها في نشر العقيدة الإسلامية
كان أكثر حتى أصبحنا الآن نرى الدين الإسلامي منتشرًا في جهات جنوبية
نائية رغم ما يقف دون ذلك من مصاعب وعراقيل . وفي القرن التاسع عشر بدأنا
نجد صراعاً قوياً بين دعاة المسيحية من أوروبيين وغيرهم ممثلين في هيئات تبشيرية
منظمة ودعاة الإسلام ممثلين في تجار القوافل ورغم ما استعد له المبشرون
المسيحيون من مال وقوة سياسية ووسائل اغراء لتدعيم نشاطهم هذا فإن
الغلبة كانت في جانب دعاة العقيدة الإسلامية ولولا موقف الدول الاستعمارية
هناك وخوفها من الهزيمة أمام هؤلاء التجار المسلمين الذين قاموا بهذه
المهمة دون كلفة ودون تخصص لكان النصر النهائي لتجار القوافل في هذه الناحية
ولساد الدين الإسلامي تلك الربوع السودانية . ولا شك أن نشاط حركة الدعوة
الإسلامية في الصحراء وإقليم السودان في النصف الأخير من القرن التاسع عشر
يرجع الفضل الأول والأخير فيه إلى قيام الحركة السنوسية المباركة وانصراف
مؤسسيها إلى هذا النوع من النشاط بعد أن عملوا على تنقية العقيدة الإسلامية
بما علق بها بين سكان الجهات الساحلية الشمالية وعادوا بالعقيدة إلى الإسلام
الصحيح . وكانت جهود السنوسيين في الدعوة للعقيدة الإسلامية الصحيحة مع
ما اقترنت به من اصلاحات اجتماعية موفقة خير درع لوقاية تلك الجهات من
الخضوع للنشاط الأوربي المسيحي بعد أن تم للدول الاستعمارية الأوربية النصر

السياسى بفصل قوة السلاح . والحقيقة أن السنوسيين ايضا قد نجحوا كذلك فى تأخير هذا الاحتلال الأوربى بفضل نشاطهم الدينى وهم أن غلبوا أخيراً على امرهم فإن هزيمتهم لن تدوم فقد تركوا من مبادئ العقيدة التى بشروا بها هناك ما يكفى فى يوم ما تحريك أهلها وإيقاظ نفوسهم للبطالة بحقوقهم المسلوقة . ولقد وجد السادة السنوسيون فى تجارة القوافل خير معين لهم على نشر دعوتهم فى الجهات الجنوبية مستعينين فى ذلك بما كان لهم من علاقات ودية نشأت بين السنوسى الكبير وسلطان واداي Wadai محمد الشريف عندما كان الاثنان يدرسان الفقه الاسلامى فى مكة فلما عاد الأمير محمد الشريف إلى بلاده وأصبح سلطاناً لواداي سنة ١٨٣٨ كان خير معين لنشاط الحركة السنوسية هناك وفيما جاوره من بلاد السودان . ولقد كان السنوسى الكبير موفقاً كل التوفيق عندما اشترى احدى القوافل وهى فى طريقها من واداي إلى بنغازى وأعتق عبيدها وقام بتعليمهم فى الجنبوب وتفهيمهم للعقيدة الاسلامية الصحيحة ثم أرسل بهم الى واداي كدعاة لما تعلموه واعتنقوه فكانوا أحسن دعاة للعقيدة الاسلامية ونجح السنوسى الكبير فى دعوته نجاحاً كبيراً لم يستند فيه على القوة أو على النفوذ السياسى كما كان يفعل دعاة التبشير المسيحى فى تلك الجهات .

هذا شأن لوييا واللوبيين يوم ان عرف أهلها كيف يستغلون بيتهم الطبيعية وما حباهم الله به من موقع فريد وهكذا جمعوا بقوة عزيمتهم وحسن تفكيرهم بين البر والبحر ووصلوا وسط افريقية بالعالم الخارجى وحملوا إلى قلب القارة السوداء نورا الحضارة المتمثل فى الدين . ولقد سار اجدادنا اشواطاً بعيدة جداً فى هذا السبيل ثم حاول الاستعماريون من بعدهم أن يصلوا إلى قلب القارة من جديد وانتهوا بأن اعترفوا بأن أهل البلاد فى الشمال الافريقى أقدر منهم فى هذا المضمار وأوسع حيلة وأكثر قبولا فهل نستطيع حمل العبء من جديد وان نضفى حيويتنا الاقتصادية والثقافية والحضارية على جيراننا البعيدين نحو الجنوب ؟

المصادر

- ١ - البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب (الجزائر سنة ١٨٥٧ م) .
- ٢ - ابن غلبون : تاريخ طرابلس الغرب (القاهرة سنة ١٣٤٩) .
- ٣ - دائرة المعارف الإسلامية (المجلد الأول ، A. D. ، مادة Djaghbub) ، (المجلد الثاني E. K. مادة Kufra) .
- ٤ - E. W. Bovill : Caravans of the Old Sahara, « London 1933 »
- ٥ - Charles Wellington Furlong : The Gateway of the Sahara — « New York 1909 ».
- ٦ - Hugh Murry and James Willson : Narrative of Discovery and Adventure in Africa, « London 1840 ».
- ٧ - Captain G. F. Lyon : A Narrative of Travels in Northern Africa, in the years 1818, 1819 and 1820, « London 1821 » .
- ٨ - Major Dixon Denham : Narrative Travels and Discoveries in Northern and Central Africa in the years 1822, 1823 and 1824, « London 1826 ».
- ٩ - K. O. Bell : Kufra, « Part IX, Handbook on Cyrenaica — Cairo, 1944 - 1947 ».
- ١٠ - D. C. Cumming : The Modern History of Cyrenaica, — « Part Y, Handbook on Cyrenaica, Cairo 1944-1947 ».

Oric Bates : The Eastern Libyans, London 1914 - ۱۱

The Journal of Frederick Horneman's travels, From Cairo_ ۱۲
to Mourzouk, the capital of the Kingdom of Fezzan,
in Africa, in the years 1797 - 1798, Printed by W.
Bulmer & Co. «London 1802».

E. E. Evans Pritchard : The Sanusi of Cyrenaica - ۱۳
«London 1949».

Diplomatic and Consular Reports, Trade of Tripoli for - ۱۴
the year 1901 «No. 2843, Annual Series», Foreign
Office, London, July 1902».

Diplomatic and Consular Reports, Tripoli, Report on the - ۱۵
trade and Economic State of the Vilayat of Tripoli,
Northern Africa, During the past forty years, «No.
578 Mescellaneous Series», London 1902.

Major A. J. Cachia : Lybia under the second Ottoman - ۱۶
Oecupation, «Tripoli 1945».

فهرس موضوعات الكتاب

ص

مقدمة : بقلم المؤرخ الجليل الاستاذ عبد الحميد العبادى

كلية الجمعية التاريخية : للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

مقدمة المؤلف :

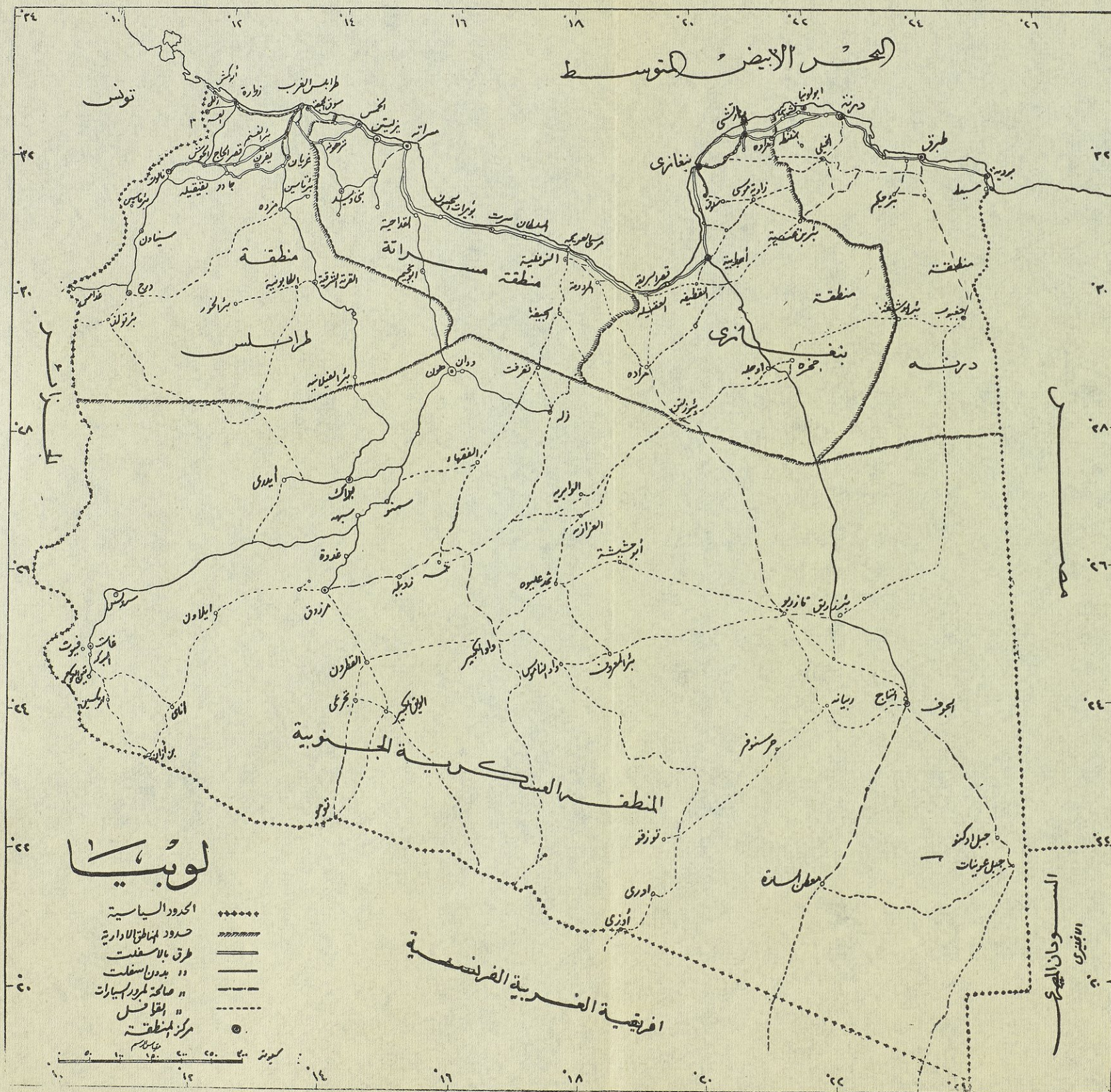
لوبييا وليست ليبيا	١٠
السوسى الكبير	١٥
الأسس الجغرافية والتاريخية للوحدة اللوبية	٧٨
لوبييا والسيادة البحرية	١٠٩
لوبييا وتجارة القوافل	١٦٧

تاريخ لوبيا (الجزء الاول) من أقدم العصور إلى الفتح العربي

إلى الشيخ العربي

للہوائف تحت الطبع

تاريخ لوبيا (الجزء الاول) من أقدم العصور إلى الفتح العربي



Association of Graduates in History

University of Alexandria.

STUDIES in LYBIAN HISTORY

"Historical foundations applied to the future of LYBIA"

BY

MOSTAFA ABDALLA BAIYOU

B.A. in History "of Alexandria Univ.",

H.I.E.C. "Cairo".

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0023382120

DT
236
,B33

JUL 20 1972 JAN 21 1981

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU69572003

DT224 .B3

Dirasat fi al-tarikh

DT
224
.B3